دروس

فى علم التوحيد

(النبوات - السمعيات)

تأليف

دكتور
شوقى إبراهيم على عبد الله
أستاذ العقيده والفلسفه
كليه أصول الدين - جامعة الأزهر
عميد الكلية
أ.د/ شوقى ابراهيم على عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله عز وجل نستغفره ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. فاللهم علمنا ماينفعنا ويرفعنا وأنفعنا بما علمتنا إنك على ماتشاء قدير، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين داعياً إلى ربه على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سلك منهجهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه دراسة هادئة فى العقيدة الإسلامية تميط اللثام عن مسائل فى علم العقيدة وتجلو من فصوله ماعنى بالخوض فيه العلماء. وقد سلكت فى عرض موضوعات هذا الكتاب الأسلوب السهل الميسر وحاولت جهدى أن تكون أدلته من الكتاب والسنة أولا: مؤيدة براهينه بالقياس العقلى ثانيا: فى أسلوب واضح يسهل تناوله فى يسر ورفق وهى تلقى الضوء على الوحى وإمكانه مع توضيح الحاجة الداعية إلى إرسال الرسل المؤيدين بالمعجزات وإبراز الفرق بين تلك المعجزات وبين مايكشفه العلم على أيدى الباحثين من علمائه من أسرار الكون وخفاياه وعدم غض النظر عن السمعيات التى تحدثت عنها الكتب السماوية كحياة البرزخ والبعث والحشر وما بعده وعنى بها القرآن عناية تامة ولما كان من العقائد التى يجب بها الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب

ولما كان نظر الإنسان قد لايعدو هذه الحياة وما فيها من متاع فينسى اليوم الآخر ولايعمل له جعل الله بين يدى الساعة أمارات تدل على تحققها وأنها ستقع حتما حتى لا يخامر الناس أدنى شك فيها ولايفتهم شيء عنها .

فمن المعلوم أن الصادق المصدوق ﷺ إذا ذكر من أشراطها شيئا ورأى الناس وقوع ذلك الشيء علموا يقينيا أن الساعة آتية لا ريب فيها فيعملوا لها ويستعدوا لذلك اليوم ويتزودوا بالصالحات قبل فوات الأوان وانقضاء الأجل المحدود (أن تقول نفس ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين)(١)

وقد ظهر كثير من أشراط الساعة وتحقق ما أخبر المصطفى ﷺ فكل يوم يزداد فية المؤمنين إيمانا به إذ يظهر من دلائل نبوته مايوجب على المسلمين التمسك بهذا الدين .

وكيف لايزدادون إيمانا وهم يرون هذه المغيبات التى أخبر بها رسول الله ﷺ تقع كما أخبر .

فإن كل واحدة من هذه الأشراط التى تحدث لمعجزة بينة لنبى هذه الأمة ﷺ .

وتأتى أهمية هذا البحث فى هذا الوقت الذى أخذ فيه بعض الكتاب المعاصرين يشكك فى ظهور ما أخبر به ﷺ من المغيبات التى يجب الإيمان بها فمنهم من أنكر بعضها ومنهم من أولها بتأويلات باطلة لهذا وذاك اشتمل البحث على أشراط الساعة الصغرى والكبرى بأدلتها الثابتة من القرآن والسنة المطهرة .

---

(١) سورة الزمر ٥٦ — ٥٨

وكذلك فان هذا البحث دعوة للإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر وتصديق لما أخبر به الصادق المصدوق الذى لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

ودعوة للتأهب لما بعد الموت فإن الساعة قد قربت وظهر كثير من أشراطها وإذا ظهرت الأشراط الكبرى تتابعت كتتابع الخرز فى النظام إذا انفرط عقده .

وإذا طلعت الشمس عن مغربها قفل باب التوبة وختم الأعمال فلا ينفع بعد ذلك إيمان ولا توبة إلامن كان قبل ذلك مؤمنا أو تائباً (يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا)[١] .

نسأل الله أن يجعلنا من الآمنين يوم الفزع الأكبر وممن يظلهم فى ظله يوم لاظل إلا ظله .

ولا أبرىء نفسى من الزلل ورجائى ممن يجد فيه خطأ أن ينبهنى عليه مشكوراً والله أسأل أن يوفقنا أن نضع مرضاته وعظيم ثوابه نصب أعيننا دائماً وأبداً فى كل مانفعله ونقوله وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وهو مولانا فنعم النصير .

الكويت — الأحد فى يوم عرفة سنة ١٤١٠هـ الموافق ٢ يوليو ١٩٩٠

دكتور
شوقى إبراهيم على عبد الله

---

(١) الأنعام ١٥٨

تمهيد :

ليس الوحي ابتكارًا ولا إبداعًا ولا افكارًا ولا اختراعًا ولا قوة حدس ولا خطرات وجدان ولا ذكاء إنسان ولا عبقرية بشرية ولا أساطير الأولين ولا خرافات أو تخيلات ولا مكاشفة ولا إملاء معين ولا اكتساب سنين ولا نفث ساحر ولا نظم شاعر بل وحي رب العالمين تلقاه النبي الأمين بأحد طرائق الوحي الثلاثة في حال صحوة واكتمال انتباه واستعداد كامل لاستقبال كلام الباري وتوجيهاته الربانية لمن يختار من خلقه من بين أبناء جنسه حينما يشرفه بالنبوة أو يخصه بالرسالة فيتلقى الوحي وهو بكامل قواه العقلية واستعداداته الفطرية فيتقبل ما يشاء الله من التشريع .

وقد شغلت قضية الوحي حيزا كبيرا من افكار المنظرين والفلاسفة واستغرقت كثيراً من وقتهم تهربًا من الإقرار بالوحي المباشر ومع ذلك لم تستطع الفلسفات القديمة ولا الاهتمامات الحديثة ولا التطلعات الحثيثة ولا النظريات المعاصرة أن تخرج برأي مقنع عن عالم الغيب بدون الاعتماد على عنصر الوحي لأن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [١] .

وعالم الغيب ليس له سوى مصدر واحد هو الوحي فلا تحكمه القوانين الطبيعية التي وضعها الله للحياة المشاهدة على هذه الأرض لنا فباءت كل محاولاتهم بالفشل الذريع صارت كل القياسات باطلة ومضللة وما الوحي عند الفلاسفة إلا فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشري زكي النفس طاهرها يتميز عن النوع الإنساني بثلاث خصائص ، قوة الإدراك وسرعته لينال من العلم أعظم مما ينال غيره ، وقوة النفس ليؤثر في العالم بحيث يستطيع أن يقلب الصورة إلى صورة أخرى وهي ما يفعله الساحر والمشعوذ وقوة التخيل ليخيل بها القوى

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .

العقلية في أشكال محسوسة وهي الملائمة عندهم (١) .

فهم بهذا ينكرون نوعين من أنواع الوحي وهما تكليم الله لرسوله مباشرة بدون واسطة ، كما هو الحال لتكليمه موسى عند جبل الطور وتكليمه محمد صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى ليلة أسري به ، كما ينكرون إرسال الملك بالوحي إلى الرسول ، كما هو الحال بإرسال جبريل بالوحي إلي محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ج ٢ ، ص ٦ تحقيق عبدالرحمن عميرة .

الوحي بين اليهودية والمسيحية والإسلام

تمهيد في تعريف الوحي :

الوحي هو الركن الأساسي في النبوات [١] . وهو الصلة التي تربط الأرض بالسماء وعن طريقه يعرف النبي أنه نبي .

ذكر ابن فارس في معجمه أن الواو والحاء والحرف المعتل وحي : اصل يدل على إلقاء علم من أحد لغيره فالوحي : الإشارة ، والوحي : الكتاب والرسالة والإلهام ، والصوت (وكل ما ألقيته إلى غيرك فَعَلِمَهُ فهو وَحْي) [٢] ، من باب وحى إليه الكلام يحيه وحْيًا – أوحى وهو يكلمه بكلام يخفيه (وحى) و (أوحى) أي كتب وأوحى أشار [٣] ومنه قول الله : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيًا ﴾[٤] .

فالوحي : يطلق إذن على الحركة التي تكون بين الملقي والملقَى إليه وهي الإلقاء كما أن الوحي يطلق – أيضًا – ويراد به اسم المفعول وهو الشيء الموحى به فيسمى وحيًا ويكون معناه كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه قال تعالى : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [٥] .

---

(١) د. محمد أبو الغيط الفرت ، العقيدة الإسلامية ، ص ١٤٥ .

(٢) معجم مقاييس اللغة مادة (وحي) وانظر القاموس المحيط فصل الواو باب الياء .

(٣) مختار الصحاح الواو مع الحاء .

(٤) مريم ، آية : ١١ .

(٥) سورة النجم ، آية : ٤ .

صور الوحي

يتمثل الوحي في صور عديدة وقد أشار القرآن إلى نماذج منها : فمن ذلك :

الوحي يأتي ويكون بمعنى الأمر كما في قوله تعالى :

﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ﴾ (١) . وقد يأتي ويكون معناه الإلهام والتسخير للحيوان كما في قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ (٢) .

وقد يراد به الوسوسة الشيطانية كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ (٣) .

حيث يلقي الشيطان في رُوعِ وليه المعاند للحق الباطل وينفث في قلبه ما يضل به ويصد عن الحق ولهذا لما قيل لابن عباس – رضي الله عنهما – إن المختار الثقفي يزعم أنه يوحى إليه قال صدق ، فلما نفر السامعون بين لهم أنه يوحى إليه لكن من قبل الشيطان لا من الله (٤) .

وقد يأتي ويراد به الإلهام الفطري للإنسان كما في قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ (٥) .

---

(١) سورة المائدة ، آية : ١١١ .

(٢) النحل ، آية : ٦٨ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٢١ .

(٤) إسماعيل بن كثير القرشي ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

(٥) سورة القصص ، آية : ٧ .

معنى الوحي اصطلاحاً

اصل الوحي في اللغة كلها : إعلام في خفاء ، ولذلك صار الإلهام يسمى وحياً قال الأزهري وكذلك الإشارة والإيماء والكتابة يسمى وحيًا يقول تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾ (١) .

معناه إلا ان يوحى إليه وحيًا يعلمه بما يعلم البشر انه أعلمه ، إما إلهاماً أو رؤية ، وإما ان ينزل عليه كتاباً كما أنزل على موسى ، أو قرآنًا يتلى عليه كما أنزل على محمد ﷺ . وكل هذا إعلام وإن اختلفت أسباب الأعلام فيها (٢) .

إذن من هذا القول يتبين أن كل المعاني السابقة ترجع إلي أصل واحد لا وهو الإعلام في خفاء ، فالأصل في الوحي هو الخفاء ولكن نجد أن بعض العلماء يضيف إليه السرعة . **يقول الشيخ محمد رشيد رضا** في كتابه (٣) :

« والقول الجامع في معنى الوحي اللغوي : أنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوحى إليه حيث يخفى على غيره .

ومنه الإلهام الغريزي كالوحي إلى النحل وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في رُوع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى أم موسى ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ... ﴾ (٤) .

ووحي الله تعالى إلى انبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة فهذا معنى المصدر .

---

(١) سورة الشورى ، آية : ٥١ .

(٢) لسان العرب ، ج ٥٢ ، ص ٤٧٨٨

(٣) الوحي المحمدي .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ١٢١ .

ويطلق الوحي على متعلقه وهو ما وقع به الوحي أي اسم المفعول وهو ما انزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم ومنهم من أعطاه كتابًا أي تشريعًا يكتب ومنهم من لم يعطه » (١) .

في دائرة المعارف البريطانية :

تقول في معنى الوحي : « يستخدم لفظ الوحي في اللاهوت ليدل على الحالة التي يكون فيها الإنسان تحت التأثير الإلهي المباشر ويعني الوحي تجرد الإنسان ليكون في قبضة الإله بحيث يصير هذا الإنسان هو الطريق أو القناة التي يسري فيها وحي الله من كلام ومشيئة » (٢) .

في دائرة المعارف الامريكية تقول في تعريف الوحي :

« الوحي هو توصيل الحق من الله إلى الناس ويقال كذلك عن الحق الذي وصل إلى الناس وبخاصة في الكتب المقدسة ويتجلى الوحي بإرادة الله وتدبيره في عقل الإنسان وفي صوت الضمير والوجدان لكن أكثر الوحي صراحة لإرادة الله بالنسبة للإنسان ، هو ما كان في الكلمة المكتوبة وفي تسجيل تراسل إلهي خاص ثم في الماضي إلى القديسين والذين تكلموا بالروح القدس وهذه الكلمة المكتوبة مفتاح كل الوحي الخاص بالطبيعة والمشيئة الإلهية (٣) .

من خلال ما رأينا في الدائرتين يتجلى لنا أن الإرسال في موضع الوحي لابد أن يكون من الله وأن الاستقبال يكون من أحد العباد .

وواضح أن الوسائل تختلف وتتعدد ومهما تعددت الأسباب والوسائل فالعبد

---

(١) محمد رشيد رضا ، الوحي ، ص ٣٥ .

(٢) نقلاً عن المهندس أحمد عبدالوهاب ، الوحي والملائكة في اليهودية والمسيحية والإسلام ، ص ٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

لابد أن يكون في كل الحـالات خاضعـاً للتاثيـر الإلهي المباشـر (وهكذا يكون كتـبة العهدين القديم والجديد من القديسين والربانيين ، كما يتصورون ويدعون) .

أما الوحي بمعناه الشرعي فله اعتبارات ثلاثة :

١ - باعتبار معناه المصدري فيكون الوحي هو التعليم السري الصادر من الله تعالى إلى أنبيائه .

٢ - وباعتبار الحـاصل فهو عرفان يجده الشخص من نفسـه مع التاكد بانه من قبل الله بواسطة أوبغير واسطة .

٣ - وباعتبار الموُحِى به فيكون هو كلام الله المنزل .

وبناء على ما سـبق يكون الوحي إعلاماً في خفـاء يطلق ويراد به الموُحَى وقد عرفوه شرعًا أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه .

وقد عرفه محـمد عبده بانه : « عرفان يجده الشـخص من نفسه مع اليقين بـنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة » (١) .

واليقين الذي يقصـده الإمام في هذا التعريف هو يقين النـبي أن ما وصل إليه من مـعـرفة أنهـا من قـبل الله تعـالى سـواء أكان ذلك بـواسطة ملك أم بوحي دون واسطة وشرط اليقين هنا « أن ذلك من قبل الله » يخـرج الإلهام لأن الإلهام كونه من قبل الله مظنون .

(١) رسالة التوحيد ، محمد عبده ، ص ٨٨ .

الفرق بين الوحي والإلهام

الفرق بين الوحي والإلهام الذي هو لغير الأنبياء أن الوحي مصحوب باليقين لأن مصدره هو الله تعالى ، أما الإلهام فهو حالة وجدانية تحدث في النفس من غير شعور بمصدره كالهم والحزن والسرور والجوع والعطش ، فمصدره غير معروف يقول محمد عبده : « ويفرق بينه - أي الوحي - وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستقيه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى » (١) .

فالإلهام إذن غير الوحي وإذا كان مصدر الوحي معروفًا ومتيقناً فإن مصدر الإلهام مجهول غير معلوم .

يقول ابو حامد الغزالي :

« فالوحي حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء ، فاما علم الوحي فكما أن النفس دون العقل فالولي دون النبي فكذلك الإلهام دون الوحي فهو ضعيف بنسبته للوحي » (٢) .

إذن فما دام الوحي يخالف الإلهام فما هو معلوم أن ما كان من قبل الله للنبي يطلق عليه وحي لا إلهام ، أما الإلهام فقد يكون لغير الأنبياء من البشر لهذا لما ذكر الله تعالى طرق الوحي ، لم يطلق على واحدة منها إلهاماً فقال ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ (٣) .

فذكر هنا وحياً وذكر الفعل يوحي بإذنه ما يشاء ، ومادام الإلهام لايعلم

---

(١) رسالة التوحيد محمد عبده ، ص ٨٩ .

(٢) الغزالي ، القصور العوالي من الرسالة اللدنية ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٣) سورة الشورى ، أية ٥١ .

مصدره فهل يصح أن يكون مصدرًا لكتاب سماوي منظم لشؤون أمة من الأمم ، يدعي الذين كتبوا الكتب المقدسة في اليهودية والنصرانية أنهم كتبوها بإلهام الروح القدس ويقررون أن الإلهام لم يكن في اللفظ والمعنى بل كان في المعنى فقط ولهذا اختلفت تعبيرات الأناجيل ونصوصها .

طرق الوحي في اليهودية

في العهد القديم :

باستقراء أسفار العهد القديم نلاحظ أن طرق الوحي متعددة منها : كلام الله إلى الأنبياء .

والمتأمل في هذا الطريق يجد أن الأسفار تشير إلى أن كلام الله يكون بصوت مسموع والله في تصور الأسفار يُرى ويحس حين إلقائه كلامه لأنبيائه ويظهرْ ويراه المتحدثون يقول كاتب سفر التكوين : « وسمعَا صوت الرب ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله . في وسط شجر الجنة فنادى الرب الإله آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال أسمعت صوتك في الجنة فخشيت ، لأني عريان فاختبأت . فقال : من أعلمك أنك عريان (١) .

ونقرأ أيضاً في سفر التكوين :

« وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعلمها ويحفظها ، وأوصى الرب الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تاكل أكلا وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تاكل منها ، لأنك يوم تاكل منها موتًا تموت » (٢) .

وجاء في سفر الخروج « دعا الرب موسى وكلمه من خيمة الاجتماع » (٣) .

---

(١) سفر التكوين ٣ : ١١ .

(٢) تكوين ٢ : ١٧١ .

(٣) الخروج : ٣٣ - ٩ .

فهذا نموذج من أسفار التكوين والخروج نلمح في هذه النصوص تعليمات ووصايا صدرت من الرب لآدم أول الخلق ولنبي الله موسى مايفهم منه طريقاً من طرق الوحي .

يقول برسوم ميخائيل : « كان الوحي يصل إلى الموحى إليهم عن طريق كلام من شخص منظور في صورة إنسان أو صورة ملاك وقد يكون الشخص هو الرب ذاته » [١] .

واضح أن الكاتب يقرر هنا أن الشخص المنظور الذي يلقي الوحي إلى الأنبياء قد يكون هو الرب ذاته وهو في ذلك يتفق مع نصوص الكتاب المقدس حيث نجد في سفر التكوين هذا المعنى فقد ورد فيه (وظهر له الرب عند : بلوطات ممر وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه)[٢]

يقول برسوم ميخائيل في تفسيره : « وإذا ثلاثة رجال وكان اثنان منهم ملاكين في رفقة الرب ، وفي العهد القديم أمثلة كثيرة على هذا الطريق من طرق الوحي وكثيراً ما يكون الخطاب لموسى عليه السلام مثل : وكلم الرب موسى « وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم) [٣] .

وكلم الرب موسى في برية سيناء [٤] .

وتكرر هذا الخطاب لموسى في أسفار الخروج والعدد واللاويين والتثنية :

(ولم يقم في بني إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهًا لوجه) [٥] .

---

(١) برسوم ميخائيل مجموعة حقائق كتابية ، ص ٧ .
(٢) تكوين ١٨ - ١ - ٣ .
(٣) تثنية ٣٢ - ٤٨ - ٤٩ .
(٤) العدد ١ : ١ - ٢ .
(٥) تثنية ٣٣ - ١ - ١١ .

الطريق الثاني : الأحلام والرؤى

يقول برسوم ميخائيل خادم الإنجيل : « وكان الله أحيانًا يوصل إعلاناته عن طريق الأحلام كما حصل مع يوسف أو عن طريق مخاطبته تعالى للشخص في نومه كما حصل مع إبرام (١) .

ويشير سفر التكوين إلى ما حدث ليوسف فيقول : (وحلم يوسف حلمًا وأخبر أخوته فازدادوا أيضاً بغضاً له فقال لهم : اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت فهانحن حازمون حِزَماً في الحقل وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي » .

ثم حلم أيضاً حلمًا آخر وقصه على أخوته فقال : إني قد حلمت حلمًا أيضاً وإذا الشمس والقمر أحد عشر كوكباً ساجدة لي ، وقصه على أبيه وإخوته فانتهره أبوه وقال له ، ما هذا الحلم الذي حلمت به ؟ هل فاتي أنا وأمك وأخوتك لنسجد لك إلى الأرض فحسده إخوته وأما أبوه فحفظ الأمر » (٢) .

ويشير سفر التكوين إلى ما حدث لإبرام كذلك فيقول : (ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على إبرام سبات ، وإذا رعبة مظلمة عظيمة واقفة عليه فقال لإبرام : اعلم يقينًا أن نسلك سيكون غريبًا في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلونهم أربع مائة سنة ثم الآفة التي يستعبدون لها أنا أدينها ، وبعد ذلك يخرجون بأملاك عظيمة وأما أنت فتمضي إلى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة .
وفي الجيل الرابع يرجعون إلى هنا لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآن تلك القطع في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً) (٣) .

---

(١) برسوم ميخائيل مجموعة حقائق كتابية ، ص ٧ .

(٢) تكوين ٢٧ : ٥ - ١٠ .

(٣) سفر التكوين ١٥ - ٥ - ١٨ .

ونلاحظ أننا إذا استقرأنا أسفار العهد القديم نجد أن الرؤيا كانت طريقاً من طرق الوحي لأغلب الأنبياء مثل يوسف وإبرام (إبراهيم)وناثان وسليمان الخ .

الطريق الثالث عن طريق الملائكة

اشار برسوم ميخائيل لهذا الطريق فقال :

« كان الوحي يصل إلى الموحى إليهم عن طريق كلام من شخص متطهر في صورة إنسان أو صورة ملاك وظهور الملائكة في صور بشرية تخاطب البشر بلقائهم وتبلغهم وحي الله كانت أكثر وسائل الوحي شيوعًا وانتشار لديهم .

وقد أشار إلى ذلك سفر التكوين : فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً وكان لوط جالساً في باب سدوم وقال الرجلان للوط : من لك أيضاً ههنا أصهارك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرجه من هذا المكان ، لأننا مهلكان هذا المكان ، إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فارسلنا الرب لنهلكه [(١)] .

وتكرر هذا مع إبراهيم ويعقوب ودانيال وغيرهم من الأنبياء .

وهناك طرق اخرى منها :

١ – أن يسمع الموحى إليه صوتاً يناديه فلا يعرف مصدره إلا عن طريق واحد ممن يقرأون الكتاب ولهم دراية بطرق الوحي .

حدث ذلك مع صموئيل الذي كان حبيباً يخدم بيت الرب مع الكاهن عالي .

« وكان الصبي صموئيل يخدم بيت الرب أمام عالي » [(٢)] .

وصموئيل مضطجع في هيكل الرب الذي فيه تابوت الله أن الرب دعا صموئيل فقال ، هأنذا وركض إلى عالي ، وقال هأنذا لأنك دعوتني ، فقال لم أدع ارجع

---

(١) التكوين ١٩ - ١ - ١٢ .

(٢) صموئيل الأول : ٢ - ١ .

اضطجع ، فذهب واضطجع ثم عاد الرب ودعا أيضاً صموئيل فقام صموئيل وذهب إلى عالي وقال : هأنذا . لانك دعوتني فقال لم أدع يابني ، ارجع . اضطجع ولم يعرف صموئيل الرب بعد ولا أعلن له كلام الرب بعد وعاد الرب فدعا صموئيل ثالثة فقام وذهب إلى عالي وقال : هأنذا لأنك دعوتني ، ففهم عالي أن الرب يدعو الصبي ، فقال عالي لصموئيل اذهب اضطجع ويكون إذا دعاك تقول : تكلم يارب لأن عبدك سامع (١) .

يتضح لنا من هذا النص أن صموئيل لم يعرف مصدر النداء ولا الكاهن عالي عرف المصدر إلا بعد أن تكرر ثلاث مرات ، حينئذ لاحظ الكاهن أن الرب هو الذي ينادي فاخبر صموئيل بذلك .

كما يظهر من النص أن الوحي لديهم ليس له سن معينة فالرب قد نادى صموئيل وأوحى إليه وأعلمه أنه سيفنى بيت الكاهن عالي ، في حين أنه كما عرضنا لولا عالي لماعرف صموئيل أن ذلك وحيٌ .

« قال الرب لصموئيل ، هو ذا أنا فاعل أمرًا في إسرائيل ، كل من سمع به تطن أذناه في ذلك اليوم أقيم على عالي كل ما تكلمت به على بيته أبتدى وأكمل ، وقد أخبرته ياتي أقضى على بيته إلى الأبد من أجل الشر) (٢) .

الرب أوحى إلى صموئيل وهو صبي لم يبلغ مبلغ الرجال . ففهم عالي أن الرب يدعو الصبي ، وقد يشاهد العبد في السماء نارًا أو نورًا ثم يسمع منها ملاك الرب.

وأما موسى فكان يرعى غنم يبشرون حميه كاهن مريان .. فظهر له ملاك الرب يلهب نار من وسط عليقة فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق ، فقال موسى أميل الآن لانظر هذا المنظر العظيم لماذا لم تحترق

---

(١) صموئيل الأول ٢ : ٣ - ١٠ .

(٢) صموئيل الأول ٣ - ١١ - ١٤ .

العليـقـة، فلما رأى الرب أنه مـال لينظر نـاداه الله من وسط العليـقة وقـال : موسى مـوسى ، فقال : هأنذا ، فـقال لاتقترب إلى هـاهنا .. ثم قال : أنا إله أبيك إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر [١] .

وقد تشاهد بعض الأمور المزعجـة كزلزلة وشدة ريح وعواصف وزوابع وتظهر نار يليها بعض الأصوات الخفيفة ويليها صوت الوحي .

وهذه الظاهرة حدثت لإيلياء وحزقيال .

(وإذا الرب عابر وريح عظيـمة وشديدة قد شـقت الجبال وكسـرت الصخور أمام الرب ، ولم يكـن الرب في الزلزلة وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في الـنار وبعد النار صوت منخفض خفيف ... وإذا بصوت إليـه يقول : مالك هاهنا يا إليا .. ، فقال له الرب : إذهب راجعًا في طريقك إلى دمشق) [٢] .

ومثال ذلك قد وقع لحزقيال :

« صار كـلام الرب إلى حزقيال الكاهن ابن يوزي فـي أرض الكلدانيين عند نهر خابور ، وكـانت عليه هناك يد الرب ، فنظرت وإذا بريح عـاصفة جاءت من الشـمال سحابة عظيمـة ، ونار متواصلة وحولها لمعان ومن و سطهـا كمنظر النحاس اللامع من وسط النار ومن وسطها شبه أربعة حيوانات وهذا منظرها لها وجه إنسان ولكل واحد أربعة أوجه لكل واحد أربعة أجنحـة .. هذا منظر شبه مجد الرب ، ولما رأيته خررت على وجهي وسمعت صوت متكلم [٣] .

وقد تسـتحوذ على الـعبد قـوة إلهية وتجـبره على النطق بالوحي المقـصود وسواء أكان ذلك بطريقة إرادية واعية أو بطريقة غير إرادية [٤] .

---

(١) الخروج ٣ : ١ - ٦ .

(٢) الملوك الأول : ١٩ - ٩ - ١١ .

(٣) حزقيال ١ - ١ - ٢٨ .

(٤) مجموعة حقائق كتابية ، ص ٩ برسوم ميخائيل .

أما الطريق الأول الإرادي فـقد يمثل له بما أمر الله به إلى أرمـيا ويونس وكل أنبياء الله القديسين فقد جاء من هذا النوع أربع إصحاحات من الأول حتى الرابع في سفر أرميا وكان أرميا هو المقصود بها .

وكما جـاء في الإصحاحين الحادي عشر والثـاني عشر من سفر أشعـياء وكان أشعياء هو المقصود .

اما الطريق الثاني غير الإرادي فيشـير إليه برسوم ميـخائيل قائلاً : أو بطريقة غير إرادية كما في حالة بلعام وشاول وقيافا وغيرهم من الأدعياء (١) .

وورد ذكر بلعـام في سفر التـثنية (ورفع بلعـام عينيه ورأى إسـرائيل حالا حسب أسـباطه فكان عليـه روح الله فنطق بمثله وقال وحي بلعـام بن بعور وحي الرجل المفتوح العينين) .

وأما شاول فجاء ذكره في سفر صموئيل في أماكن متفرقة « وكان الروح الردى من قبل الرب على شاول وهو جالس في بيته ورمحه بيده (٢) .

فكان عليه أيضاً روح الله فكان يذهب وينبـأ حتى جاء إلى نايوث في الرامة ، فخلع هو أيضـاً ثيابه وتنبأ هو أيضًا أمـام صموئيل وانطرح عـريانًا ذلك النهار كله وكل الليل لذلك يقولون :

أشاول أيضًا بين الأنبياء (٣) .

وإذا كان برسوم ميخائيل أطلق على هذا النوع أنه اسـتيلاء القوة الإلهية على

---

(١) برسوم ميخائيل مجموعة حقائق كتابية ، ص ٨ .

(٢) صموئيل الأول ١٩ – ٩ .

(٣) صموئيل ١٩ – ٢٤ .

الإنســان فواضح أن لفظ روح الله هو الذي يتكرر في أمـثلة هذا النوع ولهذا فهو وحي عن طريق الملك .

والأستاذ أحمد عبدالوهاب في كتابه : الوحي والملائكة في اليهودية والمسيحية والإسلام نقل نصًا من المصادر الأجنبية في هذا الطريق يقول فيه : « ولقد عرفنا أن من الملائكة أرواحًا متميزة إذا ما حلت بالعبد الصالح أنطقته بوحي الله وصار هو لسانها المتكلم بصوت تسمعه الآذان البشرية وتعي ما يقول ولذلك قال موسى ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذا جعل الرب روحه عليهم (١) .

وكان كلام صموئيل النبي إلى شاول وهو يعلمه إحدى طرق الوحي : عند مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وهم يتنباون فيحل عليك روح الرب فتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر (٢) .

ويذكر حزقيال طريقة بدء الوحي فيقول : سمعت المتكلم معي وقال لي يابن آدم أنا مرسلك إلى بني إسرائيل إلى أمة متمردة (٣) .

---

(١) نقلاً عن أحمد عبدالوهاب ص ٢٧ .

(٢) صموئيل الأول ١ - ٥ - ١٠ .

(٣) حزقيال : ٢ - ٢ ، ٣ .

الوحي في النصرانية

بعد استقراء طرق الوحي في العهد القديم لدى اليهودية وعرفنا تعدد هذه الطرق وتباينها نعرض بعد ذلك لطرق الوحي في النصرانية والمعروف أن النصرانية ترى أن كتابها المقدس هو العهد الجديد وباستقراء العهد الجديد نجده يعترف بالطرق التي ورد ذكرها في العهد القديم ويضيف طرقاً أخرى ، فقد ورد في الإصحاح الأول من الرسالة إلى العبرانيين هذه العبارة (الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بانواع وطرق كثيرة كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء) .

وفي العهد الجديد نجد تفاصيل لحالات الوحي ومنها :

اولاً : حلول روح الله

ورد في سفر أعمال الرسل في الأصحاح الثاني هذا النص : (وامتلأ الجميع من الروح القدس ، وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى ، كما أعطاهم الروح أن ينطقوا) [١] .

تلاميذ المسيح حلت فيهم الروح فأصابتهم حالة الوحي حتى صاروا يتكلمون بألسنة أخرى .

ولقد سخر اليهود من هذه الألسنة التي تقول مالا يعقل - في ظنهم - وظنوهم سكارى ومخبولين :

« وكان اليهود رجالاً أتقياء من كل أمة تحت السماء ساكنين في أورشليم ، فلما صار هذا الصوت اجتمع الجمهور وتحيروا لأن كل واحد منهم كان يسمعهم يتكلم بلقبه » .

---

(١) أعمال الرسل ٢ : ٤ - ٥ .

فماذا كانت نتيجة هذا التردد :

(فتحير الجميع وارتابوا قـائلين بعضهم لبعض : ماعسى أن يكون هذا وكان آخرون يستهترون قائلين إنهم قد امتلأوا سلافة) .

يقول بطرس مدافـعًا عن التلاميذ ومقـررًا أن حلول روح الله على الجموع من الناس إنما كان تحقـيقاً لنبوءة وردت في أسفـار العهد القديم عمـا سيكون في آخر الزمان وآخـر الزمان هنا قد مـر منذ عشرين قـرنًا حيث عاش بطرس ومن مـعه من التلاميذ .

« فوقف بطرس مع الاحد عشر ورفع صوته وقـال لهم أيها الرجال اليهود ليكن هذا معلومًا عندكم ، واصـغوا إلى كلامي ، لأن هؤلاء ليسوا سـكارى كما انتم تظنون لأنها الساعة التالية من النهـار ، بل هذا ماقيل ليوئيل النبي ، يقول الله : ويكون في الأيام الأخيرة أني أسكب من روحي على كل بشر فيـتنبأ بنبؤكم ويرى شبابكم رؤى ويحلم شيوخكم أحـلامًا وعلى عبيدي أيضـاً وإمائي أسكب من روحي في تلك الأيام فيتنبآن (١) .

الطريق الثاني من طرق الوحي : كون الملاك واسطة بين النبي وربه :

ورد في انجيل لوقـا قوله : فظهر لـه ملاك الرب واقفـاً عن يمين نزع النجور ، فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف ، فقال له الملاك :

لاتخف يازكـريا لأن طلبـتك قد سـمـعت ، وامرأتـك اليصـابات سـتلد لك ابنا وتسمـيه يوحنا .. فـقال زكـريا للملاك : كـيف أعلم هذا لأني شيـخ كـبيـر وامرأتي متقـدمة في أيامها ، فـاجاب الملاك وقال له : أنا جبـرائيل الواقف قدام الرب وأرسلنا لأكلمك وأبشرك بهذا (٢) .

---

(١) أعمال الرسل ٢ - ٤ - ٨ .

(٢) لوقا ١ - ١٢ - ٢٠ .

وجـاء لوقا أيضـاً : وفي الشهـر السادس أرسـل جبـرائيل الملاك من الله إلى مدينة الخلـيل اسمهـا ناصرة إلى عـذراء مخطوبة لرجل من بيت زرد اسـمه يوسف والعذراء اسمها مريم فدخل إليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها ... [١] .

الطريق الثالث من طرق الوحي : الرؤيا

ومن نماذج هذا الطريق الذي أشار إليـه العهد الجديد ماحـدث ليوسف النجار الذي أحاط به الشك من كل جانب في مريم عليها السلام ولكن عن طريق رؤيا منامية عرف من خلالها السر في حملها وكان ثمرة ذلك دفع الوساوس التي كانت تنتابه في أمرها ثم امتنع عن معاشرتها حتى ولدت المسيح ابنها البكر :

ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً : (يايوسف بن داود لا تخف أن تاخذ مريم امرأتك لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس) [٢] .

وتكرر هذا الطريق ليوسف النجار .

فلما مات هيرودس إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً : (قم، وخذ الصبي وأمه واذهب أرض اسرائيل) [٣] .

وقد تعرض لهذا الطريق من الوحي المجوس الـذين أرسلهم هيرودس ليتيقنوا من ظهوره ثم يذهب ليسجد له ، وكانت حيلة منه لقتل الصبي فتوجه المجوس بحلم إلى طريق أخرى :

« حينئـذ دعا هيـرودس المجوس سرّا وتحـقق منه زمان النجم الـذي ظهر ثم

---

(١) انجيل لوقا ١ - ٢٦ - ٢٩ .

(٢) متى ١ - ٢٠ - ٢١ .

(٣) متى ٢ : ١٩ - ٢١ .

أرسلهم إلى بيت لحم ، وقال : اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي ، ومتى وجدتموه فاخبروني لكي آتي انا وأسجد له ... وأتوا إلى البيت ورأوا الصبي مع مريم أمه فخروا وسجدوا له ثم فتحو كنوزهم وقدموا له هدايا ذهبًا ولبانًا ومرًا ثم إذ أوحـى إليهم في حلم ألا يرجعوا إلى هيرودس انصرفوا في طريق أخرى إلى كورتهم (١) .

نخلص من ذلك إلى أن حالات الوحي في النصرانية تتشابه إلى حد كبير في اليهودية ونستطيع أن نجمل حالات الوحي في الكتاب المقدس فيما يأتي :

١ - الوحي بالكلام المباشر بين الله والإنسان وقد ذكرنا أن الكلام قد يكون بصوت مسموع وقد يظهر الله في صورة شخص يراه العبد .

٢ - ظهور الملائكة في صورها الحقيقية أو في صور بشرية تعلم الناس بلغاتهم وحي الله كما حدث لنبي الله إبراهيم ودانيال ولوط كما ذكر العهد القديم ، وكما حدث لزكريا ومريم كما يخبرنا العهد الجديد .

٣ - الوحي بالأحلام والرؤيا المنامية كما حدث ليوسف عليه السلام وورد ذلك في العهد القديم .

ومثل ذلك الذي كان ليوسف النجار خطيب مريم عليها السلام وقد ورد ذلك في العهد الجديد .

هذه أهم طرق الوحي في الكتاب المقدس القديم والجديد ويضاف إلى ذلك طرقا أخرى سبق أن أشرنا إليها مثل حلول روح الله على العبد فتتغير حالته بطبيعته فيتكلم بالوحي ، وقد تنفعل نفس العبد الصالح بما يفيض على لسانه كلامًا يشتهر بين الناس بانه وحي الله . جاء في يوحنا : ولست افعل شيئًا من نفسي بل أتكلم بهذا كما علمني أبي (٢) . انا أتكلم بما رأيت عند أبي (٣) .

---

(١) متى ٢ : ٧ : ١٢ .

(٢) يوحنا ٨ : ٢٨ .

(٣) يوحنا ٨ : ٢٨ .

أنا علمتكم بكل ما سمعته من أبي [١] .

وأنا ماسمعته منه فانا أقوله للعالم [٢] .

ثم جاء في رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس :

كل الكلام هو موحى به من الله [٣] .

في هذه النصوص وغيرها قول صريح استنطقوا به المسيح بان الكتاب الذي أنزل عليه هو الإنجيل وأنه من عند الله وأن الله أرسله وأنه أخذه عن طريق السماع والتعليم ، وأنه ليس من عند نفسه بل هو من الأب الذي أرسله وما أظهر وأجلى وأوضح ما قاله بولس : كل الكتاب هو موحى به من الله » .

فالإنجيل عطاء من الله لنبيه عيسى عليه السلام ليعطيه بالتالي إلى قومه وأتباعه وهذا هو قوله في صلاته الكلام الذي اعطيتني قد اعطيتهم) [٤] .

أما طريقة إنزال الإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام فبعض النصارى يذهبون إلى أنه أنزل إليه دفعة واحدة وأنه ألقى إليه شفاهاً وهذا على رأي من يتمشى مع هذه النصوص في كونه قد أخذه من الأب [٥] .

ويذهب علماء الإسلام إلى أنه أنزل عليه من الله دفعة واحدة أيضاً وليس منجماً كما نزل القرآن الكريم [٦] مخالفين رأي النصارى الذين يرون أن الانجيل من

---

(١) يوحنا ١٥ - ١٥ .

(٢) يوحنا ٨ - ٢٦ .

(٣) تيموثاوس الثانية ٣ : ١٦ .

(٤) يوحنا ١٧ - ٧ .

(٥) الإنجيل . د. محمد أبو الغيط الفرت ، ص ٢٠ .

(٦) انظر تفسير الألوسي للآية ٣ من سورة آل عمران .

عند عيسى كما ذهب إلى ذلك إبراهيم لوقا حيث قرر (أن انجيل المسيح الحقيقي – لم يوح إليه من السماء كما يعتقد المسلمون وإنما هو رسالة أعدها المسيح من عند نفسه وأبدعها بفكره وبالطبع لأنه الرب في نظره (١) .

هذا ويتفق النصارى والمسلمون على أن المسيح عليه السلام بلغ الإنجيل شفاها وأنه لم يكتبه كما لم يكتبه أحد من تلاميذه وحوارييه حال وجوده بينهم وظل ماثورًا في الصدور إلى إن كتب الإنجيليون كتاباتهم وهذا هو ما أثبته التاريخ العام والخاص (٢) .

طرق الوحي في الإسلام

الوحي الذي تشرق به المعرفة على قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنواع ومراتب .

يقول الله في كتابه : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم ﴾ (٣) .

وهذه الآية فيها حصر لأساليب الوحي وطرقه – ليس في الإسلام وحده – وإنما في كل دين وبعبارة أخرى ليس بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم وحده ولكن لكل عبد أوحى إليه من قبل الله تعالى فصار نبيًا أو رسولاً .

يقول محمد فريد في تفسير هذه الآية :

وما كان لإنسان أن يكلمه الله كما يكلم بعضكم بعضًا بكلام مسموع من طريق

---

(١) انظر رأي إبراهيم لوقا في كتابه المسيحية في الإسلام ، ص ٤٢ – ٤٣ .

(٢) د. محمد أبو الغيط الفرت ، الانيجل ، ص ٢٠ .

(٣) انظر رأي إبراهيم لوقا في كتابه المسيحية في الإسلام ، ص ٤٢ – ٤٣ .

التموجات الهوائية بل يكلمه وحيًا أي من طريق الوحي ، بأن يخلق في قلبه ما يشاء إلقاءه إليه أو أن يكلمه من وراء حجاب بشرية على حالة أخرى يعلمها هو أو يرسل ملكاً يبلغه مراده إنه عليٌّ عن صفات المخلوقين حكيم يفعل عن مقتضى الحكمة (١) .

وواضح أن صور هذا الكلام يفرق بين كلام الله لأنبيائه وبين كلام البشر حيث يتصف الأخير بالصوت والتموجات الهوائية والترنيمات البشرية لكن كلام الله يخلو من كل هذا فهو كلام يليق بذاته المقدسة وهذا يخالف مالاحظنا سالفاً في العهدين القديم والجديد من أن كلام الله لأنبياءه كان بصوت مسموع - وربما كان الله مرئياً وبارزًا لهم يرونه وينظرون إليه كواحد منهم تعالى الله عن ذلك .

وإذا كانت الآية المذكورة قد أجملت طرق الوحي من الحق إلى عباده أيا كانوا وفي أي زمن وجدوا فإننا نرى القرآن الكريم يتنبأ بالكثير من أخبار الوحي ووسائله مع الأنبياء السابقين .

أولاً قد يكون ذلك بالرؤيا المنامية يراها النبي ويوقن انها وحي من الله تعالى .

الوحي يبدأ بالرؤيا الصادقة - فإن رؤيا الأنبياء حق وصدق وليست من قبيل ما يحدث لسائر البشر من أضغاث أحلام نتيجة لرغبات مكبوتة - إذ الأنبياء بما وصلوا إليه من الكمال البشري تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم ، وقد حدث لنبينا عليه الصلاة والسلام في بداية الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، روى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح (٢) .

---

(١) المصحف المفسر ، محمد فريد وجدي ، ص ٦٤٦ .

(٢) رواه البخاري في باب كيف بدأ الوحي .

ومنه رؤيا رسول الله ﷺ وأصحابه داخلون المسجد الحرام وسجل القرآن الكريم هذه الحقيقة فقال تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون ﴾ (١) .

ومنه أيضاً رؤيا سيدنا إبراهيم في المنام أن يذبح ابنه إسماعيل واعتبار سيدنا إسماعيل أن رؤيا أباه حق بمثابة الأمر الإلهي واجب تنفيذه ، ولما شرع في التنفيذ أكرمه الله تعالى ففداه بذبح عظيم قال تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتلّه للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ﴾ (٢) .

ثانياً : ان الوحي قد يكون عن طريق الإلهام وهو أن يلقى في رُوعِ النبي وقلبه ما أراده الله من المعارف مع اعتقاد النبي بان هذا من قبل الله تعالى وفي السنة النبوية أمثلة كثيرة لهذا الضرب من الإلهام سواء صرح فيه بخبر هذه الوساطة كما قال عليه الصلاة والسلام إن روح القدس نفث في رُوعِي ، أحبب من أحببت فإنك مفارق وعش ما شئت فإنك ميت وأعمل ماشئت فإنك مجزي به (٣) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « هذا رسول رب العالمين جبريل نفث في رُوعِي أنه لاتموت نفس حتى تستكمل رزقها وإن أبطا عنها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » (٤) . أو طوى ذكر الملك وأرسل الحديث إرسالاً كما في سنن أخرى .

---

(١) سورة الفتح ، آية : ٦٧ .
(٢) الآيات من ١٠١ - ١٧ من سورة الصافات.
(٣) رواه لابطراني في الأوسط والأصغر .
(٤) رواه البخاري في صحيحه .

ثالثاً : كلام الله تعالى لنبي من انبيائه

وهذا النوع من الوحي إما أن يكون بواسطة أو بغير واسطة فإن كان بغير واسطة بان يكون كلام الله لنبيه مباشرة كما حدث مع سيدنا ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج ، وكما تم لموسى عليه السلام فوق طور سيناء قال تعالى : ﴿ إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى ﴾ (١) .

بيد أنا نقول إن كلام الله بغير صوت ولا حرف على النحو الذي نألفه بين المتخاطبين من تكاشف ومشافهة فإننا لانستطيع أن ندرك كنهه ولا الوقوف على مداه لأننا هنا أمام متعلقات القدرة الإلهية التي لاتحدها حدود فالذي أصعد محمدًا عليه الصلاة والسلام من الأرض إلى السماء بما يعجز العقل عن إدراكه قادر على أن يسمعه سماعًا خاصًا لأن قدرة الله لا متناهية .

الثاني : وهو أن يكلم الله النبي بواسطة الملك وذلك له أحوال فتارة يرى النبي الملك على صورته الأصلية وحقيقته التي خلقه الله عليها ويتعلم منه مباشرة ما جاء عن الله تعالى وذلك كما حدث للنبي ﷺ وهو في غار حراء في أول لقاء جبريل به عندما أخبره بانه نبي ، وقال له : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ (٢) .

وتارة يراه متمثلاً بصورة رجل كما كان جبريل ياتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي أو في صورة رجل أعرابي كما في حديث الإيمان والإسلام وقد يكون بظهور الملائكة في صور بشرية تلقى وحي الله إلى الأنبياء .

وقد تعرض إبراهيم عليه السلام لذلك حينما جاءته الملائكة تبشره بولده إسحاق وكانت زوجه عاقراً قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين

---

(١) سورة طه ، آية : ١٢ .

(٢) سورة العلق ، آية : ١ .

فقربه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم ﴾ (١) .

وحدث ذلك مع لوط عليه السلام حين جاءوه منذرين بإهلاك قومه يقول تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر إنا أرسلنا عليهم حاصبًا إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ (٢) .

وتارة لايرى الملك لافي صورته الأصلية ولا في صورة رجل آخر وإنما يسمعه منه ويعيه قلبه كما يسمع وقع أقدام أو دويًا عند وجهه كدوي النحل وقد كان الصحابة الذين حول الرسول يدركون الرسول في هذه الحالة فيعلمون أنه يوحى إليه وبهذا النوع كان ينزل القرآن على النبي ﷺ قال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ (٣) .

وقد تنادى الملائكة أحد أنبياء الله تعالى وسمع النبي نداءهم ، وذلك مثل ما كان من أمر زكريا ومريم عليهما السلام وذلك في سورة آل عمران ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبياً من الصالحين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ (٤) .

---

(١) الذاريات ، ٢٤ - ٢٨ .

(٢) القمر ، ٣٣ - ٣٤ .

(٣) سورة الشعراء آية ١٩٣ - ١٩٥ .

(٤) سورة آل عمران ، آية : ٤٥ .

إمكان الوحـــي

إن التصـديق بمبدأ الوحي ليس مما يتعاظم على الـعقول إدراكه فمـا دمنا قد اعتـرفنا بان الله موجـود وأن وجوده حق لاريب فـيه وأنه جل شـانه يصطفي من عبـاده من يبلـغ مراده ومن يتعهـد الأمم الضـالة ويخرجهـا من الظلمات إلى النور ، زائدة فـإن العقـلاء يجمـعون علـى إمكان الوحي – وأنه قد حـدث فعـلاً ، **أما عن إمكانه:** فإن البديهية تشـهد بأن درجات العقول متفاوتة يعلو بـعضها فوق بعض فما يدركه الأعـلى يقصر عنه الأدنى والنفوس ليست على درجة واحـدة من الصفاء والنقـاء بل بعضـها أنقـى من بعض وليس ذلك لتفـاوت العـقول في أصل التـعليم والتهذيب فحسب بل في أصل الفطرة التي جبل عليها الإنسان ، فإن من النظريات ما يكون عند بعض الناس غامضة في حين أنها بديهية عند غيرهم فإذا كان هذا الصنف من الناس موجوداً في كل عصر وأن العقـول هبة من الله تعالى تتفاوت في الإدراك ولامدخل للإنســان فيـه بكسبه واخـتياره إلا بما يكتـسبه مـن معارف بقـدر قوته العقلية فلا مـانع عقلاً ، بل أنه من الممكن عقلاً أن تكون هناك نفوس بشـرية خصها الله بكمالات تهيـئها لعلم حقائق الأشـياء وإدراكها ويكون لها من الصفـاء والنقاء ما يمكنها من الاتصال بالملأ الأعلى ويكون لديها من القوة ما يمكنها من أن ترى الملك في صورته الحقيقـية أو تسمع صرته وتفهم ما يوحى به وتشهد مـن أمر الله ما يعجز عنه من هو دونها في القوة والتعقل والبـرهان ثم تبلغ ما تلقته إلى الناس وهذا هو الركن الأول في إمكان الوحي .

أما الركن الثاني : وهو وجود الملـك الذي يقوم بتبـليغ من صفت نفـسه واصطفاه الله للقيام بأعباء النبوة .. ووجـود الملك ليس أمرًا مستـحيلاً بل هو ممكن عقلاً فقد عرفنا من أنفسنا وأرشـدنا إليه العلم قديماً وحديثاً بان من بعض المواد ما هو ألطف من بعض ، فـبـعض القوى والطاقـات ندرك آثارها ولا ندرك حـقـيقـتهـا

كـالكهرباء مـثلاً والجـاذبية - فـهذه لاتدرك بـالحس وقد أثبت العلم بأن مـا يدرك بالحس لايجاوز عـشر مـا ليس بمحسوس فـإذا كان هذا في القـوى والمواد فلايمنع العقل وجود ماليس بمحسوس وهو واقع فعلاً . فما المانع من أن تكون لدى الأنبياء قدرة على الاتصال بهذا الملك ورؤيته بحسب استعداداتهم النفسية لاسيما وقد أثبت القرآن الكريم وجود الملائكة التي هي أجسام روحـانية فقال تعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (٢) .

وقد أخـبر الله عن الطريقة التي ينـزل بها الوحي : فقـال تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ (٣) .

ومـادام قد توافـر الركنان وهما وجـود النفس الطاهرة الزكـية والتي بهـا من القوة أن ترى مالا يراه الناظرون ، ووجود الملك وهو نوع من مخلوقات الله سبحانه يكون واسطة في تبليغ وحي الـله إلى أنبيـائه فإمكان الوحي ليس بممـتنع . **أما كون الوحي واقع فعلاً ، فدليل ذلك يتحقق بأمور ثلاثة :**

١ - المعجزة الخارقة التي يظهرها الله على يد مدعي النبوة وهذه المعجزة دليل لمن حضر زمن النبي وعـاصره وشهد وقوع المعجـزة وظهورها على يديه فإن ذلك يفيد اليقين وبانه صادق في دعواه الرسالة وأن الوحي ينزل عليه .

٢ - الخبر المتواتر بوقوع الوحي بالنسبـة لمن هو غائب عن عصر النبي والمتواترات أحد أقسام الضـروريات والخبر المتـواتر رواية خبـر عن مشهـود من جمـاعة يستـحـيل تواطؤهم على الكـذب وآياته قهـر النفس على اليـقين بما جـاء فيـه

---

(١) سورة القدر ، آية : ٤ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٣٠ .

(٣) سورة النحل ، آية : ١٠٤ .

كالإخبار بوجود مكة وأن عاصمة مصر القاهرة وسبب استحالة تواطؤهم على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ومرجع كل ذلك إلى العدد وبعد الراوي عن مضمون التشيع (١) .

٣ - خبر المعصوم - ﷺ - بذلك الوقوع بمعنى إخباره بامور لايطلع عليها ولا يعرفها إلا الله وأنها جاءت إلى النبي ﷺ عن طريق الوحي . فقد أخبر النبي أن الله بعث أنبياء ورسلاً وأظهر على أيديهم المعجزات الخارقة فهذا يفيد اليقين بوقوع الوحي لهؤلاء الأنبياء ولأن خبر النبي يأتيه عن طريق الوحي وهو ﷺ ﴿ ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ﴾ (٢) .

تعقيب

وبعد عرضنا لمعنى الوحي وإمكانه وطرائقه في اليهودية والنصرانية وفي الإسلام نقرر أن الطرائق والوسائل تكاد تكون متشابهة فالوحي إما أن يكون مباشرة من الله إلى العبد أو بواسطة سواء أكانت تلك الواسطة هي روح القدس أم ملكاً يوصل مراد الله إلى عبده ، لكن هذا التشابه في الطرائق ليس على طول الخط بل هناك اختلافاً بين ما نجده في القرآن وما نجده في العهدين القديم والجديد ونستطيع أن نبرز أهم هذه الاختلافات على النحو التالي :

١ - في الطريق الأول - وهو أن يكون الوحي مباشرة من الله إلى العبد - فالواقع أن الوحي يكون بكيفية تليق بذات الله المقدسة ، فلا يكون الكلام بصوت أو بتموجات وذبذبات هوائية ولا يصح أن يظهر الله بصورة بشر أو يتشخص بصورة أمام العبد فذات الله منزهة عن كل هذه التصورات والقرآن الكريم

---

(١) محمد عبده رسالة التوحيد ، ص ١١٧ .

(٢) النجم ، آية : ٣ .

وصف هذا الطريق على هذا النحو المذكور ، فـالقرآن الكريم يقرر أن الله يوحي إلى أنبيائه بل ويوحي إلى النحل وغيره فهذه مما لايعلمه إلا الله . والقرآن في كل الحالات يسكت عن الكيفية فـهذا مما لايعلمه إلا الله وينبغي علينا أن نؤمن أن الكيفية مخالفة للحوادث ولائقة بذاته الكريمة .

وفي العهد القديم والجديـد نجد الأمر مختلفاً ففي سفر التكـوين نقرأ (وسمعا صوت الـرب الإله ماشـياً في الجنة ، فنادى الرب الإله آدم وقـال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فخشيت لأني عريان فاختبأت) .

وفي التكويـن تقـرأ : « وظهـر له الـرب عند بلوطات ممر وهو جـالس في باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه يقول « برسوم ميخائيل في تفسير : وإذا ثلاثة رجال » كان اثنان منهم ملاكين في رفقة الرب » .

ويقـول برسوم أيضـاً « كان الوحي يصـل إلى الموحى إليه عن طريق كـلام من شخص منظور في صـورة إنسان أو صورة ملاك وقـد يكون الشخص هو الرب ذاته » [١] **وإذا كان برسوم شارح النص قـال ذلك ، فلنتامل ما قاله الغزالي في هذا الموضوع وإليك النص** : (فإنا معترفون بـاستحالة قيام الأصوات بذاته واستحالة كونه متكلماً بهذا الاعتبار) [٢] .

ورداً على سؤال من سائل يسال عن كيفيـة سماع موسى عليه السلام لكلام الله تعالى يقول الغزالي : « قلنا سمع كلام الله تعالى وهو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليس بحرف ولاصوت » .: وواضح أن له حرفا وصوتاً لكن مغاير لنا .

أما تشخـص الله وتجسده – فالله يتـعالى عن ذلك علواً كبيـراً لأن الله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[٣] .

---

(١) مصدر سابق حقائق كتابية ص ٨ برسوم ميخائيل .

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ، محمد أبي حامد الغزالي ، ص ١٠٣ .

(٣) الشورة ، ١١ .

٢ - ومن المآخذ على طرق الوحي عند اليهود النصارى كما في العهدين القديم والجديد أن الموحى إليه قد ينادى من قبل الله أو من قبل ملك مرة أو أكثر من مرة ولكنه لايعرف مصدر النداء وقد يتكرر ذلك لكنه لايهتدي والذي يأخذ بيديه من هذه الحيرة أحد الذين جربوا الوحي قبله فقد سبق ذكر قصة النبي صموئيل الذي كان يتربى عند الكاهن (عالي) ويخدم بيت الرب حيث نودي عليه من قبل الرب ثلاث مرات لكنه في كل مرة يجهل مصدر النداء حتى ذكر ذلك للكاهن عالي حينئذ أدرك عالي أن الرب يدعو الصبي .

وقد مر ذكر هذه القصة من سفر صموئيل الأول ومعنى ذلك أن الوحي هنا لصبي لم يصل مرحلة البلوغ والأهم أن صموئيل الذي تكرر له النداء ثلاث مرات لم يعرف أنه نداء الرب إلا عندما أدرك ذلك الكاهن عالي وأخذ صموئيل يقول عند النداء : « تكلم يارب لأن عبدك سامع » (١) .

ولكن ما كان الوحي لينزل على رسل الله وهم في لهو عنه وهم غافلون لايعباون به ولايدرون من أمره شيئاً يقول الغزالي في توضيح ذلك « وسماع النبي من الله يكون بغير وساطة ويستحيل أن يكون بحرف أو صوت- مثلنا- لكن يكون بخلق الله علمًا ضروريًا يدرك به الرسول ثلاثة أمور : أولها : أن المتكلم هو الله، ثانيها : أن ماسمعه هو كلام الله سبحانه. ثالثها : مراد الله من كلامه عز شانه، ثم يعقب على كل هذا بتلك العبارة المهمة «والقدرة الإلهية الأزلية لاتقصر عن ذلك» (٢) .

وما قرره الغزالي هنا يعتبر ردًا على النقطتين السابقتين فصدر عبارته دليل واضح على أن كلام الله إلى النبي بغير حرف ولاصوت ثم هو بعد ذلك يقرر أن الله يخلق علماً ضرورياً يدرك الرسول به ثلاثة أمور كما مر فالعبد الموحى إليه لاشك أنه مدرك أن ذلك وحي من قبل الله ونقول مع الغزالي إن القدرة الإلهية الأزلية لاتقتصر عن ذلك لكن الكتاب المقدس لايعطي للقدرة مثل هذه الطلاقة .

---

(١) سفر صموئيل الاصحاح الثالث .

(٢) الوحي والملائكة أحمد عبدالوهاب ، ص ٦٤ .

خصائص الوحي في الإسلام

الوحي في الإسلام له خصائص تميزه عن اليهودية المحرفة والنصرانية المزيفة ، كما يتميز عن مصادر المعرفة البشرية فمن طبيعة الوحي في الإسلام :

١ - حصوله بالاصطفاء لا بالكسب

فالوحي منحة إلهية يختار الله سبحانه بحكمته من يشاء من عباده ليكون موضع تلقيها .

وقد قال الله سبحانه : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (١) .

فالنبوة التي هي مؤهل تلقى الوحي نتيجة اصطفاءٍ خاص من الله تعالى لأحد خلقه على الناس كما قال لموسى عليه السلام ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ (٢) .

ويقول **الشهرستاني** : إن النبوة ليست صفة راجعة إلى النبي ولا درجة يبلغ إليها أحد بعلمه وكسبه ولا استعداد يستحق به اتصالا بالروحانيات بل رحمة يمن الله بها على من يشاء من عباده (٣) .

وإذا كانت النبوة قائمة على الاختيار الإلهي المحض فإنه يبطل إدخال بعض الفلاسفة والصوفية لها في قائمة المواهب البشرية المكتسبة ، التي تُنال بالجد والاجتهاد والاستغراق في العبادات والتسامي بالروح فوق جواذب المادة وتصفية القلب أو بإطالة المعاناة الفكرية في جواهر الأشياء مما يتفجر عنده الحدس بالحقيقة وتتنزل معه المعرفة المباشرة (٤) .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ .

(٢) الأعراف ، آية : ١٤٤ .

(٣) نهاية الأقوام ، الشهرستاني ، ص ٤٦٢ .

(٤) عرفان عبدالحميد ، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ، ص ٨٩ .

كما يبطل اعتبارها نوعًا من العبقرية الذاتية أو درجة من الذكاء الفطري الذي يعطي صاحبه استعدادًا قويًا للانتقال من المعلوم إلى المجهول بسرعة فائقة ودون ترتيب أدلة لذلك ، وهو ما يسمى بالحدس – كما زعم ذلك بعض الفلاسفة ، فابن سينا – مثلاً – يرى أن لاكتساب العلوم طريقتين – طريق الحدس ، وطريق التعليم . ويرى أن الناس متفاوتون في الحدس ، وأن منهم : (من ينتهي في طرف الزيادة إلى أن يكون له حدس في جميع المطالب أو أكثرها .... حتى يشتعل حدسًا وقبولاً لإلهام العقل الفعال فتشرق عليه الصور العقلية دفعةً أو قريبًا من دفعة ويصبح عقله مرآة صقيلة تعرف كل شيء من نفسها وتسمى هذه الحالة من العقل الإنساني عقلاً قدسياً وهو ضرب من النبوة لا بل أعلى درجات النبوة) (١) .

والحق أن النبوة اصطفاء واجتباء من اللــه سبحانه ، قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ففي كل هذه منسوبة إلى الله ليس للعبد فيها أي كسب.

يقول الشهرستاني في هذا الصدد ، فكما يصطفيهم من الخلق قولاً بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر وطيب الأخلاق وكرم الأعراق فيرفعهم مرتبة حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الإلهية بعث إليهم ملكا وأنزل عليهم كتاباً (٢) .

ويقول صاحب كتاب جوهرة التوحيد : وانعقد إجماع المسلمين على أنها لم تكن مكتسبة ولو رقى في الخير أعلى عقبة « أي أشق الطاعات » بل ذاك فضل من الله يؤتيه لمن يشاء جل الله واهب المنن (٣) .

---

(١) جميل صليبا – تاريخ الفلسفة العربية ، ص ٢٥٩ .

(٢) الشهرستاني ، نهاية الأقدام ، ص ٤٦٣ .

(٣) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبدالسلام بن إبراهيم اللقاني المالكي ، السعادة بمصر ، ص ١٨٥ .

وحال النبي ﷺ يؤكد بطلان القول باكتساب النبوة فالرسول ﷺ لم يحظ بالنبوة نتيجة جهد ذاتي ومعاناة هادفة ولا ثمرة ذكاء متفوق وعبقرية فذة فلم يكن في الأربعين سنة السابقة لبعثته متميزاً بشيء لافت للأنظار من هذا القبيل ، ولم يكن – آنذاك – متجهاً إلى تفكير فلسفي يسعى إلى التماس الحقيقة من ورائه .

لقد بدأ الوحي إرهاصاته الأولى عليه وهو يعيش حياته العادية مع الناس بالرؤيا الصادقة التي نُبئ فيها بأشياء تأتي في الواقع وفق ما رآها ولعلها والله أعلم تمهيدًا لأحوال الوحي الأخرى التي يحتمل أثناءها جهدًا كبيرًا وبعد ذلك حبب إلى الرسول ﷺ الخروج إلى غار حراء للتحنث (١) .

ثم نزل عليه الوحي بصورته المشهورة والثابتة حينما جاءه جبريل وغطه ثلاث مرات ، وقال له : اقرأ ، فقال : لست بقارئ حتى قال في الرابعة : وما أقرأ؟ قال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ (٢) .

وقد اعتراه عليه الصلاة والسلام رعبٌ شديدٌ نتيجة ماحدث وذهب فورًا إلى زوجته خديجة – رضي الله عنها – وأخبرها بما حدث وأفضى إليها بأنه خشي على نفسه مما حدث له مما يدل على أنه ما كان منتظرًا هذا الوحي ولا متطلعًا إلى درجة النبوة ، كما ذكر الله ذلك في قوله سبحانه : ﴿ وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ (٣) .

ولقد كان هناك متطلعون إلى هذه الدرجة من مثل أمية بن أبي الصلت (٤) . أحد معاصري رسول الله ﷺ وقد درس علوم أهل الكتاب وقال شعرًا كثيرًا مملوءًا

---

(١) التحنث : هو الإنقطاع للعبادة أو اعتزال الأصنام .
القاموس المحيط فصل الحاء باب التاء .

(٢) صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٣ .

(٣) القصص ، آية ٨٦ .

(٤) شاعر جاهلي في شعره مواعظ أدرك النبوة المحمدية ولم يسلم توفي سنة ٥ هـ . انظر الأعلام ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

بالحكمة والإيمان وكان يتطلع إلى أن يصبح نبيًا وينتظر علَّ الوحي ينزل عليه ولكن ذلك لم يحدث ولم يستطع علمه وقدراته وتطلعه أن يبلغ به تلك الدرجة التي لاينالها إلا من اجتباه الله لذلك اجتباءً ولعل مما أوقع التصور الفاسد بان النبوة كسبية في أذهان بعض الناس مثل ما فعله الفارابي حين وضع الفارابي الفيلسوف في منزلة أعلى من النبي فوصول النبي في رأيه للعقل الفعال عن طريق المخيلة في حين أن الفيلسوف يدرك الحقائق بواسطة العقل والتامل (١) .

أقول إن الذي أوقع الفارابي وغيره فيما قالوا به وتفسيرهم الوحي والإلهام على نحو يتعارض مع ما ورد من نصوص ثابتة تقرر أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ في صورة بعض الأعراب وكانت تسمع له صلصلة كصلصلة الجرس، هو سوء فهمهم كيفية تنزل الوحي على النبي وقياسه على حدوث المعارف الأخرى لدى الإنسان من مصادر المعرفة الأخرى وكذلك اتجاه كثير من فلاسفة العصر العباسي إلى تاكيد الإتصال الوثيق والتوافق بين الفلسفة والشريعة ، الذي يرتكز على التقريب بين الفيلسوف والنبي وقد تم ذلك في مرحلة استحواذ الفلسفة اليونانية على تفكير أولئك الفلاسفة مما جعلهم يعتبرونها الأصل الذي تقاس به الأشياء ، فكان الفيلسوف ومنهجه في تحصيل الحكمة - لدى الفلسفة اليونانية - أساس عملية المقارنة مع النبي ويذكر مسكويه (٢) الأمور التي يخبر بها النبي من مستقبله وماضيه فيبين أنه والفيلسوف (متفقان في تلك الحقائق لأن الفرق بينهما أن أحدهما ارتقى من أسفل والآخر انحط من علٍ وكما أن المسافة بين السطح والقرار واحدة كذلك الحال في تلك الحقائق والمشاهدات عند من يرتقي إليها وعند من ينحط إليها (٣) .

---

(١) انظر آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي .

(٢) أحمد بن محمد مؤرخ باحث اشتغل بالفلسفة والأخلاق وغيرها ، ت ٤٢١هـ ، انظر الأعلام ج ١ ، ص ٢١١ .

(٣) أحمد بن محمد مسكويه - الفوز الأصغر ، ص ٩٧ .

فعملية المقارنة بين الفيلسوف الذي يحصل الفلسفة كسبًا وبين النبي واعتبار النبوة قوة من قوى النفس والمساواة بين الوحي الذي يجيء به النبي وبين الفلسفة التي يصل إليها الفيلسوف ، كل هذا مما يبعد بالنبوة عن حقيقتها وهو جهل با لنبوة وبالوحي (١) .

٢ - الوحي لايخضع لرغبة الرسول في تنزله

الوحي ينزل طبقاً لمشيئة الله وحده فلا يخضع في نزوله أو تحديد مكانه لرغبة محمد ﷺ ولا ملبيًا مطالبه فور الحاجة إليه إذ لم يكن للنبي محمد اختيار فيما ينزل أو ينقطع بل يتنزل حسب مشيئة الوحي به سبحانه وحكمته (٢) .

لذلك ، كان الوحي يتتابع عليه أحيانًا وينقطع عنه أحيانًا أخرى وهو أحوج مايكون إلى نزوله فقد فتر الوحي عن رسول الله ﷺ بعد نزول جبريل عليه بأوائل سورة العلق مدة ثلاث سنين فحزن النبي ﷺ لذلك حزناً شديدًا دفعه إلى أن غدا مرارًا ليلقى نفسه من شواهق الجبال كمدًا لولا أن يتبدى له الملك جبريل فيقول : أنت رسول الله ، فيسكن لذلك جاشه (٣) .

كذلك فقد أبطأ عليه بعد حادثة الإفك العصيبة التي رمى فيها المنافقون ومن تبعهم عائشة - رضي الله عنها - بالفاحشة واغتم لذلك رسول الله ﷺ واستشار أصحابه ماذا يفعل حتى نزلت عليه آيات سورة النور تبرئ أم المؤمنين (٤) .

كذلك فإن الوحي ينزل عليه في لحظات تدل حاله فيها على أنه لم يكن منتظراً نزول الوحي فيها ، فقد حدّث عنه أنس - رضي الله عنه - إنه ﷺ أغفى إغفاءة ثم

---

(١) النبوات أحمد بن تيمية ، ص ٣٥ .

(٢) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي ، د. عبدالرحمن بن زيد ، ص ١٥٠ .

(٣) صحيح البخاري ، ج ٨ ، ص ٦٧ .

(٤) صحيح البخاري ، ج ٦ ، ص ٥ .

استيقظ ورفع رأسه متبسمًا حيث أنزلت عليه سورة الكوثر [١] .

ولقد كانت المجادلة (خولة بنت ثعلبة أو بنت خويلد) تناجيه في أمرها فيفتيها بالحكم الشرعي في مسألتها فتراجعه فيؤكد عليها الحكم وإذا بالوحي ينزل عليه وهي لما تخرج من عنده [٢] .

وهذه الخاصة في طبيعة الوحي تميزه عن مناهج استمداد المعرفة من المصادر الأخرى إذ هي بناء على كسبيتها لا تتم إلا من خلال تهيؤ واستعداد وبذل جهد ذاتي من قبل الشخص العارف لتحصيل المعرفة من مثل ما بذله الفيلسوف من تأمل نظر وبحث أو ما يبذله الصوفي من تجريد واستغراق روحي وفناء عن العالم المادي لينظرا بعد ذلك نتيجته حكمة فلسفية أو كشفاً صوفيًا .

٣ - اليقين المطلق

يمتاز العلم الذي يقدمه الوحي بأنه يقوم على اليقين فعلم الله شامل لما كان وما سيكون وما هو كائن إلى يوم القيامة مجرد عن الزمان والمكان وعلم الله لايعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، من هنا كان كل ما قدمه وحي الله قائم على اليقين سواء كان ذلك فيما أخبر به مما وقع ماضيًا أو حاضرًا - وقت نزوله - أو فيما يستقبل من الزمان أو فيما أثبته من حقائق عالم الغيب أو الشهادة .

وقد قدم الوحي علماً يقينيا في كل المجالات التي أفلست المصادر الأخرى البشرية من تقديم شيء يقيني فيها .

ومن هذه المجالات : ميدان ماوراء الطبيعة الذي تخبطت الفلسفة فيه كثيراً وبذلت جهودًا مضنية لوضع تصور حقيقي لايعتريه الشك ولكنها لم تستطيع بلوغ ذلك وأعلن كثير من الفلاسفة المتأخرين عجز مصادرهم عن الوصول إلى يقين فيها

---

(١) صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، ومسند أحمد ، ج ٣ ، ص ١٠٢ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ، ج ٩ ، ص ٢٧٠ .

كما فعل ديكارت وكذلك رابوبرت الذي يقرر (أن عالم ما بعد الطبيعة عالم درج في غير عشه في بحثه عن شيء فوق المدارك العقلية) [١] .

وقد رأينا الماديين يتنكرون للعالم الغيبي كما هو الحال لدى الوضعيين والماركسيين وغيرهم ، أما الوحي الذي جاء به رسولنا محمد ﷺ فقد جاء بالحق الجلي في هذا الميدان مما يلبي تطلع الإنسان وحاجته فأخبر عن أصل الكون ومبدئه ومصيره وغايته وقدم تصورًا واضحاً لحقائق الوجود الكبرى الله والكون والإنسان والوجود الغيبي ، وهو مالا يدرك بالحواس ولايصل إليه الإنسان بمفرده لمعرفة حدوده وإنما يدركه عن طريق الوحي الإلهي وهو ما يعرف بعالم ما وراء الطبيعة مثل الله جل جلاله والملائكة والجن والنار ... الخ .

إن الوحي الإلهي عرض حقائق الكون كلها ثم طالب العقول بقراءتها وتدبر مافيها من مظاهر القوة والعظمة والعلم والحكمة ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ [٢] .

٤ - الوحي في الإسلام منزه عن التأثر بالزمان والمكان

لم يكن للزمن الذي نزل فيه الوحي على نبينا محمد ﷺ ولا للبيئة التي عاش بها أي أثر في تكوين وتشكيل المعرفة التي جاء بها فلم يكن للأعراف والعادات والطقوس التي تحيط بمحمد ﷺ أي تسلسل إلى تلك الحقائق التي قدمها كما هو الشان لدى المفكرين والفلاسفة والذين لا يستطيعون التحرر من هذه المؤثرات فالعرف والعادات والتقاليد لها سلطان كبير في تكوين أفكارهم .

أما الوحي فلأنه علم صادر من الله العليم الذي يعلم ما خلق ويحيط علما بما كان وما يكون وما سيكون مجرداً عن الزمان فالوحي منزه عن الزمان والمكان مبرأ من

---

(١) مبادئ الفلسفة ، ص ٢٦ رابوبرت .

(٢) يونس ، ١٧٩ .

الانطواء في نظرية (اللاوعي) التي جاء بها يونج والتي خلاصتها (أن ما يظهر في رؤى الأفراد المنامية وأحلام اليقظة وكذلك الأساطير الدينية هو انبثاق عن اللاوعي إلى الوعي وأن ماياتي فيها من آراء تكون معبرة بطريقة ما عن المجتمع ومتوافقة مع مشاعره ومصالحه ومصاغة بمقولاته ومبنية على مسلماته) (١) .

ولكن ذلك لايعني أن الوحي جاء مثالياً ، بعيدًا عن الواقع المعاش ومستغلقًا على الناس الموجودين وقت نزوله ، لانه علم عملي نزل للواقع مؤثراً فيه وإن لم يتاثر به ومن ثم (فقد احتوى الوحي على بيان الحق من الباطل في حياة الناس وأقام لهم منهجًا من الحق المتكامل) (٢) .

وقد أخطأ المستشرقون في هذه المسالة في جوانب (٣) ، فقد قالوا : إن الوحي المحمدي جاء وفقًا للمفاهيم التي كانت رائجة عند العرب وقت نزوله ، حتى ولو كانت خاطئة غير صحيحة فالمستشرق بيلربروز يرى (أن الشكل الذي يتخذه أي وحي تقرره الآراء العامة السائدة عن العالم في الوقت والمكان اللذين ينزل فيهما، وهذه لايمكن أن تكون كافية ولا دقيقة ولهذا : يجب أن تصحح بعد) (٤) .

ويمثل لذلك بما جاء عن الإنسان وأنه خلق خلقًا مستقلاً مباشرًا وفقًا للرأي السائد عن الإنسان قبل عصر العلم خلافاً للذائع المشهور الآن من أن الإنسان لم يخلق دفعة واحدة منفصلاً عن الحيوان ولكنه نتيجة لتطور طويل من الأشكال الدنيا للحياة (٥) .

وهذا إنما جاء نتيجة قياس الوحي في الإسلام على الوحي في النصرانية الذي

---

(١) مناهج المستشرقين ، ج ١ ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٢) الموافقات للشاطبي ، ج ٢ ، ص ٦٤ .
(٣) انظر مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي ، د. عبدالرحمن بن زيد الزنيدي ، ص ١٥٧ .
(٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، ص ٤٧ .
(٥) المرجع نفسه ،نقلاً عن د. عبدالرحمن بن زيد ، ص ١٥٨ مصادر المعرفة .

ولايشابه البشر بافكارهم - وللثقة العمياء بمصادر المعرفة البشرية إلى درجة الاعتقاد بعصمتها ، كما أخطاوا حين حاولوا إثبات بشريته من خلال تلمس المسائل التي جاء بها مشابهة لمسائل في ديانات أخرى - كاليهودية والنصرانية - لأن هذه المسائل :

إما أن تكون حاجات بشرية ملحة عرفها الإنسان بتجربته قبل أن ياتي بها الوحي إلى القوم النازل فيهم ، كما كانت عند العرب قبل الإسلام قاعدة : (القتل أنفى القتل) وجاء الوحي مقررًا أن في القصاص حياة للناس .

وإما أن تكون من بقايا الدين الصحيح الذي جاء به موسى وعسيى - عليهما السلام - ، ولم يحرف خاصة بعض مافيها من أخبار الأمم السالفة والكون والحق : أن الأولى في مثل هذا : عده دليلاً على صدق محمد الأمي في نسبته هذا الوحي إلى الله وبهذا جاء القرآن : ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه عُلَماءُ بني إسرائيل ﴾ (١) .

٥ - من خصائص الوحي الإسلامي : انتفاء - الحلول في تلقي الوحي (٢)

الوحـــي : علم وأمر يتم بين ذاتين ذات ملقية هي : ذات الله - سبحانه وتعالى - أو ذات جبريل متلقية عن الله ، وذات متلقية هي : ذات الرسول ﷺ وذات الله وذات جبريل مباينتان لذات الرسول ﷺ - دائماً حال الإلقاء والمتلقي ، سواء كان الإلقاء بصوت يسمعه أو بغير صوت .

فليس الوحي حلولاً لذات الله في ذات الرسول أو اتحادًا بينهما ، ومذهب الحلول الذي قال به الإشراقيون وغلاة المتصوفة في البيئة الإسلامية وقد اشتهر به

---

(١) الشعراء ، ١٩٧ .

(٢) انظر مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي ، د. عبدالرحمن بن زيد ، ص ١٥٩ .

الحسين بن منصور الحلاج [١] في القرن الثالث الهجري فقد زعم الحلاج أن روح الله حلت فيه كما حلت في عيسى – عليه السلام – وأن روح الله وروحه قد اندمجتا حتى صارتا روحًا واحدة حيث اتصفت بهذا الاتحاد صفات الناسوت باللاهوت [٢] .

وقالت به – أيضًا – مذاهب ضالة كثيرة – كالمقنعية والشلمغانية – ، اللتين تزعمان أن الله حلّ في آدم ثم في شيت ثم في الأنبياء واحدًا بعد الآخر ، ثم في الأولياء حتى وصلت النوبة إلى زعمائهم وصاروا يتكلمون باسم الله الذي حل فيهم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا [٣] .

أما في الإسلام فإن من أصول عقيدة المسلم التي جاء بها الوحي المحمدي اليقين بمباينة الله لخلقه أيا كانوا وفي أي درجة من السمو الروحي ارتقوا حتى بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى الوحي وكيفياته التي بينها القرآن في سورة الشورى يؤكد القول بانتفاء القول بالحلول ، ألا ترى إلى الحالة التي كان فيها الوحي مباشرًا بين الذات المقدسة ذات الله – جل وعلا – والرسول محمد صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء والمعراج حينما سئل صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك؟

وقد تكلف المستشرقون في دعوى تأثر الوحي المحمدي بالأديان الأخرى فقد زعم ترتون أن الرسول : (أخذ فكرة صلاة الجمعة من الزرادشتية وأن الصلوات الخمس من تأثير الطقوس الدينية الفارسية ....) ، عرفان عبدالحميد ، المستشرقون والإسلام ، ص ٢٥ .

(١) فيلسوف صوفي ألف كتب كثيرة في التصوف وغيره واتهم بالتشيع قتل سنة ٣٠٩هـ . انظر ترجمته في وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٤٠ ، الأعلام ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) من أشعاره :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنني أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

انظر : نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ، ص ٢٠٢ .

(٣) المقنعية : نسبة إلى المقنع معاصر للحلاج خرج في منطقة ماوراء النهر .

الشلمغانية : نسبة إلى محمد بن الشلمغاني معاصر لهما أيضا وقد ادعيا الألوهية وأسقطا الفرائض وهما اللذان أرسيا فكرة الحلول في طائفتيهما .

انظر : عبدالقاهر البغدادي – الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٧ . نشأة الفلسفة الصوفية ص ١٩٣ .

فقال : نورٌ أنىَّ أراه » (١) .

وقالت عائشة - رضي الله عنها - حينما سمعت من يقول أنه رأى ربه : لقد قف شعري مما سمعت ، ومن حدثكم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية (٢) فإذا كان حيل بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين رؤية ربه لأن الله أعظم من ذلك. فكيف يتجاوز إلى ماهو أكبر من ذلك ؟ وهو زعم حلول الذات العلية في الذات الإنسانية الفانية .

٦ - مستند الوحي في الإسلام :

إن طبيعة الوحي في الإسلام تختلف في مستندها عن المصادر الأخرى فإذا كان العقل يستند إلى أدلته القائمة على المبادئ الفطرية في الإنسان لإثبات أن ما قدمه من معرفة صحيح وإذا كانت المعرفة الحسية تستند إلى التجربة الراجعة إلى العقل - التي يوصل من خلالها إلى المعرفة الصحيحة فإن مستند الوحي كونه من علم الله سبحانه وعلم الله مستغن عن الاستعانة باي وسيلة للوصول إلى معرفة الحقيقة .

فحسب المتلقي للمعرفة من هذا المصدر أن يكون مؤمنًا بان الوحي من عند الله سبحانه مستمد من علمه ليستقبل أخبار هذا الوحي وعلمه على أنه الحق الصحيح ولكن بما أن العقل البشري وسيلة الإنسان لتلقي الوحي وتفهمه ، فقد جاء الوحي في إطار مفهوميته ومتطابقًا مع مبادئه الفطرية لأن الذي أنزله هو الذي خلق الإنسان وحتى يستفيد الإنسان فقد أنزله منسجماً مع فطرته ، بل إن الوحي قد دلل على مسائل كثيرة ذكرها بالأدلة العقلية التي يستند العقل إلى مثلها في إثبات

---

(١) صحيح مسلم ج ١ ، ص ١٦١ .

(٢) وحتى على القول الضعيف بانه رأى ربه فإنه يبين بينونة ذات الله عن ذات محمد صلى الله عليه وسلم ، العقيدة في الله عمر الأشقر ، ص ١٧١ .
وقد أخبر الله موسى حينما طلب رؤيته أنه لن يراه في الدنيا وأنه لا يستطيع ذلك بل إن الجبل الصلد لايطيق ذلك التجلي حيث يتجلى الله قال تعالى ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ .

الحقائق ، من مثل مـا ذكره لبيان ألوهية الله وإمكان البعث ووقـوعه وإمكانه خلافا لمن يرى من الفـلاسفـة أن دلالة الوحي إنما هي بطريق الخبـر المجرد فـقط . والحق الجلي عند كل عـاقل أن الوحي بين كثـيرا من الأدلة العـقلية على كـثير من المـسائل الكلية - بأسلوبه الخاص - تأكيدًا لحقيقـة ما جاء به وإلا فاساس التصديق بصحة ما أخبر به واعتباره حقًا مطلقاً هو الإيمان بأن هذا الوحي من علم الله المحيط بكل ما كان وما يكون أي الإيمان بصدق الرسالة الإسلامية .

شبهات واهية

الوحي أمر خارج عن النفس :

الاعتقاد بالوحي هو الأساس الذي يبنى عليه الاعتقاد بالنبوات وهو الطريقة التي جاءت بها العقائد والأحكام الشرعية وغيرها لذلك اهتم كثير من أعداء الإسلام بإثارة الشكوك حول الوحي مقتفين أثر جهلاء قريش وسفهاء المشركين في إدعاءاتهم الملفقة الكاذبة حول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم حين قالوا عنه أنه ساحر أو مجنون أو شاعر .

حتى قال هؤلاء من المستشرقين ((١)) وغيرهم إن الوحي ما هو إلا حديث النفس وإلهامها ((إن محمداً كان من أصحاب النفوس الصافية والخيال الواسع والإحساس العميق والعقل المتوقد ولذا انصرف في وقت مبكر إلى التفكير في المسائل الدينية ولم يجد في العبادة الوثنية التي تقوم من حوله ما يروي ظمأه الروحي ((٢)) . وهذه الأفكار والتي إلهامًا في نفسه فاض من عقله الباطن على مخيلته وانعكس على بصره وسمعه فتصور أنه يرى ملكا يخاطبه أو يتمثل له رجلاً أو يرى في منامه ما اعتقد أنه وحي من الله كلف بإبلاغه إلى وطنه ((٣)) .

ويقول المستشرق بروكلمان مصورًا لنا الوحي النفسي بينما كان معاصري النبي كأمية بن أبي الصلت ((٤)) ..

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ص ١٣٦٤ ، ج ١١ ، ط ٣٣ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٦٤ لبروكلمان .

(٣) بروكلمان هو كارل بروكلمان ، مستشرق ألماني تعلم اللغة العربية عضو المجمع العربي وكثير من المجامع الأخرى بألمانيا ، مات سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م ، من مؤلفاته تاريخ الأدب العربي ، تاريخ الشعوب الإسلامية .. انظر الأعلام ج ٥ ، ص ٢١١/١ ، آراء المستشرقين حول القرآن ، ج ١ ، ص ١٩٧/١ — ١٩٨/١ .

(٤) أمية بن أبي الصلت : هو أمية بن عبد الله بن أبي الصلت بن أبي ربيعة شاعر جاهلي من أهل الطائف اطلع على الكتب القديمة وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم ولم يؤمن به مات سنة ٥هـ على خلاف في ذلك .. انظر البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٩/٢ ، الأعلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ..

شاعر الطائف وهي بلدة بحذاء مكة يكتفون بوحدانية عامة كان محمد يأخذ بأسباب التحنث (١) والتنسك (٢) ويسترسل في تأملاته حول خلاصه الروحي ليالي بطولها من غار حراء (٣) قرب، مكة لقد تحقق عنده أن عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة فكان يضج في أعماق نفسه هذا السؤال : إلى متى يمدهم الله في ضلالهم مادام هو عز وجل قد تجلى آخر الأمر للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه ؟

وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة رسالة النبوة ولكن حياءه الفطري حال بينه وبين إعلان نبوته فترة غير قصيرة ولم تتبدد شكوكه إلا بعد أن خضع لإحدى الخبرات بخارقة في غار حراء ذلك بأن طائفاً تجلى له هنالك يومًا هو الملك جبريل على ما تمثله محمد فيما بعد فأوحى إليه أن الله قد اختاره لهداية الأمة وآمنت زوجه في الحال برسالته المقدسة وتحرر هو نفسه من آخر شكوكه بعد أن تكررت الحالات التي ناداه فيها الصوت الإلهي وتكاثرت ولم تكد هذه الحالات تنقضي حتى أعلن ما ظن أنه قد سمعه كوحي من عند الله (٤) .

والرد على هذه الشبهات الواهية بما يلي :

الوحي ليس من قبيل الحدس والشعورد الباطني . ودلالات النفس والفراسة السريعة التي غالباً ما تتأثر بالرياضيات الروحية والتفكير المستديم الطويل أي أنه ليس من قبيل الوحي النفسي الذي هو الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية والسريرة الطاهرة (٥) . لأن هذه لاتنشئ المعرفة التامة واليقين الكامل الذي لاريب

---

(١) التحنث هو التعبد من الحنث وهو الإثم أي يفعل فعلاً يخرج به من الإثم والحرج لسان العرب ج٢، ص١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) التنسك هو التعبد من النسك وهو الطاعة والعبادة وكل ما يتقرب به إلى الله تعالى . انظر لسان العرب ج ١ ، ص٤٩٨ .

(٣) حراء جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال . معجم البلدان ، ج ١ ، ٢٢٣ .

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية بروكلمان ، ص ٣٦ .

(٥) الوحي المحمدي ، ص ٦٦ محمد رشيد رضا .

فيـه فلا تسمـو بصاحبهـا إلى درجة النبوة بل إن الـوحي هو (أمر طارئ زائد على الطباع البـشرية (١) خارجي عن النفس والبـاطن لايخضع لأي تاثير يطرأ عليـها يتلقاه (النبي صـلى الله عليه وسلم من الذات الإلهيـة بواسطة الملك الموكل بذلك . والذي يدقق النظر في كيـفية الوحي ومـعالمه وما يطرأ على النـبي صلى الله عليه وسلم من ضـواهر يدرك أن الوحي لا يتصـل بهـوى النفس يتضح ذلـك في الأمور الآتية (٢) :

١ - أن جبريل حمله عليـه السلام من عند الـله إلى النبي عليـه السلام كـما قـال سبـحانه ﴿ وإنه لتنزيل رب العـالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عـربي مبين ﴾ (٣) . فحامله عليـه السلام ملك منفصل عن ذات محمد صلى الله عليـه وسلم ليس خيالا فيها وله من الصـفات ما بينها الله في قوله : ﴿ إنه لقول رسول كـريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وماهو على الغيب بضنين وماهو بقول شيطان رجيم فاين تذهبون إن هو إلا ذكر للعـالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ (٤) .

٢ - إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يسـتشرف النبوة ومـا كان يرجوها ولم يطمع في حـصولها لـه بل لم يرد في الأخبـار الصحيـحة أنه صلى الله عـليه وسلم يرجـو أن يـكون هو النبي المنتظـر الذي يتـحـدث عنه علـمـاء اليـهـود والنصارى قبل البعثـة ولو ثبت ذلك عنه لما ترك العلماء تدوينه وقد دونوا ذلك عن أمية بن أبي الصلت لـمـا كان يتوقع أن يكون نبيًا ، وقـد جاء في القرآن نفي ذلك عنه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك

---

(١) إرشاد الساري ، ج ١ ، ص ٦٠ بشرح صحيح البخاري القسطلاني ، ط ببولاق سنة ١٣٢٣هـ .

(٢) الوحي المحمدي ، ص ٨٩ .

(٣) سورة الشعراء ، آيات ١٩٢ - ١٩٥ .

(٤) التكوير ، آيات : ١٩ - ٢٨ .

الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ (١) . فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يظن أن الوحي قبل انزاله عليه ينزل عليه وإنما انزله الله رحمة به وبالعباد فهو نعمة من الله وفضل (٢) .

وأما اختلاؤه صلى الله عليه وسلم وتعبده في الغار عام الوحي فلاشك في أنه كان عملاً كسبياً مقويًا لذلك الاستعداد الوهي ولذلك الاستعداد السلبي من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولاعاداتهم ولكنه لم يكن يقصد به الاستعداد للنبوة لانه لو كان لاجلها لاعتقد حين رأى الملك أو عقب رؤيته حصول ماموله وتحقق رجائه ولم يخف منه على نفسه وإنما كان الباحث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها إلى الإنس بالله تعالى والرجاء في هدايته إلى المخرج منها (٣) .

٣ - إن الوحي الذي حدث للنبي صلى الله عليه وسلم هو حدث إلزامي فجائي طارئ لايمكن إحضاره واجتلابه وبالتالي لايمكن رفعه ورده ومن أوضح الأدلة على ذلك ما يعتريه من أعراض جسدية لاسيطرة له عليها كاحمرار وجهه وتتابع أنفاسه وسماع غطيط منه (٤) وما يتقاطر منه من عرق في اليوم الشديد البرد وثقل جسمه وما يسمعه الصحابة عند وجهه من صوت كدوي النحل وهذه الأعراض لاتعتريه صلى الله عليه وسلم إلا في فترات وجيزة وبرهات متقطعة وذلك عند نزول الوحي ففي حديث البخاري كتاب بدء الوحي (٥) .

أحياناً ياتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فينصم عني وقد وعيت

---

(١) سورة القصص ، أية : ٨٦ .

(٢) الوحي المحمدي ، ص ١٢٣ - ١٢٤ محمد رشيد رضا .

(٣) الوحي المحمدي ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٤) صحيح البخاري كتاب الحج .

(٥) صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٣ .

عنه ما قال » . وفي مسند أحمد (١) عن عبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما) سألت النبي صلى الله عليه وسلم هل تحس بالوحي ؟ فقال : نعم اسمع صلاصل ثم اسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض) ويتفصد العرق منه في اليوم الشديد البرد ، ففي حديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها) قالت : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً) .

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : (إن كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم) في الغداة الباردة ثم تفيض جبهته عرقاً) - كتاب الفضائل - باب عرق النبي في البرد حين ياتيه الوحي . وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : - حتى إذا أنزل الله عز وجل على نبيه (صلى الله عليه وسلم) فاخذه ما كان يأخذ من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحرر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشات من ثقل القول الذي أنزل عليه) من حديث الإفك وهو في صحيح البخاري من حديث الإفك أيضاً يغط في رأسه ويتربد وجهه (أي يتغير فيصبح كلون الرماد) .

ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) قال : كان نبي الله (صلى الله عليه وسلم) إذا أنزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه) وفي رواية أخرى : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم ، فلما اتلى عنه (أي ارتفع عنه الوحي رفع رأسه) . كتاب الفضائل ، باب عرق النبي في البرد حين يأتيه الوحي .

وأخرج ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه ويتربد وجهه أي : يتغير لونه بالجريذة ويجد بردًا في ثناياه ويعرق حتى ينحدر منه مثل الجمان .

---

(١) مسند الإمام أحمد ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

لذلك كان يُستر وجهه بثوب عند نزول الوحي عليه وله غطيط من الآلام التي يعانيها من الوحي . ففي البخاري - باب يفعل في العمرة ما يفعل في الحج - عن يعلى بن أمية : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالجعرانة وعليه جبة وعليه أثر الخلوق (وهو نوع من الطيب) أو قال صفرة فقال كيف تامرني أن أضع في عمرتي ؟ فانزل الله على النبي صلى الله عليه وسلم فستر بثوب ووددت أني قد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وقد أنزل عليه الوحي فقال عمر : أيسرُّك أن تنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد أنزل عليه الوحي ؟ قلت : نعم فرفع طرف الثوب فنظرت إليه له غطيط (صوت فيه بحوحة) وأحسبه قال : كغطيط البكرِ (الفتى من الإبل) فلما سُرِّيَ عنه قال : أين السائل عن العمرة ؟ اخلع عنك الجبة واغسل أثر الخلوق عنك وانق الصفرة واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك .

يسمع الصحابة عند وجه النبي صلى الله عليه وسلم حين الوحي دويًا شديدًا كدوي النحل ينطلق من خليته كما جاء في صحيح الترمذي - باب التفسير (من سورة المؤمنون) قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان النبي صلى الله عليه وسلم) إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوي النحل يثقل جسمه (صلى الله عليه وسلم) عليه .

ففي حديث البخاري عن ابن عباس (رضي الله عنهما) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل - أي القرآن لثقله عليه - شدة .

وفي زاد المعاد : يذكر حال نزول الوحي عليه (صلى الله عليه وسلم) (حتى أن راحلته لتبرّك به إلى الأرض إذا كان راكبها) ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها (١) .

---

(١) ابن القيم زاد المعاد ج ١ ، ص ١٨ وحديث الرض رواه البخاري في كتاب الجهاد باب قوله تعالى : [لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر] . انظر إرشاد الساري ، ج ٥ ، ص ٦١ .

وهذا مصداق قول الله تعالى : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ (١) .

ولا يحتمل هذا الثـقل إلا نبي ليرتاض جسده على تحـمل عبء النبوة كل هذه الظواهر تدل على أن الوحي مـستـقل عن نفس محـمد صلى الله عليـه وسلم) لأن حديث النفس والإلهام والتامل لايستدعي ظهور هذه الأعراض التي ذكرناها من الآلام والغطيط وتربد الوجه وتفصد العرق في الـيوم الشديد البرد الوعي الكامل والحفظ لما انزل عليه صلى الله عليه وسلم ، عند الوحي وبعده وعرض جبريل عليه السلام القرآن الكريم كل سنة على النبي صلى الله عليه وسلم) .

لايدخل في هوى النفس ولايعتبر من الهاماتها باية حال .

ففي صحيح البخاري يقـول النبي صلى الله عليه وسلم : أحياناً ياتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني ، وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني ، فـاعي ما يقول » ففي الحالتين يحـصل الوعي الكامل كل ما أوحى إليـه وكـان رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم في أول نزول الوحي يحـرك لسانه متابعًا جبريل أثناء الوحي يردد ما أوحي إليه مخافة أن ينساه لكن الله تعالى طمان نبيه بان يتكفل له بحفظه فلاسوغ لتحريك اللسان به قال تعالى :

﴿ لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمـعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾ (٢) .

ففي صحيح البخاري في باب بدء الوحي :

عن سعـيد بن جـبير عن ابن عـباس في قـوله تعالى : ﴿ لاتحـرك به لسانك لتعـجل به ﴾ قال : كان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يعـالج من التنزيل – أي القرآني لثقله عليه – شدة وكان مما يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس فانا أحركهما لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما وقال سعيد أنا أحركهما كما رأيت

---

(١) سورة المزمل ، آية : ٥ .

(٢) القيامة ، آيات : ١٦ – ١٩ .

ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه فانزل الله تعالى لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، قال ابن عباس جمعهُ لك صدرُك وتقرأه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه قال : فاستمع له وانصت ، ثم إن علينا بيانه ثم إن علينا أن تقرأه فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأ ولذلك كان جبريل عليه السلام يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن .

ففي حديث البخاري في كتاب فضائل القرآن - باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم عن عائشة رضي الله عنها عن فاطمة عليها السلام أسر إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر اجلي قال ابن كثير : هكذا رواه البخاري معلقًا وقد أسنده في مواضع أخر في أحاديث عن ابن عباس وابي هريرة ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه .

والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى وذلك حتى يكون أثبت وأرسخ فلا ينساه (١) .

٤ - انقطاع الوحي وابطاؤه عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتحرق شوقاً إليه دليل استقلالية الوحي عن نفسه وفكره فلا يصدر عن ذاته ولا يوافيه طوع إرادته فلا ينزل عليه إلا إذا شاء الله دون أن يتدخل في ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ومن أمثلة انقطاعه :

بعد نزول جبريل بآيات ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ... ﴾ (٢) ، انقطع عنه

---

(١) انظر معارضة جبريل للنبي بالقرآن في فضائل القرآن لابن كثير وهو ذيل تفسيره ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) سورة العلق ، أية : ١ .

الوحي ثلاثة أعوام وفي بعض الأحاديث سنتين ونصف (١) فحزن النبي صلى الله عليه وسلم حزناً حتى غدا منه مرارًا أن يتردى من رؤوس شواهق الجبال كما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها (في باب أول ما بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم) من كتاب التعبير (٢) .

وبينما هو ماش ذات يوم إذ سمع صوتا من السماء فرفع بصره ، فإذا الملك الذي جاءه بحراء ، فرعب منه فرجع إلى زوجته خديجة ، يقول : زملوني زملوني فانزل الله : يا أيها المدثر قم فانزر .. فحمى الوحي وتتابع .

وفتر الوحي شهراً كما في البخاري - باب حديث الإفك من كتاب المغازي ، والنبي في أشد الشوق إليه ليحل الأزمة التي حدثت من الإفك الذي رمى المنافقون فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، بالفاحشة حتى قال لها النبي (صلى الله عليه وسلم) : « يا عائشة إما أنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت المت بذنب فاستغفري الله فنزلت سورة النور في تبرئتها بعد كلام الناس بشهر ألم يَر المتامل أن هذا الشهر هو أطول من سنين والتي فيه ينتظر الوحي مع القلق والشك المستديم فلو لم يكن الوحي شيئاً خارجيًا لا دعى نزوله حين حدوث الإفك وقطع النزاع فيه .

ولم ينزل الوحي ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا بشان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة مع حسبة التحويل فنزل الوحي بعد ذلك بالآية ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾

---

(١) إرشاد الساري شرح صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٢) ولفظ الحديث هو « وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي - فيما بلغنا - حزنا غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى منه بذوره جبل لكي يلقى منه نفسه تبدى له جبريل فقال : يا محمد أنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جاشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك » ارشاد الساري ، ج ١ ، ص ١٢١ .

كما جاء في الترمذي (١) . وهذا الإنقطاع ايضاً يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان ليفترى على الناس حديثا إذ آنه لم يتحدث في اثنائه بمسائل الدين والقرآن وذم الشرك وأهله إذ لو تحدث بذلك لنقله لنا ألصق الناس به كخديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته وأبي بكر الذي عاشره طول عمره .

فهذا السكوت وحده في فترة الوحي برهان قاطع على بطلان ماصوروا به استعداده للوحي الذاتي .

٥ - من أسباب نزول القرآن الكريم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُسأل في بعض الأحيان فلا يملك للسؤال جوابًا فيسكت وقد يستمر سكوته مدة طويلة . فإذا نزلت الآية دعا السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن بشان سؤاله ، وكان يجيب أحياناً فيرد الوحي بخلاف جوابه ، وفيه بعض العتاب أو الملامة فهذا دليل على أن الوحي أمر خارجي عن النفس ، إذ لو كان بوحي داخلي لايحتاج إذا سئل إلى انتظار الجواب ولا إلى تصحيح إذا أجاب أول الأمر .

٦ - نهى النبي (عليه الصلاة والسلام) عن تدوين كلامه إبان نزول الوحي خشية اختلاطه بالقرآن الكريم لأنه يعلم تمامًا : أن القرآن كلام أوحي إليه من الله تعالى بلفظه ومعناه ولايملك أن يغير منه حرفا واحداً .

وكان إذا نزلت آية أمر كتّاب الوحي بكتابتها فعلّم المسلمين أن القرآن كلام رباني يصدر عن ذات الله الآمرة بواسطة الوحي حتى إذا استقر منهم المسلمين لهذا الأمر أَذِنَ لهم بكتابة الحديث .

وهذا يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفرق بين القرآن وبين الحديث وإن كان معنى الحديث سواء كان قدسياً أو غيره هو من الوحي ، إلا أنه يصوغه

(١) في صحيح الترمذي بشرح عارضة الأحوذي ج ١١ ص ٨٥ باب التفسير (عن البراء بن عازب قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة أو سبعة أشهراً وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله قد نرى تقلب وجهك ... إلى قوله المسجد الحرام فوجه نحو الكعبة وكان يحب ذلك) كما ذكر هذه المدة البخاري في كتاب التفسير ، من صحيحه عند الآية المذكورة عن البراء بن عازب أيضاً .

باسلوبه البشري . وشتان ما بين أسلوب القرآن ، لأنه من الله رب البشر وبين أسلوب الحديث وإن كان من أفصح الناس وذلك للمتامل بلا ريب .

٧ - اقام النبي صلى الله عليه وسلم في قومه أربعين سنة قبل أن يوحى إليه ولم يكن معروفًا بينهم بالعلم والمعرفة ولا التخيل ولا الوهم الديني ولا الشعر ولا الخطابة بل كان أميًا لا معرفة له بالكتابة ولا القراءة ولكنه فجاة يدعوهم إلى عقيدة حكيمة وعبادات سليمة وآداب سليمة وآداب مستقيمة وأخلاق قويمة فاشربها ملايين البشر ودانوا لله بها ولم يات ما يبين عدم صحتها أو استقامتها .

فلا يمكن لهذه الأحكام التي تتسم بالكمال والإستمرارية أن تكون صادرة إلا من الخالق العظيم المطلع على غيب السموات والأرض سبحانه وتعالى (١) .

قال الله تعالى : ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عُمُرا من قبله أفلا تعقلون ﴾ (٢) .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى :

﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ﴾ : أي هذا إنما جئتكم به عن اذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشات بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل لاتنتقدون علي شيئا تغمصوني به ولهذا قال :

فقد لبثت فيكم عمرًا من قبله أفلا تعقلون) .

اي فليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل (٣) .

---

(١) الوحي المحمدي ، ص ٩٢ - ١٢٧ .

(٢) يونس ، آية : ١٦ .

(٣) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج ٢ ، ص ٤١٠ .

٨ - موضوع الوحي

الرسول صلى الله عليه وسلم أمي لايعرف القراءة والكتابة عاش في بيئة بدوية وثنية ومعارف أهلها وعلومهم بدائية بسيطة ليست لها قيمة فلا تقارن بما تملكه الروم وفارس .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذهب إلى غار حراء يتعبد معتزلاً الناس ولم يكن له من علم إلا ما تعلمه من مجتمعه البدائي . وهو في هذه الحال ينزل عليه الوحي بالقرآن الكريم وفيه من الحقائق التاريخية والكونية والنظريات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها مما يعالج جوانب الحياة المختلفة التي لم يسبق أن فكر بها أو ذكرها ، واهتم بها هو أو أي واحد في عصره من بيئته أو غيرها . وتلك الحقائق دقيقة محددة ليس لأحد انكارها حتى إن أحبار اليهود الذين كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يذهلون حين يرون القرآن يقص عليهم أنباء بني إسرائيل وانبيائهم (١) .

كل ذلك يدل على أن هذا النبي الأمي في وسطه البدائي لايستطيع أن ياتي بهذه التشريعات والحقائق العلمية والعينية من نفسه وفكره فلابد إذن من مصدر خارج ذات النبي هو الوحي المنزل عليه من الله تعالى .

إن ما جاء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام كان وحياً تلقاه من الله تعالى ولم يكن صادرًا عن نفسه لانه حين طلب من النبي ان يبدل شيئا من القرآن أجاب بما أوحى الله تعالى إليه ولم يخف شيئا منه ولم يخالفه قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم - قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من

(١) د. رشدي عليان وآخر ، أصول الدين الإسلامي ، ص ٢٦٤ ، ط ٢ ، ١٩٨١ .

قبله أفلا تعقلون ﴾ (١) . الرسول صلى الله عليه وسلم بشر لكنه يفترق عن البشر بانه أوحي إليه قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ... ﴾ (٢) وتصدير الآيات بكلمة (قل) التي تكررت في القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة وقوله تعالى : اقرأ ، العلق ١ و (اتل) الكهف ٢٧ و (رتل) المزمل ٤ دليل على أن هناك من يوجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى القول بكذا وكذا ودليل على أن القرآن الكريم من عند الله بلفظه ومعناه ولا صنعة فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم وإنما كان عمله فيه :

أ - الوعي وا لحفظ .　　　ب - الحكاية والتبليغ .

جـ - البيان والتفسير .　　　د - التطبيق والتنفيذ .

٩ - تمييز الرسول صلى الله عليه وسلم بين تجربته الإنسانية الظنية التي تحتمل الشك والوهم وبين يقينه الصادر عن الوحي يدل على أنه يتلقى ما يوحى إليه تلقيا اكتسب درجة ا ليقين فلا يقبل الشك فيما على الناس إلا اتباعه وحادثة تابير النخل شاهدة على ذلك (أخرج مسلم في صحيحه عن موسى بن طلحة عن أبيه قال « مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤوس النخل فقال: ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا يلقحونه يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أظن يغني ذلك شيئاً ، قال : فاخبروا بذلك فتركوه فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ولكنّ إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن اكذب على الله عز وجل » (٣) .

وفي رواية له : « أنتم أعلم بامور دنياكم » (٤) .

---

(١) يونس ، ١٥-١٦ .

(٢) الكهف ، آية : ١١٠ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه .

(٤) صحيح مسلم تحقيق فؤاد عبدالباقي ، ج ٤ ، ص ١٨٣٥ - ١٨٣٦ كتاب الفضائل - باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا .

١٠ - العتاب الشديد أو اللين الذي جاء في القرآن الكريم للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : ﴿ عبس وتولى ﴾ وقوله ﴿ عفا الله عنك لم أذنت ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ (٢) .

يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم مُبلغ وأن ما أوحي به إليه كان أمرًا خارجيًا ولو كان نفسيًا أو من عنده صلى الله عليه وسلم لكتمه وما ذكر منه شيئاً يتلى على ألسنة الناس .

١١ - التهديد الشديد والإنذار المخيف الموجه من الله تعالى إلى نبيه يدل على أن الله عز وجل هو مصدر الوحي ولا علاقة له بنفس النبي ويدل على أن النبي شخص مامور بتبليغ ما كلف به من قوة آمرة عالية لايملك إزاءها أي تصرف .

قال تعالى : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرًا ﴾ (٣) . وقال : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين . وانه لتذكرة للمتقين ﴾ (٤) .

يقول الزمخشري في تفسيره هذه الآيات :

والمعنى ولو أدعى علينا شيئا لم نقله لقتلناه صبرا كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلةً بالسخط والانتقام فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول ، وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته وخص اليمين عن اليسار ، لأن القتّال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذه بيساره وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يكفحه

---

(١) التوبة : ٤٣ .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٦٧ .

(٣) سورة الإسراء ، آيات : ٧٤ - ٧٥ .

(٤) الحاقة ، آيات : ٤٤ - ٤٨ .

بالسيف وهو أشد على المصبور ، لنظره إلى السيف أخذ بيمينه [١] .

١٢ - لو كان مصدر القرآن العظيم من ذات النبي عليه السلام ومن عبقريته وذكائه لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه إذ لايوجد من ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته أو أنه يدعي الألوهية لا النبوة وشتان ما بين مقامها ومقام الألوهية لكنه (صلى الله عليه وسلم) يؤكد دائماً بانه عبدالله وبشر وهو يقيم الليل ويتضرع ويتوسل فيقول في دعائه « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي واسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم أغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير » [٢] .

ويستمد النور الإلهي في دعائه قائلاً :

« اللهم اجعل لي في قلبي نورًا وفي لساني نورًا وفي سمعي نورًا وفي بصري نورًا ومن فوقي نورًا ومن تحتي نورًا وعن يميني نورًا وعن شمالي نورًا ومن بين يدي نورًا ومن خلفي نورًا واجعل في نفسي نورًا واعظم لي نورًا » [٣] .

١٣ - حين نزل الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم يامره بالقراءة وانذار الناس تحير في هذا الأمر الطارئ وأخذ يشك ، ويتساءل عنه في نفسه ترى ماهو ؟ أهي النفس أم غيرها ؟ فإذا الوحي بعد هذا يفرض الحقيقة الإلهية فرضا عليه فيقول له حاكيًا مايدور في نفسه بكل صراحة : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسال

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ، ج ٤ ، ص ٢٠٨٧ .

(٣) رواه مسلم ، ج ١ ، ص ٥٣٠ كتاب صلاة المسافرين ومقرها باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه .

الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾(١) .

فردّ تعالى لهذا الشك الذي كان يساور محمدًا صلى الله عليه وسلم يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستقبل الوحي استقبالاً خارجيًا ولم يكن يملك شيئا من أمره لذلك قال بعد نزول هذه الآية : لا أشك ولا أسال (٢) .

هذه الأمور وغيرها جعلت النبي صلى الله عليه وسلم يتيقن الوحي تيقنا لايداخله ريب فيه فلم يكن له سبيل في الرجوع عن أمره حتى إذا اعترضت قريش عليه وطالبوا عمه أبا طالب بان يكف عن دعوته وعن تسفيه آلهتهم ، طالبه عمه بذلك فاجابه (والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه » ، هذا التيقن هو الذي دفعه لتحمل الأعباء الشديدة مع اغراءاتهم وقاسى هو وأصحابه الآلام التي تنوء بها الرواسي في سبيل دعوته وعادى أهله وقبيلته والعرب وغيرهم فاعلن حربًا شعواء على معتقداتهم فنصره الله تعالى على أعدائه وأظهر رسالة الإسلام في الأرض فلم يقف أمامه عائق مهما عظم ولم يصمد بوجهه جبّار مهما عتى وتجبر .

وإذا قيل بان الوحي من قبيل رؤى النائم ، أو افتراءات الكاذب أو أخيلة الشاعر أو أقاويل المجنون :

يرد على ذلك بان القرآن الكريم صوّر حيرة هؤلاء وتخبطهم في الضلال باسلوب لاذع ساخر يردد فيها حرف الاضراب (بل) ثلاث مرات .

قال سبحانه : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل ا فتراه بل هو شاعر ﴾ (٣) . وذكر فيه

---

(١) يونس ، أية ٩٤ .

(٢) أخرجه عبدالرزاق وابن جرير عن قتادة نقلاً عن الظاهرة القرآنية ص ١٨٨ ناقلاً الحديث عن تفسير السيوطي وذكره ابن كثير في تفسيره ج ٢ ، ص ٤٣٢ ، عن قتادة وقال وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري . .

(٣) الانبياء ، أية : ٥ .

أنه معلم مجنون ﴿ أن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ (١) .

ورد افتراءاتهم فقال : ﴿ ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة رب بمجنون ﴾ (٢) .

وتفصيل هذا القول هو :

إما أن الوحي من قبيل رؤى النائم فهو مردود :

بيقظة النبي صلى الله عليه وسلم المستديمة منذ نزول الوحي عليه ورواية الصحيحين - البخاري ومسلم - قاطعة في أن الوحي فاجاه وهو يقظان متامل في الوجود وخالقه فقال له اقرأ ويعصره حتى يبلغ منه الجهد ثلاثا ، وبعدها يذهب إلى خديجة زوجته مرتعبًا يرجف فؤاده يقول : زملوني زملوني فاخبرها بالخبر .

وهذا يدل على أن الوحي لو كان مناما لزال خوفه ورعبه في اليقظة ويرد على هذا الزعم أيضاً ما تقدم من الظواهر التي تبدو على الرسول صلى الله عليه وسلم عند الوحي والعتاب والتهديد وغيرها التي تقطع بأن الوحي لم يكن منامًا بل هو حقيقة لايمكن تجاهلها .

اما كون الوحي من افتراءات الكاذب فهو مردود :

بشهادة العرب له قبل النبوة حتى سموه بالصادق الأمين وكانوا ياتمنونه على أموالهم الغالية . وكذلك بعد النبوة بشهادة العرب جميعًا من أعدائه وأنصاره يدلنا على هذا سؤال هرقل ملك الروم لأبي سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في صحيح البخاري (قال - أي هرقل - فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت - أي أبو سفيان - لا ...

وحين اتم هرقل أسئلته لأبي سفيان ، قال مجيبًا عن كل سؤال وجهه إليه : وسالتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال . فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن

---

(١) الشعراء ، آية : ٢٧ .

(٢) القلم ، آية : ١-٢ .

ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله »

وما جاء به القرآن الكريم من أخبار ماضيه ومستقبله وتشريعات نيرة صالحة لكل زمان ومكان بشهادة كل ذي لب . كل ذلك يدل على أن ذلك لايصدر من كاذب .

اما كونه من اخيلة الشعراء فهو مردود :

بما يظهر من احتقان ورعب عند الوحي وهذا لايظهر على الشاعر إن أراد نظم شعره ولأن المعجزة الكبرى التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم هي القرآن الكريم في أسلوبه وتشريعاته وأخباره ... والعرب في وقتهم أرباب الفصاحة والبلاغة بهروا وتحيروا فيه حين سمعوا آياته تتلى كما أن القرآن تحداهم بأن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك .

اما أن الوحي قد صدر من مجنون فترده :

حالة النبي صلى الله عليه وسلم عند تلقي الوحي كل مرة كمال الوعي ووفرة النشاط وقوة الأعصاب وقوله صلى الله عليه وسلم لخديجة : (زملوني) لايفيد أكثر من لجوئه إلى الفراش ليستريح بعد المنظر الرهيب الذي رآه .

ولذلك يامره بالقيام بانذار الناس ﴿ يا أيها المدثر قم فانذر ... ﴾ كما أن المجنون لايمكنه أن ياتي بهذه الشريعة المتكاملة لجميع جوانب الحياة التي لايكون مصدرها إلا العقل الكامل النير المبين .

وإذا قيل : إن احتقان الوجه والشحوب يمكن أن يفسر بانه من أعراض التشنج يرد :

بان التشنج يحدث شللا وتعاشيا عند الفرد المحروم مؤقتًا من قواه العقلية والجسمية لكن اقوال النبي صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه الوحي تشهد أن الوجه هو وحده الذي يتغير ، بينما يتمتع هو بحالة عادية وحرية عقلية بحيث يستخدم ذاكرته استخدامًا كاملاً خلال الوحي في حين يمحى وعي المتشنج وذاكرته

خلال تشنجه . ثم إن تلك الأعراض الجسمية التي تظهر على النبي صلى الله عليه وسلم حين نزول الوحي لاتظهر عليه إلا في تلك اللحظة الخاطفة للوحي والحالة المرضية لايرافقها تصبب عرق ولا يرافقها ظهور نص قرآني معجز في حد ذاته وقد يكون سورة طويلة كسورة الأنعام أو يكون نصًا فيه تشريع دقيق كنص المواريث الذي يعتبر من أدق النصوص ا لتشريعية في العالم .

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مصابا ببعض الأمراض العقلية النفسية التي أثرت عليه تاثيرًا بالغًا ونتج من تلك الآثار ما ادعى أنه وحي من الله قال جولدزيهر :

وفي خلال النصف الأول من حياته ا ضطرته مشاغله إلى الإتصال باوساط استقى منها أفكارًا أخذ يجتريها في قرارة نفسه وهو منطو في تاملاته أثناء عزلته ولميل إدراكه وشعوره للتاملات المجردة والتي يلمح فيها أثر حالته المرضية نراه ينساق ضد العقلية الدينية والأخلاقية لقومه الأقربين والأبعدين (١) .

ولكن ما حقيقة هذه الأمراض وما نوعيتها ؟

يجيب على ذلك عدد من المستشرقين مع تباين تشخيصاتهم ، زعم الويز شبرنجر (٢) . وجوستاف فايل (٣) وغيرهم أنه كان مصابًا بحالات من الصرع يغيب فيها عن الناس وعما حوله ويظل ملقي على أثرها بين الجبال لمدة طويلة يسمع له

---

(١) جولدزيهر العقيدة والشريعة ، ص ٧ .

(٢) الويز شبرنجر هو ابن كرستوفر شبرنجر مستشرق نمسوي يجيد كثيرا من اللغات وله إلمام بالأدب الشرقي مات سنة ١٨٩٣م ، من آثاره حياة محمد انظر الأعلام ج ٢ ص ٨ المستشرقون ج ٢ ، ص ٦٣١ - ٦٣٢ .

(٣) جوستاف فايل : مستشرق ألماني له كتاب مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن مات سنة ١٨٨٩م . انظر آراء المستشرقين ج ١ ، ص ٢٢٩ .

على أثرها غطيط كغطيط النائم ويتصبب عرقًا ويثقل جسمه (١) .

وتعتريه التشنجات وتخرج منه الرغوة فإذا أفاق ذكر أنه أوحي إليه وتلا على أتباعه ما يزعم أنه وحي من الله (٢) . وبعضهم اعتبرها حالة هستيريا وتهيجا عصبيًا يظهر عليه أثرها في مزاجه العصبي القلق ونفسه كثيرة العواصف بشكل غامض حتى كان يصل به الأمر أن لايفرق بين تعاقب الليل والنهار وقد هزل على أثرها جسمه وشحب لونه وخارت قواه (٣) .

ويذهب المفكر الفرنسي جوستاف لبون إلى أنه نوع من الهوس (٤) .

فيقول : « وترى محمدا الثاقب النظر من الناحية العلمية من ذوي الهوس كما هو شان أكثر مؤسسي الديانات وليس في ذلك ما يحط من قدره فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين أنشأوا الديانات وقادوا الناس وإنما أولوا الهوس هم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول وآثاروا الجموع وذللوا الصعاب ولو كان القصد لا الهوس هو الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر » (٥) .

وزعم نولدكه (٦) بانه نوبات انفعالية طاغية حيث يقول :

« وكانت نبوة محمد نابعة من الخيالات المتهيجة والإلهامات المباشرة للحس أكثر من أن تاتي من التفكير النابع من العقل الناضج فلولا ذكاؤه الكبير لما استطاع

---

(١) آراء المستشرقين حول القرآن ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

(٢) الإسلام والمستشرقون ، ص ٢٠٢ .

(٣) آراء المستشرقين حول القرآن ج ١ ص ٢٩٨ نقلاً عن مقدمة القرآن لمونتجمري وات ص ١٧ - ١٨ ومقدمة القرآن ليل ص ٢٩ - ٣٠ .

(٤) الهوس بالتحريك طرف من الجنون ويرادفه المس ، القاموس المحيط ، ص ٥٧١ .

(٥) حضارة العرب ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٦) نولدكه هو تيودر نولدكه شيخ المستشرقين الالمان وكانت له مكانة بين المستشرقين عامة يحسن اللغات الشرقية مات سنة ١٩٣٠م من آثاره تاريخ القرآن ، حياة النبي محمد انظر الأعلام ج ٢ ، ص ٩٦ ، آراء المستشرقين حول القرآن ج ١ ، ص ١٨٥ .

الارتقاء على خصـومه ... . مع هذا كان يعتقـد أن مشاعره الداخليـة قادمة من الله بدون مناقشة (١) .

والرد على هذه المغالطات فيما يأتي :

إن هذا القول نشأ من التصور الخاطئ والفهم السـقيم لحقيقة الوحي والنبوة والعجز التـام عن معرفة العلاقة التي تربط بـين جبريل الملك ومحمد النبي عليـهما السلام وما يظهر من آثار على النبي صلى الله عليه وسلم من تلك العلاقة (٢) .

فـتلك ظاهرة لاتخـضع للعـلوم التـجريـبيـة والتـحليـلات النفـسـيـة ، أو الإستنتاجات العقلية لعجز البشر عن إدراك كنهها وحقيقتها .

يقول بعض الباحثين :

(فوصف ظاهرة الوحي الإلهي ومـا كان يعتري ا لـنبي عند تلقيه من حالة خـاصة ناشئة عن إنسلاخه من البشرية الجسـمانية ، واتصاله بالملكية الروحانية بالهوس أو الصرع أو نحـو ذلك من الانحرافات النفـسية على ضـوء التحليل ا لنفـسي جهل خطيـر بحقـيـقة النبـوة وهل يكفي لصنف من العلـوم أن يصل إلى حد من الدقـة والتطور بحيث تفرض طريقته في البحث على الميادين الأخرى وينتصب معيارًا ؟ إن تطور منهج من المناهج العلمية لايعطى كمعيار خارج ميدانه (٣) .

إن المستشرقين كالببغاوات يرددون شبه أخوانهم أعداء الأنبياء والرسل الذين جعلوا ما يحصل لأنبـياء الله مثل الذي يحصل للمجانين والسحرة كـما قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتي الذين من قـبلهم من رسول إلا قالوا ساحـرٌ أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون (٤) .

(١) آراء المستشرقين حول القرآن ج ١ ، ص ٢٨٧ نقلاً عن تاريخ القرآن لنولدكه ، ج ١ ، ص ٥ .

(٢) الإسلام والمستشرقون ص ٢٢٩ ، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ج ١ ، ص ٢٨ .

(٣) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية ولاإسلامية ج١ ، ص ٢٨ - ٢٩ ، التهامي نقرة - .

(٤) الذاريات ، آية : ٥٢ - ٥٣ .

وهي عين الفرية التي رمت بها قريش رسـول الله صلى الله عليه وسلم فبرأه الله مما قـالوا بقوله سـبحـانه وتعالى : ﴿ فـذكر فـما أنت بنعـمت ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ (١) .

وقد ضلوا بذلك وانحـرفوا عن الحق فمـثلهم كمثل من ضل الطريق وتشـعبت عليه السبل فياخذ يمينا وشمالاً ولايهتدى أبدًا كما قال سبحانه ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ (٢) .

يقول ابن كثير عند تفسير قوله تعالى :

(هل أنبـئكم على من تنزل الشـياطين تـنزل على كل أفاك أثيـم يلقون السـمع وأكثرهم كاذبون ﴾ (٣) .

يقول : (يقول الله تعالى مخاطبـاً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بحق وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أنه أتاه به برئيٌ من الجان فنزه الله سبحانه جناب رسوله عن قـولهم وافترائهم ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله وأن تنزيله ووحيه نزل بـه ملك كريم أمين عظيم وأنه ليس من قبل الشياطين وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة (٤) .

أرأيت كيف يردد المستشرقون شبهة عفا عنها الدهر وطوتها السنون وبين الله فسادها قـبل أربعة عشر قرناً من الزمـان ثم جاءوا يلوكونها ويدندنون بهـا تشويهًا للإسلام وتشكيكا في نبيه صلى الله عليه وسلم (٥) .

---

(١) الطور ، آية : ٢٩ .
(٢) الفرقان ، آية : ٩ .
(٣) الشعراء ، آيات : ٢٢١ - ٢٢٣ .
(٤) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .
(٥) نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ، ص ٢٢٨ ، د. حسن عتر .

وهل يا ترى يغيب الفرق بين العاقل والذي اختل عقله ؟

إن التسوية بينهما من التسوية بين الأضداد المختلفة التي يستحيل أن يختلط أمرها على عاقل إن الذي يجعل العاقل مجنونا كالذي يجعل المجنون عاقلاً . وهذا من أبطل الباطل فكيف يجعل النبي الذي هو أكمل البشر عقلا مجنونًا سبحانك هذا بهتان عظيم (١) .

وهل يعقل أن تصدر كل هذه الشرائع السامية الرفيعة والتشريعات التي حلت أعتى مشاكل الحياة بل وهذا القرآن الذي أعجز عقلاء البشر عن رجل خولط عقله فلا يعي ما يقوله .

يقول بعض الباحثين :

(ولو نظرت في الشريعة الإسلامية وما فيها من حكم ومواعظ وأحكام تشريعية سامية وأخلاق رفيعة لأثار فيك ذلك تساؤلاً هل يصدر كل ذاك التعقل والحكمة عن الجنون وإخلال المشاعر ؟ ومتى كان الجنون منبع الحكمة والفساد مصدر الخير ؟ ثم انظر في سيرة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم هل تراه كان مبتلى بالغفلة والبلاهة فيتراءى له ما يتراءى ؟ تراه بنى مجتمعًا قويًا على دعائم وطيدة وقاد معارك النصر والظفر وأسس دولة على أسس منيفة منحتها قوة للإتساع بعده من جبال الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غربًا ؟

إن محمدًا وكافة الرسل قبله قد اشتهروا بالتعقل والنباهة والفطنة قبل النبوة وبعدها يعترف لهم بهذا اتباعهم وأعداؤهم على السواء . وهنا نتيقن أن مثله في نباهته ويقظته وذكائه لاتختلط عليه الأمور ولا تقلبه الأوهام والهواجس (٢) .

---

(١) شيخ الإسلام كتاب النبوات ، ص ٣٦ .

(٢) حسن عتر نبوة محمد في القرآن ، ص ٢٢٧ .

لقد كان صلى الله عليه وسلم أكمل الرجال عقلاً وأشدهم فطنة وأصوبهم قولاً وأحكمهم فعلاً وقد تحدى الله المشركين الذين عرفوه وعايشوه وخبروا حاله أن يثبتوا عليه جنونا أو اختلال عقل وذلك في قوله ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ (١) .

يقول ابن كثير رحمه الله :

يقول الله تعالى قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿ إنما أعظكم بواحدة ﴾ أي إنما آمركم بواحدة وهي (أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) أي تقوموا قيامًا خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية فيسال بعضكم بعضًا هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضًا . ﴿ثم تتفكروا ﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ويسال غيره من الناس عن شانه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك (٢) .

وأما زعمهم بانه مصاب بالصرع فهذا زعم باطل وخطا علمي فاحش فإن أعراض الصرع تختلف كل الاختلاف عما كان يعتري النبي صلى الله عليه وسلم عندما ياتيه الوحي فالصرع مرض مصحوب باصفرار الوجه وبرودة في الأطراف واصطكاك في الأسنان ويتعطل تفكير المصروع وإدراكه تمامًا ويدخل في غيبوبة كاملة فلا يدري أثناء نوبته ما يدور حوله وتعتريه تشنجات وينسى ما حدث له خلال ذلك نسيانًا تامًا . وهذا بخلاف أمره صلى الله عليه وسلم فلا يظهر عليه شيء مما ذكر من أعراض هذا المرض عند نزول الوحي عليه بل يظل في تمام وعيه وكامل قوته العقلية قبل وأثناء وبعد الوحي كما قال في حديثه « فيفصم عني وقد

---

(١) سورة سبأ ، آية : ٤٦ .

(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٥٤٢ .

وعيت عنه ما قال (١) (٢) .

وقد كان جبريل عليه السلام ياتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة الرجل فيحادثه أمام جمع من الحضور وهم يشاهدون ذلك كما ثبت ذلك من حديث عمر (٣) وعائشة (٤) رضي الله عنهما .

لقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم طيلة حياته في صحة نفسية وعصبية وعقلية دائمة لم يطرأ عليه أي خلل في عقله أو أعصابه في يوم من الأيام بل كان كمال عقله مضرب الأمثال وليس أدل على انتفاء هذه الفرية وبطلانها من كفاحه المرير في سبيل نشر دعوته ومن سياسته الحكيمة وخططه الحربية وتنظيماته الاجتماعية فلو كان مصابًا بالانهيار العصبي كما يزعمون فهل يقوى على مثل هذا النضال الطويل وهل يؤثر عنه تلك السياسة البارعة والتنظيمات الدقيقة (٥) .

يقول بعض الباحثين :

« أمجنون مصروع يبني دولة وينشأ نظامًا ويقيم ديناً ويعيش في أجيال الناس منذ قام إلى اليوم دون أن يصاب بنكسة أو خلل ؟ أمجنون مصروع يثبت لهذه العواصف العاتية المزمجرة وحيدًا في وجه أمة صحراوية النفوس صخرية الطباع ثم لايكون منه في حال من الأحوال تخاذل أو ضعف حتى يحول هذه العواصف إلى أنسام عليلة وريح رخاء (٦) .

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها كتاب بدء الوحي .. وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل . فيفصم : أي يقلع والفصم هو أن يتصدع الشيء فلا يبين النهاية ج ٣ ، ص ٤٥٢ .

(٢) انظر آراء المستشرقين حول القرآن ج ١ ، ص ٤٠١ ، محمد صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان .

(٤) رواه البخاري .

(٥) الأدلة على صدق النبوة المحمدية ، ص ٤٤٥ .

(٦) عبدالكريم الخطيب ، النبي محمد ، ص ١٣٩ .

قال المستشرق ماكس مايرهوف (١) :

أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلاً مصابًا بمرض عصبي أو بداء الصرع ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره ليس فيه شيء يدل على هذا كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع والإدارة يناقض هذا القول (٢) .

وأما زعمهم بانه مصاب بمرض الهستريا وهو مرض عصبي عضال وراثي يكثر في النساء من أعراضه شذوذ في الخلق وضيق في التنفس والصدر واضطراب في الهضم وقد يحدث اضطرابا في اليدين والرجلين إلى حد الشلل في بعض أعضاء المريض فإذا تقدم المرض وصل إلى حالة من التشنج يسبقها بكاء وهذيان وقد يصل إلى حد الإغماء وقد يستمر الحال بالمريض حتى يرى أشباحًا وأعداء تحاربه وتقاتله ويسمع أصواتًا لاحقيقة لها فيتحرك حركات مضطربة ويقفز مكان إلى آخر بصورة مرعبة (٣) . فهذا الزعم لايستند إلى الحقيقة باي وجه من الوجوه .

إن المستشرقين لم يجدوا ما يتشبسون به من مطاعن حول نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم فراحوا يهرفون بما لايعقلون وينعقون بمالا يدرون فكانت مزاعمهم أضحوكة للولدان يعرف فسادها كل من وقف عليها إلا من طمس الله بصيرته فلا يعي ولا يفقه ﴿ ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا ﴾ (٤) .

إن واقع الرسول صلى الله عليه وسلم وحاله يشهد ببطلان ذلك وبراءته عنه فهو صاحب الطبع الرصين والنفس الهادئة والخلق الحسن وكان صلى الله عليه

---

(١) مستشرق ألماني من كبار أطباء العيون العالميين وفي طليعة مؤرخي الطب العربي سكن مصر وانتخب نائباً لرئيس المعهد المصري والجمعية الطبية توفى بالقاهرة سنة ١٩٤٥م . من آثاره شرح أسماء العقار . انظر الأعلام ج ٥ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، المستشرقون ج ٢ ، ص ٧٦٦ ، المستشرقون الألمان ، ص ١٤١ - ١٤٤ .

(٢) الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص ٤٥٥ . نقلاً عن الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ، ص ١٦٢ ، والقرآن والمستشرقون ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٣) آراء المستشرقين حول القرآن ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

(٤) سورة الكهف ، آية : ١٧ .

وسلم صبورًا عند الغضب حليمًا عند المقدرة وكيف لايكون كذلك وهو الذي قالت عنه عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلقه فقالت (فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن) [١] .

وفي حديث معاوية بن الحكم السلمي عندما تكلم في الصلاة قال : « فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبي هو وأمي ! ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليما منه فوالله ما كهرني [٢] ولا ضربني ولاشتمني قال : إن هذه الصلاة لايصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن [٣] .

فهل يعقل لمن اتصف بهذه الخصال الكريمة والسجايا الحميدة أن يكون مصابًا بمرض يحدث الرعب في قلب من يراه ؟

وأما زعم لبون أنه مصاب بالهوس فالجواب عليه ما ذكره بعض الباحثين في رده عليه إذ يقول : أليس من مجازفة القول أن يعد لبون محمدا صلى الله عليه وسلم من المتهوسين ولم يثبت تاريخيًا قبل البعثة ولا بعدها أنه كان من ذوي الوساوس أو السلوك الشاذ والتصرف الغريب أو نحو ذلك من الانحرافات النفسية التي لابد لها من انعكاسات وردود فعل ألم تشهد خديجة وتعرفه بحقيقته لما جاءه الحق وهو في غار حراء لتدفع عنه الخوف مما رأى وسمع ؟

كلا والله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيق وتعين على نوائب الحق فما أبعد هذا الكمال الإنساني عن الهوس الذي قد يملي على صاحبه مواقف غريبة وأفعالاً ينبو عنها الذوق السليم !

ولكنه الجهل بحقيقة الدين واستعمال منهج النقد العلمي في موضوعه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين ج ١ ، ص ٥١٣ .

(٢) كهرني : أي نهرني . يقال كهره إذا زبره واستقبله بوجه عبوس . انظر الفائق ج ٣ ، ص ٢٨٨ ، النهاية ج ٤ ، ص ٢١٢ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد ، ج ١ ، ص ٣٨١ – ٣٨٢ .

ويقول: (وهل الذين آمنوا به منذ أربعة عشر قرنًا واتبعوا الدين الذي جاء به من قادة الفكر على امتداد العصور – كلهم أغبياء مغرورون لم يميزوا بين الحق والباطل والصدق والكذب ؟ والعلم وحده لايستطيع أن يقدم تفسيرًا مقنعاً لهذا التحول الجذري ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلا على ضوء الإيمان بما تضمنه هذا الوحي السماوي الذي ظل يقودها على ما يزيد من عشرين عامًا ولم يخلف ما وعده ولا كذبه فيما أخبر به من أبناء الغيب وأي فرق بين تقولات المشركين في الجاهلية وتفسيرهم لظاهرة الوحي عندما ينزل على الرسول وما يناله عند التلقي من جهد وعناء بالجنون أو السحر تارة وبالشعر أو الكهانة أخرى وبين تفسير المستشرقين الأكاديميين للوحي من الوجهة النفسية أو العقل الباطن أو نحو ذلك مما اخترعوه وانتحلوه كالهوس الذي يزعمه لبون (١) .

وكونه مصابًا بنوبات انفعالية تطغى عليه وتسيطر عليه كما يدعو (نولدكه) فتلك شبهة لاتخرج عما ذكره في شأن الوحي النفسي فليس هناك انفعالات ولاهيجان أحاسيس عند نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم بل يكون في قمة الهدوء وسلامة الأعصاب ورزانة الطبع لا كما يقول « نولدكه» (٢) .

شبهه : الوحي مقتبس من اليهودية والنصرانية

لقد زعم المستشرقون أن الوحي انبثق عن اليهودية والنصرانية ولكن محمدا كيفه تكيفا بارعًا وفقًا لمتطلبات شعبه الدينية (٣) .

ويقرر جولدزيهر كيف تم له ذلك فيقول :

فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجًا منتخبًا من معارف آراء دينية عرفها واستقاها

(١) التهامي نقرة مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، ج ١ ، ص ٢٩ – ٣٠ .

(٢) آراء المستشرقين حول القرآن ، ج ١ ، ص ٣٨٩ .

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٦٩ لبروكلمان .

بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرًا عميقًا والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة في الاتجاه الذي تريده الإرادة الإلهية .

لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيًا إلهيًا فأصبح بإخلاص - على يقين بأنه أداة لهذا الوحي (١) .

ويزعم فيليب حتى أن الإسلام برمته بدعة نصرانية أكثر منه دينًا جديدًا (٢) .

وقد ادعى بعض المستشرقين أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ تعاليم الوحي عن بعض الشخصيات النصرانية.

فجولدزيهر يزعم أنه قد تتلمذ على رهبان النصارى وأحبار اليهود الذين كانوا أساتذة له (٣) .

قالوا أن محمدًا لقي بحيري (٤) في مدينة بصرى (٥) وكان نسطوريا (٦) من

---

(١) العقيدة والشريعة ص ٥ ، ٦ .

(٢) فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

(٣) العقيدة والشريعة جولدزيهر ، ص ١٣ - ١٤ .

(٤) بحيري : راهب قيل إنه كان يهودياً من يهود تيماء وقيل كان نصرانياً من عبد القيس يقال له جرجس . لقيه النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة انظر البداية والنهاية ج ٢ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٥) بصرى موضع بالشام وهي التي وصل إليها النبي في رحلته مع عمه . انظر معجم البلدان ، ج ١، ص ٤٤١ .

(٦) نسطور هو بطريرك الاسكندرية سنة ٤٣١م وهو الذي قال بأن مريم لم تلد إلا الإنسان فهي بذلك أم الإنسان وليست أمًا لإله وأتباعه هم النساطرة ومذهبهم وضع الأساس للقول بطبيعتين في المسيح ، الملل والنحل ج ١ ، ص ٢٢٤ .

اتباع آريوس (١) في التوحيد وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث (٢) وكان عالما فلكيا منجـما وحاسبًـا وساحراً فتـعلم منه محمد عـقيدته بل زعم بعضـهم أنه كان مصاحبًا له بعد رسالته وأن محمـدًا ما حرم الخمر إلا لأنه قتل أستاذه بحيري وهو سكران (٣) .

ويرد عليه بما ياتي :

أن الراهب بحيري لقى النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب ومعشر من قريش في رحلتهـما إلى الشام مرة واحدة فقط وكان عـمر النبي صلى الله عليه وسلم تسع سنين وقيل اثنتي عشرة سنة وكان الراهب بحـيرًا قد رأى في صومعته في رؤياه أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قد جاء في ركب وقد أظلته غـمامة ، وصنع طعامًا لمعشـر قريش وكان سابقًا لايلتفت إليـهم وهم يمرون به ودعاهم إليه فتخلف رسـول الله صلى الله عليه وسلم لحداثة سنه فقـال الراهب لايتخلفن أحد منكم عن طعامي فـاخبروه بتخلف الغلام أي النبي صلى الله عـليه وسلم فاتوا به وكان يلحظه لحظًا شديدًا وينظر إلى أشياء من جسـده وبعد فراغهم من الطعام دعا به واستـحلفه باللات والعـزى لأنه سمع قومـه يحلفون بهمـا فقـال له : لاتسالني

---

(١) آريوس : كان قسيسًا بالاسكندرية وكان في زمن قسطنطين الأول وهو القائل بأن الله واحد سماه أبًا وأن المسيح كلمة الله وابنه على طريق الإصطفاء وهو مخلوق قبل خلق العالم وهو خالق الأشياء وزعم أن للّهِ روحًا مخلوقة أكبر من سائر الأرواح وأنها واسطة بين الأب والابن تؤدي إليه الوحي وقد تبرأ منه النصارى لمخالفته لهم في مذهب التثليث . انظر الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ، الموسوعة الميسرة ، ص ٥٠٢ .

(٢) عقيدة التثليث وهي الركن الأول الذي يبنى عليه النصارى عقائدهم ومع اختلاف مللهم إلا أنهم مجمعون على التثليث وهو اعتقاد وجود ثلاثة آلهة وهي الأب (الله) والابن (عيسى) وروح القدس (جبريل) أو هي الأب والابن ومريم ويقررون ذلك بما يسمى الأقانيم الثلاثة والأقنوم يطلق على الجوهر والأصل والشخص ويفسرونه بأنه وحدانية في تثليث وتثليث في وحدانية وبين فرق النصارى اختلاف شديد في تقرير ذلك . انظر تحفة الأريب في الرد على الصليب ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ، عبدالله بن الترجمان الموسوعة الميسرة ، ص ٥٠٣ - ٥٠٤ .

(٣) الوحي المحمدي ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

باللات والعزى ، فوالله ما ابغضت شيئا قط بغضهما ، فقال له بحيري فبالله ألا ما أخبرتني عما أسالك عنه فقال له سلني مابدا لك وأخذ يساله عن حاله في نومه وهيئته وأموره فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيري من صفته ثم نظر إلى ظهره ، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه فسال عمه عن أبيه ، فقال له : ابني ، فقال له : ما ينبغي أن يكون أبوه حيا ، فاجابه : إنه ابن أخي فقال له أخيرًا : ارجع به إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شان عظيم ، فاسرع به إلى بلاده (١) .

وللقصة غير تلك الرواية (٢)

وليس في جميع الروايات ما يفيد أنه (صلى الله عليه وسلم) سمع شيئاً من بحيري عن عقيدته ودينه .

كما أن هذه الرحلة القصيرة - وهو صغير ، ووجود عمه معه حين التقى ببحيري - كل ذلك لايعلّم النبي التشريع ولا يعطيه مفاتيح الغيب لكن قول بحيري يؤكد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حين ساله عن أحواله المختلفة فيوافق ما عند بحيري من هيئات النبي الذي بشر به عيسى وموسى فتنبا أن يكون له شان عظيم وقد دفع شبهة المستشرقين الشيخ الزرقاني قال رداً عليهم :

« يقولون إن محمدا صلى الله عليه وسلم لقى بحيري فاخذ عنه وتعلم منه ... وندفع هذا :

---

(١) سيرة ابن هشام - قصة بحيري الراهب ، ص ١١٠ ١١٢ .
وممن رواها الحاكم في مستدركه ج ٢ ص ٦١٥ - ٦١٦ لكن علق الذهبي عليه بقوله : قلت : ظنه مرفوعا فبعضه باطل . رواها الترمذي في صحيحه انظر بشرح عارضة الأحوذي ج ١٣ ص ١٠٦ وقال حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه واستقصى طرق وروايات هذه القصة الحافظ ابن كثير في السيرة النبوية ج ١ ، ص ٢٤٣ .
وقال بعد ذلك وعلى كل تقدير فهو مرسل ، فإن هذه القصة كانت ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر بعضهم اثنتا عشرة سنة ولعل أبا موسى تلقاه من النبي صلى الله عليه وسلم فيكون أبلغ أو من بعض كبار الصحابة أو كان هذا مشهورا مذكورا أخذه من طريق الاستفاضة .

(٢)

أولاً : بأنها دعوى مجردة عن الدليل خالية من التحديد والتعيين ومثل هذه الدعاوي لاتقبل مادامت غير مدللة وإلا فليخبرونا ما الذي سمعه محمد من بحيري الراهب ؟ ومتى كان ذلك وأين كان ؟

ثانياً : أن التاريخ لايعرف أكثر من أنه صلى الله عليه وسلم سافر إلى الشام في تجارة مرتين مرة في طفولته ومرة في شبابه ولم يسافر غير هاتين المرتين ولم يجاوز سوق بصرى فيهما ولم يسمع من بحيري ولا من غيره شيئاً من الدين ولم يك أمره سرًا هنالك بل كان معه شاهد في المرةالأولى وهو عمه أبو طالب وشاهد في الثانية وهو ميسرة غلام خديجة التي خرج الرسول بتجارتها أيامئذ .

وكل ما هنالك أن بحيري الراهب رأى سحابة تظلله صلى الله عليه وسلم من الشمس فذكر لعمه أن سيكون لهذا الغلام شان ثم حذره من اليهود وقد رجع به عمه خوفًا عليه ولم يتم رحلته .

كذلك روى هذا الحادث من طرق في بعض أسانيدها ضعف ورواية الترمذي ليس فيها اسم بحيري وليس في شيء من الروايات أنه صلى الله عليه وسلم أنه سمع من بحيري أو تلقى منه درسًا واحدًا أو كلمة واحدة لافي العقائد ولا في العبادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق فانى يؤفكون ؟

ثالثاً : أن تلك الروايات التاريخية نفسها تحيل أن يقف هذا الراهب موقف المعلم المرشد لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه بشره أو بشر عمه بنبوته وليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التي يزفها ثم ينصب نفسه أستاذًا لصاحبها الذي سياخذ عن الله ويتلقى عن جبريل ويكون هو أستاذ الأستاذين وهادي الهداة والمرشدين ! وإلا كان هذا الراهب متناقضًا مع نفسه .

رابعاً : أن بحيري لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامي لمعجز لكان هو أحرى بالنبوة والرسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم .

خامساً : أنه يستحيل في مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته ، ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف بحيث يصبح أستاذ العالم كله لمجرد أنه لقي مصادفة واتفاقًا راهبًا من الرهبان مرتين . على أن هذا التلميذ كان في كلتا المرتين مشتغلا عن التعليم بالتجارة وكان أميًا لايعرف القراءة والكتابة وكان صغيرًا تابعًا لعمه في المرة الأولي وكان حاملاً لأمانة ثقيلة في عنقه لابد أن يؤديها كاملة في المرة الثانية وهي أمانة العمل والإخلاص في مال خديجة وتجارتها .

سادساً : أن طبيعة الدين الذي ينتمي إليه بحيري تابى أن تكون مصدرًا للقرآن وهدايته خصوصًا بعد أن أصاب ذلك الدين ما أصابه من تحريف وتغيير .

سابعًا : أن هذه التهمة لو كان لها نصيب من الصحة لفرح بها قومه وقاموا لها وقعدوا لأنهم كانوا أعرف الناس برسول الله وكانوا أحرص الناس على تبهيته واحباط دعوته باية وسيلة (١) .

يتبين مما سبق أن لقاءه بحيري كان في وقت وجيز وكان لقاء سريعًا لايكفي لحمل هذا العلم الذي نثره النبي صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاثة وعشرين عامًا وقد كان صلى الله عليه وسلم في سن التاسعة أو الثانية عشرة من عمره وهذه سن لاتؤهله لحمل واستيعاب كثير من المسائل وعمه ما كان يفارقه طرفة عين ولم ينفرد به بحيري ليلقنه ذلك الدرس المزعوم .

ومع أن هذه الحادثة ليس لها كبير أهمية إلا أن أعداء الإسلام من المستشرقين يتشبسون بها ويركزون عليها ولا حجة لهم في ذلك (٢) .

---

(١) الشيخ الزرقاني ، مناهل العرفان ج ٢ ، ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

(٢) الإسلام والمستشرقون ، ص ٢٢٨ .

شبهة الإدعاء بانه اخذ من ورقة بن نوفل :

فإن الثابت في الصحيح : أن خديجة (رضي الله عنها) انطلقت بالنبي عليه السلام ، وذلك بعد أن جاء جبريل عليه السلام في حراء - إلى ورقة بن نوفل ابن أسد ابن عمها وكان امرءًا تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرًا قد عمى فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فاخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس - أي أمين الوحي جبريل - الذي نزل على موسى ياليتني فيها جذعا (أي شابا) ، ليتني أكون حيًا ، إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم لم يات رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وأن يدركني يومك انصرك نصرا مؤزراً ثم لم ينشب (أي لم يلبث) ورقة أن توفى [١] .

فورقة لم يلتقِ بالنبي وحده - كما ورد في الصحيح - بل كانت معه خديجة ثم إن ورقة علم بمقارنة ما جرى للنبي صلى الله عليه وسلم بما وقع لموسى وعيسى فقال له هذا الناموس ، أي أمين الوحي جبريل ، لأن الوحي واحد لكل الأنبياء وتوقع اخراجه حين يدعوهم وتمنى نصره آنئذ كل هذا يدل على أن الوحي الذي نزل عليه وعلى الأنبياء قبله هو من عند الله الذي علمه وألهمه وهداه فليس لورقة من ذلك شيء سوى التصديق بانه سيكون رسول الناس فكيف يكون مصدر علم النبي صلى الله عليه وسلم ؟

وبهذا يظهر تهافت كلام المستشرقين وعلى رأسهم وات الذي قال (من الأفضل الافتراض بأن محمدًا كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة وقد تاثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيرًا بافكار ورقة) [٢] .

---

(١) الحديث متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ومسلم في كتاب الإيمان . انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، ص ٣٢ .

(٢) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

ويمكن أن نبين بطلان هذا القول وفساده في النقاط التالية :

١ - تبين الرواية أن ورقة كان قد تنصر في الجاهلية ولكن المحدثين والمؤرخين استقصوا كل ما عرف عنه مم صح سنده ومما لم يصح فلم يعثروا على رواية تبين أنه كان داعية إلى النصرانية (١) .

٢ - لم ينقل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لقى ورقة قبل هذا اللقاء أو رآه (٢) .

٣ - لقد تم هذا اللقاء بعد مجئ ملك الوحي في المرة الأولى وقد حضرت اللقاء خديجة رضي الله عنها وشهدته وقد آمنت بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فلو كان هنالك تعلم وتلقي ما غاب ذلك عن بالها أبدا (٣) .

٤ - أن موقف ورقة من ذلك الأمر كان موقف المستطلع المستخبر لا موقف المعلم فلما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى كان موقفه موقف المبشر المصدق المؤمن المتطوع لمناصرة الحق المؤيد للنبي صلى الله عليه وسلم فموقف هذا شان صاحبه لايمكن أن يكون هذا الصاحب مصدر علم الوحي الذي شرف به رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) .

٥ - لم تذكر الروايات أنه ألقى إلى النبي صلى الله عليه وسلم درسًا أو عظة في أي جزء من جزئيات الإسلام ولم تثبت أنه كان صلى الله عليه وسلم يتردد عليه لتلقي تلك الدروس والذي يفهم من كلمته المختصرة أنه كان يتمنى أن يبقى حتى يصبح ناصرًا لدين الله وجنديا مخلصًا وتلميذًا ناجحًا للنبي صلى الله عليه وسلم لا أستاذًا مربيًا ولا عالمًا معلمًا (٥) .

---

(١) الأدلة على صدق النبوة المحمدية ، ص ٤٢٢ ، الوحي المحمدي ، ص ٩٦ ، نبوة محمد ﷺ في القرآن ص ٢١٧ .

(٢) الأدلة على صدق النبوة المحمدية ، ص ٤٢٣ .

(٣) الأدلة المحمدية على صدق النبوة المحمدية ، ص ٤٢٣ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ، ص ٢١٨ .

(٤) الأدلة على صدق النبوة المحمدية ، ص ٤٢٣ .

(٥) مناهل العرفان ، الشيخ الزرقاني ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ .

٦ - لقد مات ورقة مبكرًا ولم يمكث زمنًا طويلاً فكيف كان هو سر نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ [١] ﴿ قل لايعلمُ من في السموات والأرض الغيبَ إلا اللهُ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ [٢] .

٧ - لو ثبت أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ذلك من ورقة لما سكت أعداؤه أبدًا ولروجوا ذلك وساروا به في الناس جميعًا وهم الذين تشبثوا بما هو أدهى من ذلك [٣] .

٨ - لو كان ورقة هو الذي أعطى علوم النبوة للنبي صلى الله عليه وسلم لكان هو أولى بالنبوة منه صلى الله عليه وسلم .

٩ - لو كان ورقة هو المعلم وقد كان معايشًا للنبي في مكة فلماذا انتظر إلى أن هرم وبلغ النبي من العمر أربعين .

إدعاؤهم انه اخذ من الحاشية اليهودية والمسيحية المسلمة

قال الحداد :

« ونجد في المدينة في معية النبي حاشية مسيحية ويهودية قد أسلمت أو سايرت الإسلام نجد بلالا الحبشي مؤذن النبي وصهيبًا الرومي المسيحي الثري وسلمان الفارسي المسيحي الأصل وعبدالله بن سلام اليهودي الوحيد الذي أسلم في المدينة مع كعب الأحبار وهل كان حديث هذه الحاشية الكريمة سوى التوراة والإنجيل ؟

إن ذلك حجة قاطعة على أن بيئة النبي والقرآن كتابية من كل نواحيها . وإن ثقافة محمد والقرآن كتابية في كل مظاهرها وذلك بمعزل عن الوحي والتنزيل [٤] .

---

(١) الأدلة على صدق النبوة المحمدية . ص ٤٢٢ .

(٢) النمل . آية : ٦٥ .

(٣) الإسلام والمستشرقون . ص ٢٢٨ .

(٤) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية . ج ١ . ص ٣٧ . ٣٨ .

إن هذا إدعاء يعلم ببداهة العقول فساده فاغلب هؤلاء الذين ذكرهم الحداد لم يلتق بهم النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد الهجرة وقد سبق عمر مديد من حياة النبوة وقد التقى بهم تابعين له لا متبوعين ومتعلمين منه لا معلمين ومؤمنين به ومصدقين لا مكذبين (١) .

يقول بعض الباحثين (إن ما يدعيه المستشرقون من إفادة الرسول من حاشيته اليهودية والمسيحية الذين أسلموا وكانوا في صحبته هو محض افتراض لأن إسلامهم حجة قائمة على صدق ما جاء به من الوحي الإلهي ولو تبين لهم أنه كان يتتلمذ لهم في خفاء ليتلقى عنهم ما كان يدعو إليه لانفضوا من حوله ولعادوا إلى دينهم ولم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة في الدعوة إلى الإسلام والذود عنه والإخلاص للرسول فإن ثباته في الشدائد والمحن ومثابرته على مغالبة الكبر والعناد أول برهان قدمه للإنسانية على مدار التاريخ يشهد بصحة نبوته وصدق رسالته (٢) .

ومن الأدلة على بطلان مزاعم المستشرقين :

١ - لو تلقى صلى الله عليه وسلم شيئا من أهل الكتاب لنقل ذلك اتباعه الذين كانوا أحرص الناس على نقل أخباره وآثاره صلى الله عليه وسلم ولكنهم لم يفعلوا فعلم فساده (٣) .

٢ - لو ثبت ماذكر لاتخذه أعداؤه من المشركين حجة لهم للنيل منه والطعن فيه وهم الذين تعلقوا بأوهى الشبه وأضعفها كزعمهم أنه تعلم ذلك وتلقاه من رومي حداد أعجمي فرد الله عليهم بقوله : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلمه بشرٌ

---

(١) نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ ، والأدلة على صدق النبوة المحمدية ، ص ٤٢٦ .

(٢) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣٥ .

(٣) الوحي المحمدي ، ص ١٢٢ .

لسان الذي يلحدون إليه أعجميٌ وهذا لسانٌ عربي مبين ﴾ (١) .

ولكان اليهـود والنصارى أعرف الناس بهذا ولمـا سكتو أبدا وهم الذين بذلوا كل ما يملكون من جهـد للنيل من هذا الدين وإخماد أنفاسه وقد كـانت هنالك علاقة تربطهم مع المشركين وقد التقـوا سويًا في عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم فكيف صبروا على ذلك ؟ ولماذا لم يخبروا أصدقاءهم بهذا المطعن الخطير ولماذا لجاوا إلى عـرض الأسئلة للتثبـيت من نبوته وهم يعلمون أن دينه مـاخوذ من دينهم (٢) .

إن الذي يريد أن ينقد أمرًا معينًا عليه قبل ذلك أن ينظر إلى ما يترتب على نقده من ملابـسات ومعـارضات حـتى لايصبح نقـده نقدًا عليـه وطعنه طعنًا فـيه كهؤلاء المستـشرقين الذين ينقدون نقدًا مكشوفًا ويكذبون كـذبًا واضحًا لايخفى على من له أدنى مسكة من عقل .

٣ – إن النبي صلى الله عليـه وسلم لم يثبت له أن رأى التوراة والإنجـيل ولم يقرأ فيهما وهو الأمر الذي لايعرف قراءة ولا كتابة (٣) . ولم يثبت عنه أنه تلقى عن أحد من علمـاء اليهود أو النصارى أو غـيرهم والذين لقيـهم لم يتصل بهم صلة تمكنه من الأخذ عنهم (٤) بل ونصوص القـرآن صريحة في أنـه لم يكن يعرف شيئاً من أخبار الرسل وقصصهم قبل أن ياتيه الوحي . قال له سبحانه وتعالى عقب قصة نوح عليه السلام ﴿ تلك من أنباء الغـيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ (٥) .

وقد شـهد المتصـفون من المستـشرقين على صحـة دعوانا قال المـفكر الفرنسي

---

(١) النحل ، آية : ١٠٣ .

(٢) الإسلام والمستشرقون ، ص ٢٠٦ .

(٣) الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين ، ص ١٢٧ .

(٤) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(٥) هود ، آية : ٤٩ .

الكونت هنري دي كاستري : (ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي محمد من مطالعة التوراة والإنجيل (يعني بعثته) إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته ومخالف لوجدانه عند خلقته فظهور هذا الاعتقاد في جزيرة العرب بواسطة محمد دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته كما أنه بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته (١) .

٤ – لقد كشف الله بهذا الوحي الذي أنزله على الرسول صلى الله عليه وسلم أسرار أهل الكتاب وفضحهم وهتك أستارهم وبين انحراف عقائدهم وناصبهم العداء وذمهم ذمًا منكرًا وذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثة انتهوا خيرًا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافي السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ (٣) .

فلو أنهم كانوا معلمين له صلى الله عليه وسلم لمدحهم وجامَلَهُمْ وتودد إليهم وتقرب منهم ولم يقف منهم هذا الموقف العدائي حتى لايفضحوا أمره ويكشفوا حاله (٤) .

٥ – إن أحكام الشريعة الإسلامية كانت تاتي على حسب الحوادث والوقائع وكان صلى الله عليه وسلم يبين عند كل أمر ما يحتاج إليه ويتوقف في بعض الأمور

---

(١) الإسلام والمستشرقون ص ٣١٥ .

(٢) سورة البقرة ، آيات : ٧٥ . –

(٣) سورة النساء ، آية : ١٧١ .

(٤) الأدلة على صدق النبوة المحمدية ، ص ٤٢٩ – ٤٣٠ .

لينتظر الوحي وفي ذلك دلالة على أنه صلي الله عليه وسلم لم يتلق علمًا سابقًا من أهل الكتاب أو غيرهم ويلزم من تلقيه أن يكون على صلة دائمة بهم .

إن يعلى بن أمية رضي الله عنه كان يقول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ليتني أرى نبي الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم بالجعرانة وعلى النبي صلى الله عليه وسلم ثوب قد أظل به عليه معه ناس من أصحابه فيهم عمر إذ جاءه رجل عليه جبة صوف متضمخ بطيب فقال يارسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعدما تضمخ بطيب ؟ فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سكت فجاءه الوحي فاشار عمر بيده إلى يعلى بن أمية تعال . فجاء يعلى فادخل رأسه فإذا النبي صلى الله عليه وسلم محمر الوجه يغط ساعة ثم سرى عنه فقال أين الذين سالني عن العمرة آنفاً ؟ . فالتمس الرجل فجئ به فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات وأما الجبة فانزعها ثم أضع في عمرتك ما تضع في حجك (١) .

٦ - ومن أوضح الأدلة وأجلاها على أن الرسول ص لم يقتبس من اليهودية أو النصرانية وجود الخلاف في كثير من العقائد والاحكام بل جعل الشارع الحكيم جنس مخالفتهم أمرا مقصودًا له ومن متطلبات الشرع وهنالك كثير من الأحكام جعلت العلة فيها هي مخالفة اليهودي أو النصارى (٢) .

من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن اليهود والنصارى لايصبغون فخالفوهم » (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الحج باب غسل الخلوق ثلاث مرات ، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحج .

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ، ابن تيمية ، ج ١ ، ص ١٧٣ - ١٧٧ .

(٣) أخرجه البخاري كتاب الأنبياء وأخرجه مسلم كتاب اللباس والزينة ، ج ٣ .

وقـال صلى الله عليـه وسلم (خـالفـوا اليـهـود فـإنهم لايصلون في نـعـالهم ولاخفافهم) (١) .

عن أنس أن اليهـود كانوا إذا حاضت المرأة فـيهم لم يؤاكلوها ولم يجامـعهن في البيوت فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعـالى : ﴿ ويسئلونك عن المحـيض قل هو أذىً فاعتـزلوا النساء في المحيض ولاتقربوهن حـتى يَطهرن فإذا تطهرن فأتـوهن من حيث أمركم الله إن الله يحبّ التوابين ويحبُّ المتطهرين ﴾ (٢) .

فقـال رسول الله صلى الله عـليه وسلم « اصنعـوا كل شيء إلا النكاح فـبلغ ذلك اليهـود فقالوا : مـا يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيـئا إلاّ خالفنا فـيه » الحديث (٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(فهذا الحديث يدل على كـثرة ما شرعه الله لنبيه عن مخـالفة اليهود بل على أنه خالفهم في عامة أمورهم حتى قـالوا : ما يريد أن يدع من أمرنا شـيئاً إلا خالفنا فيه» (٤) .

فهذا إقرار من اليهود عليهم لعائن الله بمخالفة النبي صلى الله عليه وسلم لما كانوا عليه من شعائر حتى اشتهر ذلك بينهم ألا يكفي ذلك برهانا ساطعًا على بطلان قول المستشرقين أنه كيف شعائر الإسلام لتتفق مع شعائر اليهود ؟

أو لم يكفهم أنه صلى الله عليـه وسلم أخرج اليهود أذلاء حقـيرين من المدينة

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٢٢ .
(٣) أخرجه مسلم كتاب الحيض .
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

وأجلاهم عنها لما نقضوا عهودهم معهم وأبى عليهم أن يساكنوه في بلد واحد [١] .

أما وقف المستشرقين على الآيات والأحاديث العديدة الذامة لليهود والهاتكة لستورهم ؟ أفي ذلك ايضًا دلالة على أن النبي كان يتقرب منهم ويتزلف لهم بكسبهم وإرضائهم ؟ إن النبي صلى الله عليه وسلم منذ أن بعث وحمل رسالة الإسلام نسخ الأديان السابقة وأبطل شرعيتها فلا نجاة لأحد من الخلق يهودياً كان أو نصرانياً إلا بالتزام شرعه والسير على نهجه وهو القائل صلى الله عليه وسلم : والذي نفس محمد بيده لايسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار [٢] .

فلا بقاء لدين مع دينه صلى الله عليه وسلم ولا شريعة مع شريعته بل دينه هو الحاكم والمهيمن على كل الأديان قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ [٣] .

واستدلالهم بصوم عاشوراء على موافقة اليهود فيه أمور تحتاج إلى إيضاح :

أولاً : جاءت الأحاديث تترى عن النبي صلى الله عليه وسلم تامر بصيام عاشوراء وكان مفروضًا في بادئ الأمر فلما شرع صوم رمضان أصبح صيامه مستحبًا وذلك لقول عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بصيام يوم عاشوراء فلما فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر [٤] .

---

(١) روى البخاري ومسلم بسنديهما إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فأمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع وهم رهط عبدالله بن سلام ويهود بني حارثة وكل يهود المدينة ، هذا لفظ البخاري كتاب المغازي وصحيح مسلم كتاب الجهاد .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الإيمان .

(٣) المائدة ، آية : ٤٨ .

(٤) أخرجه البخاري كتاب الصوم باب صوم يوم عاشوراء ، وأخرجه مسلم كتاب الصيام .

ثانياً : وردت بعض الأحاديث الصحيحة التي يمكن أن يؤخذ منها موافقته صلى الله عليه وسلم لليهود . من ذلك : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : ماهذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى قال فانا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه (١) .

وعلة الموافقة هي التي بنى عليها المستشرقون شبهتهم السابقة . والرد على ذلك :

١ - لقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم عاشوراء في الجاهلية قبل قدومه المدينة .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه (٢) .

وفي رواية (وكان يوم تستر فيه الكعبة) (٣) .

فدل بهذا على أنه صلى الله عليه وسلم لم يصمه موافقة لليهود واقتداء بهم فيكون قوله في الحديث : « فانا أحق بموسى منكم » توكيدا لصومه ، وبيانا لليهود أن الذي يفعلونه من موافقة موسى نحن أيضاً نفعله فنكون أولى بموسى منكم (٤) .

٢ - إن النبي صلى الله عليه وسلم بين نوع مخالفة لليهود في صيام عاشوراء عندما شرع صيام يوم قبله أو بعد فعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصوم .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصوم .

(٣) رواه البخاري كتاب الحج .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ، ج ١ ، ص ٤١٣ - ٤١٤ - فتح الباري ج ٤ ، ص ٢٤٨ .

الله عليه وسلم : صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود صوموا قبله يومًا أو بعده يومًا (١) .

وعنه قال : حين صام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، قالوا : يارسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع ؟ قال : فلم ياتي العام المقبل ، حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢) . فدل ذلك على مخالفته لهم في صيامه (٣) .

واما زعمهم ان المؤمنين كانوا لايصلون في مكة إلا مرتين في اليوم ثم ادخلت صلاة ثالثة عندما ذهبوا إلى المدينة على غرار اليهودية فهو زعم أوهى من خيط العنكبوت إذ الصلوات الخمس فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء ولا خلاف بين أهل العلم وأهل السير في ذلك (٤) .

وهذا الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة التي وردت في صفة الإسراء والمعراج في الصحيحين من أحاديث جماعة من اصحابة رضي الله عنهم (٥) .

وفي أحدها قوله صلى الله عليه وسلم : « فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال : يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك صلاة » (٦) . الحديث .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصيام باب أي يوم يصام في عاشوراء .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ج ١ ، ص ٤١٥ ، فتح الباري ، ج ٤ ، ص ٢٤٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

(٥) صحيح البخاري كتاب الصلاة ، وصحيح مسلم كتاب الإيمان .

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه .

وأما زعمهم أنه جعل الجمعة يوم صلاة عامة على غرار السبت عند اليهود فهو أيضًا قول مخالف للصواب لأن الله سبحانه شرع لعباده المؤمنين الاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (١) .

وقد ثبت أن الله أمر الأمم السابقة بتعظيمه فضلوا عنه واختار اليهود السبت والنصارى الأحد وفضّل الله هذه الأمة بيوم الجمعة لفضيلته (٢) .

عن أبي هريرة وحذيفة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق » (٣) .

ففي الحديث ذم لأهل الكتابين على تفريطهم في يوم الجمعة ثم شرع صلى الله عليه وسلم صيام يوم السبت ويوم الأحد مخالفة لهما كما جاء في حديث أم سلمة أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم السبت ويوم الأحد أكثر مما يصوم من الأيام ويقول : انهما عيد المشركين فانا أحب أن أخالفهم » (٤) .

قال الحافظ ابن حجر:-

يوم السبت عيد عند اليهود والأحد عيد عند النصارى وأيام العيد لاتصام فخالفهم بصيامها (٥) .

---

(١) الجمعة ، آية : ٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٣٦٥ .

(٣) أخرجه مسلم كتاب الجمعة وأخرجه البخاري كتاب الجمعة .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ج ٦ ، ص ٣٢٤ .

(٥) فتح الباري ج ١٠ ، ص ٣٦٢ .

بعد هذا يتضح لنا أن وحي الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن ماخوذًا من اليهودية أو النصرانية وإنما هو وحي مستقل لم يتاثر بغيره وبالتالي دين الإسلام دين قائم بذاته متميز عن غيره وإذا وجد تشابه بين نسك إسلامي وبين عمل سابق منسوب إلى دين اليهود أو النصارى دل ذلك على أن أصل الدين الذي جاء به رسل الله واحد (٣) .

قال تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون ﴾ (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد » (٣) .

أي أصل إيمانهم واحد لانهم متفقون في أصول التوحيد ، وأما فروع الشريعة فوقع فيها اختلاف (٤) .

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية العلاقة بين شريعة الإسلام والشرائع السابقة مقسمًا ذلك إلى ثلاثة أقسام :

(أ) قسم مشروع في ديننا مع كونه كان مشرعًا لهم أولا يعلم أنه كان مشروعًا لهم لكنهم يفعلونه الآن .

(ب) وقسم كان مشروعًا ثم نسخه شرع القرآن .

(جـ) وقسم لم يكن مشروعًا بحال وإنما هم أحدثوه وهذه الأقسام الثلاثة إما أن تكون في العبادات المحضة وإما أن تكون في العادات المحضة وهي الآداب ، وإما أن تجمع العبادات والعادات (٥) .

---

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم شيخ الإسلام ابن تيمية ، ج ٢ ، ص ٨٣٨ . مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٦٥ . الرسول في كتاب المستشرقين ، ص ١٢٥ .

(٢) الأنبياء ، آية : ٩٢ .

(٣) أخرجه البخاري كتاب الأنبياء .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ، ج ١٥ ، ص ١٢٠ . فتح الباري ج ٦ ، ص ٤٨٩ .

(٥) ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم ، ج ١ ، ص ٤٢٠ .

زعموا أن الوحي مقتبس من العقائد والأديان القديمة المختلفة :

لقد زعم المستشرقون أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يات بجديد من الأفكار ولم يبشر بدين إلهي كما يقولون وإنما أخذ أفكاره من الأديان والعقائد والنظريات السائدة في عهده وطور في بعضها لتساير مجتمعه الذي يعيش فيه فالوحي الذي يزعمه هو عبارة عن لميم ومزيج من العقائد والعبادات الهندية والفارسية واليونانية والبابلية والوثنية والمجوسية وشرائع العرب في الجاهلية والأساطير الإبراهيمية والنزعات الصوفية وغير ذلك فلم يات بما لم يسبق إليه (١) .

رد هذه الأكاذيب :

إن الله سبحانه قد بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل وذلك حين انحرفت الإنسانية عن طريق ا لرسل عليهم السلام وانغمست في لجج الضلال وانطمس نور الهداية فعاش الجميع في ظلال دامس إلا ما ندر ممن بقي من أهل الكتاب على عقيدة التوحيد . قال صلى الله عليه وسلم « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلاّ بقايا من أهل الكتاب » (٢) .

واختلفت عقيدة الإيمان بالله في نفوس البشر :

فالإله في التوراة له تصور خاص يتعلق ببني إسرائيل وأنبيائهم وليس له صفة العموم والشمول . وفي ا لإنجيل فكرة التثليث التي تنافي الوحدانية(٣) .

والبيئة التي نشا فيها الرسول صلى الاه عليه وسلم بيئة جاهاية اتخذت من

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في العقيدة والشريعة لجولدزيهر ص ٤ ، ٥ ، ١٨ ، ١٩ وتاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٨ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ . لبروكلمان .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها قال النووي رحمه الله المقت أشد البغض والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد ببقايا أهل الكتاب : الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل .

(٣) الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

الأصنام والأوثان آلهة تلجا إليها في الشدة والرخاء لاتعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا اختلط عندهم الحق بالباطل وذلك الضلال الذي وصفهم الله به في قوله : هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (١) .

وأما الهنود فلهم أديان كثيرة وعبادات مختلفة تجمع بين الوثنية الساذجة والآراء الفلسفية (٢) وقد عبدوا عددًا من الآلهة فعبدوا الحيوانات وقوى الطبيعة وغير ذلك (٣) .

والمجوسية التي هي دين الفرس وغيرهم أثبتوا أصلين مدبرين أحدهما النور وهو إله الخير والنفع والصلاح والآخر الظلمة وهي إله الشر والضر والفساد (٤) وجعلوا للنار بيوتاً وعبدوها من دون الله (٥) .

وعقائد اليونانيين والبابليين من الفلاسفة والصابئة الذين ينكرون النبوات (٦) .

فالصائبة يعبدون الكواكب والهياكل (٧) .

والفلاسفة هم المقدسون للعقل القائلون بالوجود المطلق (٨) .

---

(١) سورة الجمعة ، آية : ٢ .
(٢) الشهرستاني الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٩ .
(٣) انظر أديان الهند الكبرى ص ٣٢ ، ٣٣ ، ٢١٢ .
(٤) ا لملل والنحل ، ج ١ ، ص ٢٣٢ .
(٥) المرجع السابق ، ج ٢ .
(٦) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٨ .
(٧) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧ .
(٨) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

والصوفية التي انحرفت عن الصراط المستقيم وشابت عقائدها بالفلسفات الهندية والفارسية واليونانية وغير ذلك كعقيدة الحلول (١) والاتحاد (٢) والفناء (٣) .

وقد فند الشيخ محمد الغزالي هذه الشبهات بقوله (فماذا كان مصير الحضارات في مصر واليونان وفي الهند والصين وفي فارس وروما ؟ لا أقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم بل من ناحية العاطفة والعقل ، إن الوثنية الوضعية اغتالتها وفرضت عليها السقوط في هذه الوهدة الزرية فامسى الإنسان الذي استخلفه الله ليكون ملكاً في السماوات والأرض أمسى عبدًا مسخرًا لأدنى شيء في السموات والأرض وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار ويعبد الأخشاب والأحجار وتطبق شعوب باسرها على الخرافة (٣) .

---

١) الحلول عقيدة باطلة من عقائد المتصوفة أخذت عن العقائد الهندية والنصرانية يزعمون فيها أن الله يحل في الأشخاص حتى يصبح الشخص ربًا أو إلهًا يتصرف في الكون ويعلم الغيب ومن أقوالهم في ذلك « أنا الحق » وما في الجبة الا الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . انظر الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ، ص ٦٥ .

٢) الاتحاد أو وحدة الوجود : هي عقيدة الحادية باطلة من عقائد المتصوفة يزعمون فيها : أن كل شيء في الوجود هو الله وأن الله هو الذي في الكون وحده ولاشيء معه وما هذه الظواهر من المخلوقات إلا مظاهر لحقيقة واحدة هي حقيقته تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً ، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ، ص ٦٩ .

٣) الفناء : عقيدة الحادية باطلة من عقائد المتصوفة يزعمون فيها أن العبد يفنى في الله بمعنى أنا يرى أن الله هو الوجود وأنه لاوجود لسواه لا به ولا بغيره .

قال ابن القيم رحمه الله : « زعم أهل الاتحاد – القائلون بوحدة الوجود – أن الفناء هو غاية الفناء عن وجود السوى . فلا يثبت للسوى وجودا البتة لا في الشهود ولا في العيان . بل يتحقق بشهود

فيستحيل على هذه النحل الفاسدة والعقائد المنحرفة ان تكون مصدرًا لعقيدة التوحيد الصافية الخالية من كل شائبة شرك ولذلك الدين القويم والهدى المستقيم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحيا الله به قلوبًا غلفًا وابصارًا عميًا وآذانا صمًا وانتشل به البشرية وهدة الظلام وضلال العقول إلى بر الأمان وسلامة المعتقد .

وهذه النحل تحوي بين طياتها لميًا من العقائد والعادات المختلفة المتباينة فكيف استقى النبي صلى الله عليه وسلم منها جميعًا ثم خرج بهذا الدين الذي لاتباين فيه ولا اختلاف ؟

وهل لبشر مهما أوتي من النبوغ وحصافة العقل أن يجمع بين ملل تفرقت بها الأهواء وانحرفت بها السبل وتشعبت الطرق واختلفت مصادرها ومشاربها هذه الاختلافات البينة التي غصت بها كتب النحل والملل والأديان .

لقد كان صلى الله عليه وسلم أميًا لايقرأ ولا يكتب في بيئة أمية جاهلية تقبع في جزيرة العرب ليس لها معرفة واطلاع على عقائد وأديان الشعوب الأخرى إلاّ ما قل وندر ولم يخرج صلوات الله وسلامه عليه من جزيرة العرب قط ولم يختلط مع تلك الشعوب ويتعرف على عقائدها وثقافاتها ليكون منها فكرة دينية ثم يزعم أنه أرسل لتبليغها للناس وقد أسلم كثير من أصحاب تلك النحل وحملوا هذا الدين وأصبحوا من أبنائه فلماذا لم يكشفوا عن هذه الحقيقة لأبناء نحلهم ؟ ولماذا رضوا بالبقاء واستمرارية الإنتماء له وهو دين منحول من أديانهم وغيرها ؟

وأين هو الدليل الذي يثبت مزاعم المستشرقين على إفكهم هذا ؟ وماهي العقيدة

فدكوا عرش الفرس واقتلعوا دولتهم من جذورها واخرجوا الروم من الجزيرة العربية وظل الإسلام يواصل سيره شرقا وغربًا شمالا وجنوبا ويغزو تلك النحل والملل في عقر دارها ويخضع أصحابها إلى الانتماء إليه وترك أديانهم وعقائدهم فلو كان ملفقًا من تلك العقائد لماذا لم يجابه أربابها الفاتحين بتلك الحجة - وما أسهلها - بدلاً من حمل السيف ومواجهة التعذيل والتشريد والسبي ؟ ثم لماذا يحارب المسلمون أصحاب نحل يعلمون أن نبيهم عليه السلام قد استقى دينه منها ولماذا لم يكرموهم ويقدروهم ، ويحلوا عقائدهم بدلاً من سفك الدماء وسبي النساء وفرض الجزية ؟

كل هذا وغيره يبين فساد ادعاء المستشرقين وبطلان قولهم وتهافت عقولهم وانكشاف دسائسهم وأحقادهم . وصدق الله حيث يقول : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ (١) .

النبوة والرسالة

حاجة البشرية إلى الرسالة :

يعرف الإنسان أحيانا بأنه كائن إجتماعي – فالإنسان لا يعيش إلا في جماعة وقد زوده الخالق سبحانه بآلة النطق حتى يتمكن التفاهم والتعارف على بعضهم البعض وحاجتهم لا تقف عند حد معين، بل تزداد وتتكاثر كلما كثرت مطالب الإنسان وتعددت حاجياته .

والناس بما هم ناس ينزعون إلى الخير والشر ، فهم مزيج من المادة والروح ولكل مطالبه ورغباته . ولا يستطيع الإنسان أن يدرك حقوقه وواجباته في الحياة إلا بالنبي فإذا سمى بعقله انتزعته رغبات المادة فتعتريه العواطف والرغبات والنزوات فيضطرب ميزانه ، لذلك كان لابد من قانون إلهي توضع عليه أعمال الأفراد وتوزن بميزانه. ومهما ارتقى الإنسان في مضمار التفكير ... المنظم فإنه لا يستطيع إدراك عواقب الأمور .

والقوانين الوضعية تختلف بإختلاف البشر أنفسهم وبإختلاف البيئات والأحوال ، فلذا كان لابد من وجود قوة عليا مسيطرة فوق سلطة البشر وأن تكون القوانين التى يسير عليها البشر من سلطة عليا، وذلك لا يتم إلا عن طريق الرسالة .

فالرسالة روح العالم ونوره وحياته . فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور . والدنيا ملعونة كلها إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة : فهو في ظلمة الأموات . قال تعالى: ﴿ **أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** ﴾ . (سورة الأنعام الآية : ١٢٢)

فالمؤمن كان فى ظلمات الجهل فأحياه الله بالرسالة أما الكافر فهو فى ظلمة الكفر والشرك فهو ميت وإن كان يحيا حياة بهيمية ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ [١] .

فالله تعالى جعل الرسل وسائط بينه وبين خلقه ليبينوا لهم ما ينفعهم وما يضرهم وما يصلحهم فى معاشهم ومعادهم فأرشدوهم إلى توحيد الله وإثبات صفاته وإثبات القدرة على خلقه وذكر أيامه تعالى في أوليائه وأعدائه وهي القصص التي قصها على العباد والأمثال التي ضربها لهم وأرشدوهم إلى العلم بتفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة وبيان ما يحبه الله وما يكرهه [٢] .

فالحاجة إلى الرسل والأنبياء من أهم حاجات البشر ، فإذا كان العقل يستطيع الوصول إلى إدراك بعض حقائق الأشياء فقد يستغنى عن الرسول بالعقل – قد يطرأ هذا على أذهان المنكرين للرسالة .

يجيب الجويني عن ذلك فيقول: (إذا أتى الرسول بما يوافق العقل فإن بعث الرسول توكيد لما يتوصل إليه العقل وأدلة متنوعة خير من دليل واحد فضلا عن أن العقل يأتي بالكليات، أما التخصص وتعيين الجزئيات فمن الرسول كالطبيب الذي ينص على دواء معين لشفاء المريض) [٣].

كما أن العقل البشري قد يدرك بطريق الإلهام أن حياة أخرى غير هذه الحياة ليست محل تكليف ولكنها محل جزاء لا يهتدي إلى تفاصيلها مما يجب الإيمان به من الجنة والنار والثواب والعقاب فلا سبيل إلى معرفتها إلا

---

(١) سورة محمد الآية ١٢ .

(٢) السفاريني – لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية – ص٢٦٠ جـ ٢ .

(٣) أحمد محمد صبحي في علم الكلام ص٥٨٤ ط. مؤسسة الثقافة الجامعية الأسكندرية .

عن طريق الرسل .

يقول ابن تيمية : ((الرسالة ضرورية في صلاح العبد في معاشه ومعاده فكما أنه لا صلاح في آخرته إلا بإتباع الرسالة ، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا بإتباع الرسالة ، فالإنسان مضطر إلى الشرع فإنه يبين حركة يجلب بها ما ينفعه وحركة يدفع بها ما يضره)) (١) .

كما أن بعثة الرسل لتنقطع أعذار المكلفين ولتقام عليهم الحجة ، فإذا ما استطاعت بعض العقول أن تدرك المعرفة فقد تضل الأخرى ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . ولئلا يقولوا : ﴿ **رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى** ﴾ (٢) .

وقد ذكر العلماء وجوهاً ثلاثة لقطع الحجة على المكلفين :

الأول : أن يقول الناس إن كان الله قد خلقنا لنعبده فقد كان يجب أن يبين لنا العبادة التي يريدها منا . ما هي ؟ وكم هي ؟ وكيف هي ؟ فأصل الطاعة ما حكم العقل بموجبها ، ولكن كيفيتها غير معلومة !! فبعث الله الرسل لقطع الأعذار فإذا ما بينوا الشرع أزيلت الأعذار .

الثاني : أن يقول الناس يارب إنك ركبتنا تركيب سهو وغفلة وسلطت علينا الأهواء والرغبات فهل أرسلت إلينا من إذا سهونا أو غفلنا ينبهنا ؟ فإذا ما تركتنا وأنفسنا كان ذلك إغراء لنا على فعل القبيح ، فكانت الرسل لقطع الأعذار .

الثالث : أن يقول الناس يارب هب إننا بعقولنا ندرك حسن الإيمان وقبح الكفر والعصيان ولكنا لا ندرك أن حسن الإيمان جزاءه الجنة وقبح

---

(١) السفاريني لوامع الأنوار البهية ص٢٦١ . (٢) سورة طه الآية : ١٣٤ .

الكفر عقوبته النار ، كما أننا لا نعلم أن من آمن وعمل صالحـاً استحق الثواب الخالد في الجنة ولا سيما وأنا نعلم أنه لا منفعة لك في شئ [١] .

أما بعد البعثة فقد انقطعت هذه الأعذار فكانت البعثة قطعاً لعذر الناس من هذه الوجوه [٢] .

يقول السعد التفتازاني: ((فكانت مهمة الرسل بيان العقائد الإلهية للناس وتعريفهم بربهم وإصلاح حال لجماعة الإنسانية في المعاش والمعاد)) [٣] .

فالحاجة إلى الرسالة ضرورية في الماضي بالرسل وفي الحاضر باتباع القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ..** ﴾ [٤] . وقوله عليه الصلاة والسلام : ((**والله لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا أدخله الله النار**)) .

فبقى القرآن حجة الله على خلقه وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فالبشرية في حاجة إلى التعاليم النبوية الفاضلة لنبذ الوثنية الحاضرة متمثلة في ديانات انحرفت وامتزجت بالوثنية أو وثنية خالصة .

يقول الأستاذ محمد قطب : نصف سكان العالم ما يزالون وثنيين يعبدون الأصنام في الهند والصين والقبائل المتفرقة في أنحاء الأرض ، وما يقرب من نصفهم يعبدون خرافة أخرى لا تقل إنحرافا بالناس عن الحق ولا إفسادا لضمائرهم ومشاعرهم وعلاقات بعضهم ببعض بل ربما كانت أكثر إنحرافا وأشد خطراً ، تلك الخرافة هي العلم [٥] .

---

(١) السفاريني - لوامع الأنوار البهية ص٢٥٩ جـ ٢ .

(٢) الفخر الرازي محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص٢١٤ .

(٣) شرح المقاصد ص١٢٣ جـ ٢ . (٤) سورة الأنعام الآية : ١٩ .

(٥) محمد قطب شبهات حول الإسلام ص١٩ .

فستظل النبوة هي المثل والمرجع لكل إنسان وفي كل عصر ، والإنسانية في صراع دائم بين المذاهب والجماعات والأفراد والدول وتكثر المشاكل وتتعقد .

هنا تبرز الحاجة إلى النبوة وتعاليمها لتحقيق الأمن النفسي والراحة والطمأنينة ومقاومة الشر والطغيان من أجل مرضاة الخالق سبحانه .

ولما كنا قد بينا أنه لا غنى عن الرسالات الإلهية فلم يبق إلا أن نبين من هو النبي ومن هو الرسول ، وما هي الشروط الواجبة في حقهم ، وما هي صفاتهم ؟ وشبه المنكرين وحض هذه الشبه ، وبيان الدليل على صدق الرسول والشبه المثارة ضد الدليل ؛ فنقول وبالله التوفيق :

النبوة والرسالة

تفسر النبوة بأنها إخبار الله بعض عباده بتبليغ وحيه إلى خلقه ليعملوا بما شرعه الله لهم، ويوضحوا لهم ما قصرت عقولهم عن إدراكه . وقبل أن نتكلم عن النبوة والرسالة لابد وأن نذهب إلى قواميس اللغة لنتعرف عن مشتقاتها اللغوية حتى يتضح لنا بعد ذلك المراد بها عند علماء الكلام .

أولاً : النبوة لها اشتقاقات ثلاثة :

١- إما أن تكون مشتقة من الأنباء بمعنى الإخبار فيكون النبي أصله النبيئ بالهمزة – قلبت الهمزة ولواً فتصير الكلمة النبيو – قلبت الواو ياء ثم أدغمت الياء في الياء فصارت النبي – على زنة **فعيل بمعنى مفعول** لأنه منبئ عن الله ؛ أي يخبره الله تعالى بما غاب عن سواه من البشر .

أو على فعيل بمعنى فاعل لأنه يخبر غيره بما أطلعه الله عليه هذا إذا كان لفظة النبي مشتقة من الأنباء بالهمزة ولا يستعمل الهمزة في النبي إلا أهل مكة ولا يستخدمونها في غيرها .

يقول سيبويه : ((ليس أحد من العرب إلا ويقول تنبأ مسيلمة الكـذاب والعرب تترك الهمزة في النبي واستعمالها لغة رديئة لأن القياس يمنع ذلـك ألا ترى إلى قول النبي ﷺ وقد قيل له يانبئ – على لغة أهل مكة – فقـال النبي ﷺ : " **لا تنبأ باسمي ولكني نبي الله** " وذلك لأنـه عليـه الصـلاة والسلام أنكر الهمزة والأجود تركها لما ورد في الحديث عن البراء قلـت ورسولك الذي أرسلت فرد علي وقال ونبيك الذي أرسلت))[١] .

٢- وقد يأتي النبي غير مهموز فيكون مشتقاً من النبوة والنباوة ومعناه العلو والارتفاع . والنبي ما ارتفع من الأرض ومنه الحديث: لا تصلوا على النبي ؛ أي على الأرض المرتفعة المحدود به . ومتى أريد بهذا اللفظ علـو المنزلة فلا يجوز إلا بالتشديد بلا همزة وعلى هذا يحمل ما روي عن النبي ﷺ : ((**لا تنبزوا بأسمي**)) أي لا تهمزوه لأنه أراد علو المنزلة .

ولا يلزم أن يكون كل عالي المنزلة نبياً إلا أنه بالعرف صارت هـذه اللفظة مختصة بمن علت منزلته لتحمل أعباء الرسالة والقيام بأدائها وذلـك إذا كان من البشر ولذلك لا توصف الملائكة بأنهم أنبياء وإن كان فيهم رسل من قبل الله تعالى [٢] .

٣- قيل أنه مأخوذ من النبي الذي هو الطريق لأنهم الطرق الموصلة إلى الله تعالى [٣] .

وعلى كلٍّ أياً كان اللفظ الذي اشتق منه لفظ النبي فإن التعريف اللغوي شامل للنبي الرسول والنبي الذي ليس برسول – على رأي من يرى الفرق

---

(١) لسان العرب لابن منظور - فصل النون حرف الواو .

(٢) الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد . محمد بن الحسن الطوسي المتوفى ٤٦٠هـ . ص٢٤٤ .

(٣) لوامع الأنوار البهية للسفاريني جـ ١ ص ٤٩ .

بينهما - لأن كليهما ينبئ عن الله تعالى وكليهما رفيع المنزلة والقدر وواسطة بين الله والناس .

يقول ابن الأثير : إنما ورد ليختلف اللفظان ويجمع له الثناء بين النبوة والرسالة ويكون تعديه للنعمة في الحالتين وتعظيما للمنه على الوجهين ، والرسول أخص من النبي لأن كل رسول نبي ولا عكس [١]. فعلى هذا يكون النبي مرتفعاً عن البشرية باختصاصه بالوحي وخطاب الله تعالى .

أما في اصطلاح المتكلمين : فقد اختلف العلماء في بيان الفرق بين النبي والرسول .

فجمهور أهل السنة : يقولون بأن النبي أعم من الرسول، لأنه يشترط في الرسول أن يكون صاحب كتاب وشريعة جديدة ويؤمر بتبليغ الشريعة بخلاف النبي .

فعلى هذا يكون النبي هو من اختصه الله بالوحي سواء أمر بتبليغه أم لم يؤمر. والرسول هو من اختصه الله بالوحي وأمر بالتبليغ ، فبينهما عموم وخصوص مطلق فالنبي أعم .

إما إذا قلنا في التعريف بأن النبي بشر أمر بالتبليغ أو لم يؤمر ، والرسول ملك أو بشر أمر التبليغ فتكون العلاقة بينهما العموم والخصوص الوجهي يجتمعان في بشر أمر بالتبليغ وينفرد الرسول في ملك وينفرد النبي في بشر لم يؤمر بالتبليغ .

وإلى هذا ذهب من يرى أن النبي غير الرسول، وقد ذكروا فروقا بين النبي والرسول وأحسنها أن من أنبأه الله بخبر السماء إن أمره الله أن يبلغ

---

(١) لسان العرب لابن منظور جـ ١ ص١٥٧ .

غيره فهو نبي رسول وإن لم يؤمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول، فالرسول أخص من النبي فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول ، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها فالنبوة جزء من الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل ، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم بل الأمر بالعكس . فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها [١] .

وقيل : إن العلاقة بينهما التباين وهو التغاير فالنبي غير الرسول واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾** [٢] .

فعطف النبي على الرسول يدل أنه غيره لأن العطف يقتضي المغايرة فدل أنهما متغايران ؛ ويستدلون بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده أن أصحاب رسول الله ﷺ قد سألوه عن عدد الأنبياء فقال ﷺ : ((**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً**))، ثم سألوه عن عدد الرسل فقال : ((**ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً**))، ثم سألوه عن الكتب فقال: ((**مائة وأربعة كتب**)) [٣] . فهذا يدل على أن النبي غير الرسول .

وقد خالف في هذا الرأي ابن تيمية في كتابه (**النبوات**) فيقول: ((إن النبي ﷺ هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول ، وأما إذا كان يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول ، قال تعالى: **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾**، فقوله (من رسول ولا نبي) فذكر

---

(١) شرح الطحاوية ص٨٢ .　　(٢) سورة الحج الآية : ٥٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد جـ ١ ص٣٤ .

إرسالا يعم النوعين ، وقد خص أحدهما بأنه رسول ، فإن هـذا الرسـول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح . وقد ثبـت فـي الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض وقد كان قبله أنبياء كشـيث وإدريس – عليهما السلام – وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً [١] .

معنى هذا أن ابن تيمية يرى أن النبي والرسول متساويان فكل منـهما إنسان ذكر حر بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام إليهم .

غاية ما في الأمر؛ أن النبي مرسل ولكنه لا يسمى رسولاً على وجـه الإطلاق لأنه لم يرسل إلى قوم لا يعرفونه ، بل كان يأمر المؤمنيـن بمـا يعرفون أنه حق وذلك مثل أهل الشريعة الواحدة الذين يأخذون عن العلمـاء ما يبلغونهم عن الرسول وذلك مثل أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يـأمرون بشريعة التوراة ، وقد يوحى إلى أحدهم وحياً خاصاً كما في قصة سـليمان وداود [٢] وقد كانا على شريعة التوراة .

فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ، ونهيه ، وخبره ، وهـم ينبئـون المؤمنين بما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي فإن أرسلوا إلى الكفـار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له كانوا رسلاً .

وقد جرت العادة في الرسول أن يكذبه قومه، قال تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ مَـا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ** ﴾ [٣] ، وقولـه تعالى: ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ [٤] .

---

(١) ابن تيمية - النبوات - ص٢٥٥ ط. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

(٢) ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِـهِمْ شَـاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. ﴾ سورة الأنبياء الآيتان : ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) سورة الذاريات الآية : ٥٢ . (٤) سورة فصلت الآية : ٤٣ .

وهذا دليل على أن النبي مرسل ولا يسمى رسولاً على الإطلاق .

كما أنه ليس من شرط الرسول أن يأتي بكتاب وبشريعة جديدة ، فإن يوسف عليه السلام كان رسولاً وعلى ملة إبراهيم عليه السلام .

قال تعالى عن مؤمن آل فرعون : ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ..** ﴾ (١) .

وكما كان داود وسليمان على شريعة التوراة وأنهما من الرسل وأعطى داود كتابا وهو الزبور، فقال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا . وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا** ﴾ (٢) .

هذا ؛ وما ذهب إليه ابن تيمية هو الرأي المختار في أن النبي مرسل من قبل الله تعالى ومثله الرسول إلا أن الرسول مكلف بالإرسال على وجه الإطلاق ورسالته شاملة للمخالفين في العقيدة : المشركين في التوحيد كما تشمل المؤمنين والموحدين ممن أرسل إليهم . أما النبي فرسالته ليست على الإطلاق بل إنها تشمل المؤمنين والموحدين غير المكذبين له فهم على التوحيد والنبي يذكرهم ويصلح إعوجاج أنفسهم التي قد تكون أصابها الوهن وفترت همتهم وقلت عزيمتهم، وبهذا نطق صريح القرآن الكريم في وصف أنبياء بني إسرائيل مع أنهم كانوا على شريعة موسى عليه السلام .

---

(١) سورة غافر الآية : ٣٤ .

(٢) سورة النساء الآيتان : ١٦٣، ١٦٤ .

وخلاصة ما ذكر أن الرسول والنبي بمعنى واحد وكل منـــهما يـــأتي مضافا إلى الله ، فكما يقال يارسول الله يقال يانبي الله .

قال تعالى: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ .. ﴾ (٢) .

فعرف باللام فكانت اللام تعاقب الإضافة .

الفوائد المترتبة على إرسال الرسل :

١ - أن بعثة الرسول لطف ورحمة من الله لعباده، وقد اقتضت حكمـــة الله أن يبعثهم لبيان الأحكام التي لا تستقل العقول بمعرفتها أو تـــأكيد مـــا وصل إليه العقل وبيان الطريق الصحيح في الوصول إلـــى المعرفـــة وبذلك تتخلص النفوس البشرية مما يؤرقها ويتوفر للعقـــل مـــا يريـــد الوقوف في البحث عن أسراره من المسائل التي احتدم حولها الجـــدل في حقبات الزمن المختلفة .

٢ - أن هناك من الأفعال ما يدرك العقل حسنها ولكنه ينتابه الخوف مـــن فعلها ، فلو لم يعلم العبد أن الله راض عن تصرفه فلم يأمن أن يكـــون آتياً عن طريق رضا الله ، فإذا ما جاء الرسول وأمر بها اطمأنت بـــها نفسه وقرت عينه وزال خوفه .

٣ - بعض الأفعال قد يحسن في العقل فعلها ولكنه لا يدرك ثوابها ، كما قد يقبح في العقل بعض الأفعال ولكنه لا يدرك عقوبتها فيكون الرســـول مبيناً للثواب المترتب على الطاعة والعقاب المترتب على المعصية .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٩١ .　　(٢) سورة النور الآية : ٦٣ .

٤ - أن بعض الأفعال قد يحسن فعلها في وقت ويقبح في وقت آخر، ويبين ذلك الرسول كالصيام مثلا فإنه يحرم في أيام العيدين وبيان ما يحل وما يحرم على الإنسان والتي قد يغفل العقل عن إدراك الحكمة في ذلك .

٥ - تعليم الأخلاق الفاضلة ورسم السياسات الكاملة ووضع القوانين التي تقود البشرية إلى ما يحقق سعادتها في الدنيا والفوز برضا الله في الآخرة .

٦ - الإجابة عما تحتار في شأنه العقول الإنسانية من الأسئلة التي تلح على العقل ولا يجد لها جواباً والتي أفنى الفلاسفة أعمارهم فلم يقفوا عليها مثل عجز العقل عن معرفة من أين أتى الإنسان وإلى أين سينتهي ، وما مصيره بعد الموت ؟!

فكانت بعثة الأنبياء ليبينوا للناس ما حارت فيه العقول وعجزت عن إدراك كنهه لأن أطوارها لا تتعدى إلى ما وراء الطبيعة من الغيبيات فكانت الحاجة داعية إلى بعثة الرسل ليبينوا ماذا يحدث لهم بعد الموت فيفصلون ما أعد الله في الدار الآخرة من ثواب للطائعين وعقاب للعاصين [١] .

حكم إرسال الرسل

اختلفت الآراء حول حكم إرسال الله للرسل .

أولاً : مذهب أهل السنة :

يرى أهل السنة أن إرسال الرسل جائز عقلاً وواقع فعلاً .

---

(١) السنوسية الكبرى ص٢٣٥ .

أما أنه جائز عقلاً لأنه من الأفعال الممكنة والله سبحانه يجوز في حقه فعل كل ممكن وتركه لما ثبت أنه فاعل مختار فلا يجب ولا يستحيل شيء في حقه الله تعالى .

إذ أنه لو كان واجباً في حقه تعالى لما كان له الحرية والاختيار ، بل كان كل ما يصدر عنه بالضرورة والقهر والمقهور عاجز فلا يكون إلاهاً . وذلك محال على الله تعالى .

ولو كان مستحيلاً في حقه لما كان قادراً مختاراً ، وقد ثبت له القدرة وهي لا تتعلق إلا بالممكن الذي يقبل الوجود تارة والعدم تارة أخرى فانتفى وجوب ممكن أو استحالته عليه تعالى وثبت له جواز الفعل ، قال تعالى ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (١) فإرسال الرسل جائز عقلاً .

أما أنه واقع فعلا ، فلأنه ثبت بطريق التواتر المفيد لليقين ثبوت رسالة سيدنا محمد ﷺ .

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن الله قد أرسل رسلاً كثيرين ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢) لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ثانياً : مذهب المعتزلة :

ذهب المعتزلة إلى وجوب بعثة الرسل، فإرسال الله الرسل واجب عليه من صلاح للعباد ولطف بهم ، والله يجب عليه أن يفعل ما فيه صلاح للعباد لما فيه من الرحمة واللطف إذ يقربهم من الطاعة ويبعدهم عن المعصية وذلك كله واجب على الله تعالى .

---

(١) سورة القصص الآية : ٦٨ .
(٢) سورة فاطر الآية : ٢٤ .

يصور مذهب المعتزلة في وجوب فعل الصلاح على الله تعالى القاضي عبد الجبار فيقول : ((قد تقرر في عقل كل عاقل وجوب رفع الضرر عن النفس وثبت أن ما يدعوا إلى الواجب ، ويصرف عن القبيح فهو واجب لا محالة ، وما يصرف عن الواجب ويدعوا إلى القبيح فهو قبيح لا محالة ، إذ صح هذا وكنا نجوز أن يكون في الأفعال ما إذا فعلناه كنا عند ذلك أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب المقبحات ، وفيما إذا فعلناه كنا بالعكس من ذلك . ولم يكن في قوة العقل ما يعرف به ذلك ويفصل بين ما هو مصلحة ولطف وبين ما لا يكون كذلك فلابد أن يعرفنا الله تعالى حال هذه الأفعال حتى لا يكون عائداً بالنقض على غرضه بالتكليف . وإذا كنا لا يمكن تعريفنا ذلك إلا بأن يبعث إلينا رسولاً مؤيداً بعلم معجز دل على صدقه فلابد من أن يفعل ذلك ولا يجوز له الإخلال به ولهذه الجملة قال مشايخنا أن البعثة متى حسنت وجبت على معنى أنها ما لم تجب قبحت لا محالة [(١)] .

ومن هنا يتبين لنا أن المعتزلة قد أوجبوا على الله بعثة الرسل بناء على ما ذهبوا إليه من القول بالحسن والقبح ، وأن كل ما حسنه العقل فهو واجب وما قبحه العقل يكون ممتنعاً ، والنبوة من حيث هي حسنة فقد وجبت على الله تعالى .

وقد ذكر التفتازاني في كتابه المقاصد آراء لعلماء ما وراء النهر وفيه يذهبون إلى القول بوجوب البعثة مثل المعتزلة تماماً قائلين إن الحكمة تقتضي إرسال الرسل ، وذلك لما يأتي :

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص٥٦٤ .

١ - خلق الله الأغذية والأدوية ولا يستطيع الإنسان أن يصل إلى تمييز هذه السموم المهلكة إلا بتجارب قد تستنفذ عمر الدنيا ، فلو لم يرسل الله رسولاً يبين ذلك لكان سفها .

٢ - خلق الله الإنسان الذي لا يستطيع العيش إلا في جماعة ، فمن الحكمة إرسال الرسل الذين يرسمون للجماعة ما فيه صلاحها .

٣ - خلق الله العقل الإنساني يميل إلى الخير وينفر من الشر وكمال العقل وهو في الوصول إلى الحقائق والعقل لا يدرك الحقائق تفصيلاً من غير نبي ، فلو لم يرسل الله رسولاً يبين ذلك لكان خلقه للعقل سفها .

٤ - أن بعض الأفعال تحمد عاقبتها فيجب فعلها ، فلو لم يبين الرسول ذلك لكان تركها مباحاً وليس ذلك من الحكمة .

موقف أهل السنة مما ذهب إليه القائلون بوجوب إرسال الرسل :

رد أهل السنة على من قالوا بوجوب إرسال الرسل وقولهم هذا يلزم عليه مفاسد كثيرة منها :

١ - أن القربات من النوافل صلاح ، فلو كان الصلاح واجباً وجبت بوجوب الفرائض .

٢ - أن خلود أهل النار يجب أن يكون صلاحاً لهم دون أن يردوا فيعتبوا على ربهم ويتوبوا إليه .

٣ - أن عدم خلق إبليس وجنوده أصلح للخلق وأنفع وقد خلقه الباري جل شأنه ، وأيضاً أنظاره وتمكينه وتمكين جنوده وجريانه من الآدمي مجرى الدم .

وهذا بناء ما عليه القائلون بوجوب الصلاح فضلاً عن أن الحسن والقبيح أمران عرضيان وليس ذاتيان في الأشياء، بل أنهما يختلفان باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمنة والأمكنة .

فقد يكون فعلا يوافق شخص ويراه حسنا يستهجنه الآخر ويراه قبيحاً فمن لا ديانة له يستحسن حسن الفعل وكل بحسب غرضه ، وقد يقتل ملك من الملوك فيستحسن فعل القاتل أعداءه ويستقبحه أنصاره ، فبهذا يتبين على القطع أن الحسن والقبح عبارتان عن طريق أمرين إضافيين مختلفان بالإضافات لا عن صفات الذوات التي لا تختلف بالإضافة ، فلا جرم جاز أن يكون الشئ حسنا في حق زيد قبيحا في حق عمرو ولا يجوز، أن يكون الشئ أسود في حق زيد أبيض في حق عمرو، ولما لم تكن الألوان من الأوصاف الإضافية [1] .

وبهذا يكون قد انتفى كون الحسن والقبح ذاتيان وثبت أنهما عرضان.

وقد ألزم أبو الحسن الأشعري الجبائي المعتزلي وقد سأله عن ثلاثة أخوة أمات الله أحدهم صغيرا ، وأحيا الأخرين فاختار أحدهما الإيمان والآخر الكفر فرفع الله درجة المؤمن البالغ على أخيه الصغير في الجنة بعمله ، فقال أخوه الصغير يارب لم لا بلغتني منزلة أخي ؟ فقال أنه عاش وعمل عملا استحق به هذه المنزلة ، فقال يارب فهلا أحييتني حتى أعمل مثل عمله فأبلغ منزلته ؟

فقال كان الأصلح لك أن توفيتك صغيراً لأني علمت أنك إن بلغت اخترت الكفر فكان الأصلح في حقك أن أمتك صغيراً .

---

(١) أبو حامد الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ص٨٥ ، ٨٦ .

قال الأشعري : فإن قال الثاني يارب لم لم تمتني صغيراً لئلا أعصـــي فلا أدخل النار ماذا يقول الرب ، فبهت الجبائي [١].

يقول الغزالي : ومعلوم أن هذه الأقسام الثلاثة موجودة وبه يظهر على القطع أن الأصلح للعباد كلهم ليس بواجب ولا هو موجود [٢] .

وبهذا يكون قد بطل القول في وجوب الصلاح والأصلح ويبطل كذلـك القول به في وجوب إرسال الرسل على الله تعالى وثبت أن إرسالهم جـــائز على الله تعالى ولكن يبقى إتماماً للبحث أن نعرض لرأي الفلاسفة في حكـم إرسال الرسل .

مذهب الفلاسفة :

الفلاسفة يقولون إن إرسال الرسل واجب على الله تعالى وأمر ضروري لا مندوحة عنه لأن النظام الأكمل الذي تقتضيه العناية الإلهيـــة لا يتـم إلا بوجود نبي ، وهذا راجع إلى أفضلية الإنسان على سائر المخلوقات وسـبب الأفضلية أن النوع الإنساني ذو نفس ناطقة وبيـــن هــذه النفــس الناطقـــة والجواهر الكروبية [٣] والجواهر الروحانية قرب نسبي، وهذا القرب النسبي استلزم لزوماً وجوبياً حول لطف المبدأ الأول وهو الله الذي أفاض جـــوده على النوع الإنساني كي تحصل له السعادة في الدنيا والآخرة .

---

(١) السفاريني : الأنوار البهية جـ ١ ص٣٣١ .

(٢) الغزالي - الاقتصاد في الاعتقاد ص٩٥ .

(٣) يقصد بالجواهر الكروبية الملائكة الحفريون كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير جـــ١ ص٤٩ ، ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقســـام : فمنـــهم حملـة العرش ، ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العـرش وهم الملائكة المقربون كما في قوله تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

وبناء على ما يقولون به من نظرية الفيض ، فالكائنات ابتــدأت مــن الأشرف فالأشرف حتى ترقت بالصعود إلى العقل الأول ونزلت في الانحطاط إلى المادة ، وكذلك النفوس ابتدأت من الأخس حتى بلغت النفــس الناطقــة وترقت إلى درجة النبوة .

والسعادة الإنسانية لا تتم إلا بوجود تعاون وتشارك بين بني الإنسان ، ولابد في المعاملة من سنة وعدل يسير الناس على هديها فيلزم وجود مــن يسن لهم ويعدل بينهم ، ولابد من أن يكون إنسانا بحيث يخــاطب النــاس ويلزمهم السنة، ولا يجوز أن يترك الناس وآراءهم في ذلك فيختلفون ويرى كل واحد منهم ما له عدلا وما عليه ظلماً .

فلابد من وجود مشرع يعرف الناس بما لهم وما عليهم وفاء بموجــب عناية المبدأ الأول .

وهذا ما قصده ابن سينا بقوله : ((لما لم يكن الإنسان بحيــث يســتقل وحده بأمر نفسه إلا بمشاركة آخر من بني جنسه وبمعاوضة ومعارضة [١] تجريان بينهما يفرح كل واحد منهما لصاحبه عن فهم . لو تــولاه بنفســه لازدحم على الواحد الكثير وكان مما يتعسر إن أمكن وجب أن يكون بيــن الناس معاملة وعدل يحفظه شرع ، يفرضه شارع متميز باستحقاق الطاعة لاختصاصه بآيات تدل على أنها من ربه ووجب أن يكون للمحسن والمسيئ جزاء من عند ربه القدير الخبير فوجب معرفة المجازي والشارع)) [٢] .

---

(١) **المعاوضة** : أن يعطي كل واحد صاحبه من عمله بإزاء ما يأخذه منه من عمله .
المعارضة : أن يعمل كل واحد مثل ما يعمله الآخر [شرح الطوسي على الإشــارات والتنبيهات] .

(٢) ابن سينا - الإشارات والتنبيهات ص٨٠٢ تحقيق د. سليمان دنيا ط. دار المعارف .

وهذا جار على اعتقاد الفلاسفة في إنكارهم علم الله للجزئيات إذ الله يعلم الأمور الكلية عندهم ، يقول نصير الدين الطوسي شارحا قول ابن سينا ((المعاملة والعدل لا يتناولان الجزئيات غير المحصورة إلا إذا كانت القوانين كلية وهي الشرع فإذن لابد من الشرعية والشرع لابد له من واضع يقنن تلك القوانين ويقررها على الوجه الذي ينبغي وهو الشارع ، ويجب أن يمتاز الشارع منهم باستحقاق الطاعة، واستحقاق الطاعة إنما يتقرر بآيات تدل على كون الشريعة من عند ربه وتلك الآيات هي معجزاته إذن لابد من شارع هو نبي ذو معجزة)) (١).

فالنبوة عند الفلاسفة واجبة عقلاً على معنى أنه لم يكن في العقل بد من حصول لطف المبدأ الأول وإفاضة الجود منه (٢) .

والناظر في كلام الفلاسفة يجد أنهم يقولون كالمعتزلة بوجوب إرسال الرسل غير أن هناك فرقاً في تفسير معنى الوجوب ، فالمعتزلة يرون الوجوب بأنه ما يستحق تاركه الذم .

أما الفلاسفة فيفسرون الوجوب بمعنى الصدور والفيض وعدم التخلف فهو بمعنى الإيجاب ، فالنبوة يلزم صدورها عن الله تعالى دون تخلف والفلاسفة يرون أن النبوة جود من المبدأ الأول وأن الجود من أخص صفات ذاته تعالى وما بالذات لا يتخلف فالنبوة لازمة عن ذاته لا تتخلف بأي حال من الأحوال .

كما أن المبدأ الأول علة تامة والعلة لا يتخلف عنها دائما وأبداً معلولها فيلزم صدور العالم المعلول عن العلة وهو الله تعالى ويلزم عن صدور

---

(١) المصدر السابق ص٨٠٢ هامش .

(٢) الأمدي غاية المرام في علم الكلام ص ٣١٩ تحقيق د. حسن الشافعي.

العالم صدور ما يحفظ النظام الأمثل والأكمل وذلك لا يتم إلا عن طريـــق وجود نبي .

هذا جملة ما يراه الفلاسفة من وجوب إرسال الرسل على الله تعالى .

نقول : إن القول بالإيجاب الذي تقول به الفلاسفة يلزم عليـــه ســلب الحرية والاختيار عن الله تعالى، بل كل ما يصدر عنه بطريق اللزوم ومــا يكون هذا شأنه لا يكون فاعلاً مختاراً بل إنه مجبر مقهور على إيجاد الفعل فيكون عاجزاً والعجز نقص، والإله الكامل يجب أن يكون متصفاً بكل كمال ومنزه عن كل نقص .

كما أخبر الله سبحانه عن ذاته فقال ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ** ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ **فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** ﴾ [٢] فلا يجري في ملكوت الله قليل أو كثـــير صغير أو كبير خيراً أو شراً ، إيمان أو كفر إلا بقضائه وقـــدره وحكمـــة مشيئته فليس شيئا يجب على ذاته بل هو الفعال لما يريد .

وإذا كان القول بالوجوب باطل فإن القول بالإيجاب أشد بطلاناً ، وأن القول بحرية الاختيار والفعل بالنسبة لذات الله تعالى لا يتحقق إلا إذا اعتقدنا بجواز إرسال الرسل وهو مذهب أهل السنة وهو القول الذي يلـــزم عليـــه اتصاف الخالق بكل كمال وتنزيهه عن النقص ، فصـــدور الأفعـــال عنـــه بالايجاب وهو تجريد الله عن الإرادة والاختيار .

مذهب السمنية [٣] يقول ابن القيم : ((وأحالت السمنية إرسال الرســل

---

(١) سورة القصص الآية : ٦٨ .　　(٢) سورة البروج الآية : ١٦ .

(٣) المسنية بضم السين وفتح الميم المنسوبة إلى سومنات وهم قوم من عبدة الأوثان قـــائلون بالتناسخ وأنه لا طريق للعلم سوى الحس [كشاف اصطلاحات الفنون للتـــهانوي م١ ط. كلكتة ١٨٦٢م] .

لتوقفه على علم المرسل بمن أرسله ولا طريق إليه إلا الخبر وأعلى أنواعه المتواتر وهو لا يفيد علماً فلعل القائل له أرسلناك إلى قوم كذا شيطان مثلا [١])) .

مذهب البراهمة : أما البراهمة [٢] فهم يقولون بأن إرسال الرسل عبث لا يليق بالحكيم لإغناء العقل عن الرسل ، لأن ما جاء به الرسل إن كان موافقاً للعقل حسناً عنده فهو يفعله وإن لم يأت به وإن كان مخالفاً له قبيحاً فإن احتاج إليه فعله وإلا تركه .

والجواب على هؤلاء : بأن الشرع يأتي بما يوافق العقل على الجملة لا على التفصيل ، أما التفصيل فيوضحه الشرع .

والأنبياء يؤدون إلينا ما هو مصلحة لنا في التكليف العقلي ولا يمكننا معرفة ذلك بالعقل ولا يمتنع أن يعلم الله أن في أفعال المكلف ما إذا فعله دعاه إلى فعل الواجب العقلي أو صرفه عن القبيح العقلي وأما إذا فعله دعاه إلى فعل القبيح أو الإخلال بالواجب ، فيجب أن يعلمنا ذلك لأن الأول لطف والثاني مفسدة ولا يمكن إعلام ذلك إلا ببعثة الرسل الذين يعلمون ذلك .

* * * *

---

(١) السفاريني - لوامع الأنوار البهية - ص٢٥٦ جـ ٢ .

(٢) البراهمة هم قوم من الهند يقولون أنهم من ولد برهمي ملك من ملوكهم قديم ، ولهم علامة ينفردون بها وهي خيوط ملونة بحمرة وصفرة يتقلدونها تقلد السيوف ، وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلا أنهم ينكرون النبوية .

المنكرون لبعثة الأنبياء

قدمنا فيما مضى بعض الفرق التي ترى أن بعثة الرسل أمر مستحيل أو هو عبث لا يليق بالحكيم أن يفعله وقد كان لهذه الآراء تأثيرها على بعض الأشخاص الذين دخلوا في الإسلام وهم يحملون أفكاراً من دياناتهم الموروثة والتي تذهب إلى القول بالتناسخ وينكرون النبوة ولا يرون أن هناك حاجة إلى الرسل .

وقد كان أبرز شخصيتين عرفهما التاريخ الإسلامي في إنكار النبوات هما : ابن الراوندي (١) وأبو بكر الرازي الطبيب وغيرهما من الشخصيات الأخرى أمثال : بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس الثنوين ، أما الأوليان فإنهما برزا في الجحود والإنكار وأثاروا الشبهات حول النبوة والأنبياء .

يقول د. إبراهيم مدكور عن هذا الملحد ابن الراوندي : " يظهر أنه أضحى دسيسة ضد المسلمين يدير لهم المكايد ويستأجر للطعن عليهم وينشر فيهم عناصر الزيغ والإلحاد ولم يخف أمره على بعض اليهود المخلصين الذين حذروا المسلمين منه وقالوا لهم ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا " (٢) .

وقد حاول ابن الراوندي أن ينسب هذه الآراء إلى البراهمة ولكن ذلك

---

(١) ابن الراوندي فهو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسن الراوندي من أصل يهودي دخل الإسلام وانضم إلى فرقة المعتزلة ثم انشق عليهم ، ألف كتاباً سماه (فضائح المعتزلة ليرد به على كتاب فضائل المعتزلة) كما ألف كتابا في الطعن على الإسلام وكتابه ورسوله ، منها الفرق في الطعن على رسول الله ﷺ ، والزمردة في إنكار الرسل [راجع : وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص٢٧] .

(٢) الفلسفة الإسلامية - منهج وتطبيق د. إبراهيم مدكور ص٨٠ .

لا يعفيه فإننا لم نرد له دفاعاً عن العقيدة بالقدر الذي يمجد فيه ذكر مثيري الشبهات .

يقول ابن الراوندي :

١ – إن البراهمة يقولون أنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه ، وأنه هو الذي يعرف به الرب ونعمه ، ومن أجله صح الأمر والنهي والترغيب والترهيب ، فإذا كان الرسول يأتي مؤكداً لما فيه من التحسين والتقبيح والإيجاب والحظر فسقط عنا النظر في حجته وإجابة دعوته والعقل كفانا عن الرسل . وإن كان بخلاف ما عليه العقل من التحسين والتقبيح والحظر والإيجاب فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته .

٢ – **الشبهة الثانية** : قالوا إن المعجزات غير مقبولة في جملتها ولا في تفاصيلها – ومن الجائز أن يكون رواتها هم شرذمة قليلة قد تواطؤا على الكذب فيها – فمن ذا يسلم أن الحصى يسبح وأن الذئب يتكلم – وبلاغة القرآن على تسليمها ليست بالأمر الخارق للعادة – فإنه لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب أفصح من القبائل كلها ويكون في هذه القبيلة أفصح من البقية ويكون في هذه الطائفة واحد أفصحها [1] .

٣ – **الشبهة الثالثة** : أن الشرائع التي جاءت بها الرسل مشتملة على أمور غير معقولة وأخرى شاقة مجهدة لا فائدة منها ، فيصور ابن الراوندي ذلك فيقول : " أن بعض تعاليم الدين مناف لمبادئ العقل كالصلاة والغسل والطواف ورمي الحجارة والسعي بين الصفا والمروة اللذين هما حجران لا

---

(١) د. إبراهيم مذكور – الفلسفة الإسلامية جـ١ ص٨٢ – ٨٣ .

ينفعان ولا يضران على أنهما لا يختلفان عن أبي قبيس وحراء في شئ فلم امتاز عن غيرهما وزيادة على هذا أليس الطواف بالكعبة كالطواف بغيرها من البيوت " [١] .

وقد زاد على هذه الشبهات الشخصية الثانية وهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي نسب إليه ابن الحزم في كتابه الفصل [٢] أنه من القائلين بتناسخ الأرواح، وقال عنه القاضي صاعد في طبقات الأمم أن الرازي كان يستحسن مذهب الثنوية في الإشراك وآراء البراهمة في إبطال النبوات واعتقاد عوام الصابئة في التناسخ [٣] .

يقول الدكتور/ إبراهيم مدكور أن الرازي في كتابه { نقض الأديان } يصرح (بأن الأنبياء لا حق لهم في أن يدعوا لأنفسهم ميزة خاصة عقلية كانت أو روحية لأن الناس كلهم سواسية وعدل الله وحكمته تقضي بألا يمتاز واحد على الآخر .

كما أنه بالإضافة إلى ما قاله ابن الراوندي في إنكار المعجزات ذهب إلى القول بأنها ضرب من الأقاصيص الدينية، أو اللباقة والمهارة التي يراد بها التغرير والتضليل ، والتعاليم الدينية متناقضة يهدم بعضها بعضاً ولا تتفق مع المبدأ القائل أن هناك حقيقة ثابتة ذلك لأن كل نبي يلغي رسالة سابقة وينادي بأن ما جاء به الحق ولا حق سواه [٤] .

٣- يقول الرازي: أن النفس الشريرة تتحول إلى شيطان ثم يظهر الشيطان

---

(١) د. إبراهيم مدكور – الفلسفة الإسلامية – ص٩٩ .

(٢) ابن حزم الأندلسي – الفصل في الملل والنحل جـ١ ص٧٧ .

(٣) أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي – طبقات الأمم .

(٤) د. إبراهيم مدكور في الفلسفة الإسلامية جـ١ ص٨٧ .

في صورة الملائكة ويقابل هذا الملك الذي هو في الأصل شيطان بعض الناس فيوحي إليهم بادعاء النبوة والرسالة ، ويصدق البعض تمويه الشيطان عليهم فيدعون أنهم أنبياء ورسل [١] .

هذه جملة آراء لمنكرين النبوة ومثيري الشبهات وهم بهذا يريدون أن يهدموا فكرة التوحيد وتنتشر الزندقة والإلحاد في ربوع العالم ، ولنا أن نجيب على هذه الشبهات حتى يتضح الحق الصحيح من الباطل، أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

الجواب على الشبهات :

أولاً : أن القول بأن العقل يكفي عن الأنبياء والرسل ، فإن الواقع يكذب ذلك فالمجتمعات قديمها وحديثها لم تستطع الوصول إلى ما يحقق السعادة للبشر وإلا فلم التطاحن والتنازع بين الناس ، إن العقل لو كان كاف ما وجد عابد لحجر ولا ساجد لوثن ولا منكر لوجود خالق ، وما عبدت النصارى أقانيم ثلاثة ولا اتخذ اليهود عزيرا ابن الله .

والله لا يكلف عباده فوق ما يطيقون بل جاءت التكاليف موافقة للعقل البشري ، فما أدركه العقل أكده الرسول وما لم يدركه يوضحه الرسول ليأخذ بيده إلى طريق الصواب فضلاً عن أن الأنبياء لا يبعثون إلا إلى قوم أخلوا أنفسهم عن الصواب وترددوا في طريق الهاوية – فكما لا تذهب إلى الطبيب وأنت صحيح ، فكذلك النبي لا يأتي إلا لقوم مرضى ليصحح لهم أعوجاج نفوسهم .

---

(١) رسائل فلسفية . الرازي (ابو محمد بن زكريا الرازي) جمعها وصححها كراوس مصر ١٩٣٩م جـ١ ص١٧٨ .

ثانياً : أما عن القول بأن المعجزات غير مقبولة لأنه من الجـــائز أن يكون قد رآها الشيطان كما قال ابن الراوندي والرازي فيما بعد .

فالجواب عن هذا : بأن المعجزات من الأمور التي تدل علـــى صـــدق مدعي النبوة في دعواه وأن الشيطان ليس له سبيل على المؤمنين فضلاً عن أن يكونوا أنبياء كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ (١) وقد جرت عادة الله أن لا يؤيد الكاذب في دعواه كما حاول مسيلمة الكـذاب فتفل عين مريضة فعميت السليمة .

أما عن إعجاز القرآن ؛ فقد تحدى به الإنس والجن على أن يأتوا بمثله فعجزوا وما زال التحدي قائماً وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . قـال تعالى: ﴿ **قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ (٢) .

ثم أن النبي نفسه نسب القرآن إلى أنه منزل من عند الله والناس عـادة ما ينسبون أفعال غيرهم إلى أنفسهم ، فدل ذلك على أنه بلفظه ومعناه مـــن عند الله تعالى: ﴿ **قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ (٣) .

أما قوله من الجائز أن يكون رواة المعجزة شرذمة قليلة تواطأت على الكذب ثم يقول من يسلم تسليم الحصى وتكليم الذئب .

فإن معجزة كل نبي شاهدها من عاصروه وعاينوه ثم نقلت إلينا عـــن طريق التواتر من جمع لا يؤمن تواطؤهم على الكذب والتواتر أحد اليقينات وإلا فلا شئ في الكون يقين وقد ثبت أن كل ما جاء به الأنبياء حق .

---

(١) سورة الحجر: ٤٢ . (٢) سورة الإسراء : ٨٨ . (٣) سورة يونس : ١٦ .

ثالثاً : أما عما أثير حول التكاليف من العبادات بأنه قد تكــون غــير مقبولة أو هي شاقة لا فائدة منها .

فالجواب عن هذا : لا يدرك ثمرة العبادة إلا من كان قلبــه مطمئــن بالإيمان أما القلب الخالي من الإيمان فإنه لا يرى فيها ثمرة مرجوة لـــه ، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ** ﴾ (١) .

فإن العبادات من الأمور التي كلفنا الله بها وليتعبدنا بها لتكون اختبـاراً للمؤمنين الصادقين من غيرهم وليميز الله الخبيث من الطيب ، فالإنسـان لا يقحم عقله القاصر في إدراك مما استأثر الله به ، وقد قال تعالى: ﴿ **يَاأَيُّـهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ** ﴾ (٢) .

وقد كان الصحابة على علم وإدراك تام بالوحي ولم يخوضوا إلا فيمـا تدركه عقولهم ((ولو أنفق أحدنا مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحد ولا نصيفه)).

رابعاً : أن قول الرازي أن الأنبياء لا حق لهم في مـــيزة عقليـــة أو روحية .

إن ذلك تحكم لم يقل به أحد لا من المتكلمين ولا من الفلاسفة إن البشر العاديين يميز بعضهم عن بعض بالذكاء والجسم ولولا ذلك ما كان هنـــاك قائد وجندي وعالم وجاهل وعامل ومدير وقاض ومجـــرم ، والله ســبحانه وتعالى له مطلق الحرية في أن يصطفي من عباده من يشاء . قال تعـالى : ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنْ النَّاسِ** ﴾ (٢) ، ويميز الله بعـــض العباد كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُــونُ**

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٤٣ . (٢) سورة الحج الآية : ٧٥ .

لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

فهل ينكر الرازي الطبيب أنه يدرك في طبه ما قصرت عنه عقول أناس آخرين . يقول الباقلاني صاحب كتاب التمهيد : يقال لهم لم قلتم أن تفضيل الله سبحانه بعض الجنس على بعض ورفع بعضهم على بعض إذا كان محاباه للمفضل وجب أن يكون ظلما وخروجا عن الحكمة ، وما أنكرتم أن يكون لله تعالى أن يخص بتفضيله وإكرامه من يشاء من غير خلقه، وله التسوية بين سائرهم وأن ذلك أجمع عدل منه وصواب من تدبيره فإن قالوا لأن تفضيل أحد المتجانسين على الآخر في الشاهد سفه منا فوجب القضاء بذلك على القديم .

قيل لهم ولم قلتم إن ذلك سفه منا . وما أنكرتم أنه جائز لنا صواب في حكمتنا أن نحبو بعض عبيدنا وأصدقائنا والمتصرفين معنا كتصرف غيره بأكثر مما نحبو به غيره ونفضله بعطاء وتشريف لا يستحقه أكثر مما نحبو به غيره ، فلم قلتم إن ذلك سفه وقبيح من فعلنا ؟ (٢)

وما يقول به الرازي بأن « هذا يعد ظلماً وجوراً » إن هذا اعتراض على فعل الله وتدخل في إرادته وهذا كفر صريح ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣) .

وأخيراً نقول : إن من ينكر النبوات جاحد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة فإن مثل منكري النبوات في الجحود والنكران والعناد كمثل

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٤٧ . (٣) سورة آل عمران : ٨٥ .

(٢) الباقلاني (القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني) التمهيد ص١٠٤ .

منكري الشمس وسط النهار، فإذا كان لا يضير الشمس جحود أعمى البصيرة لها ولهم فضوء الشمس يشق ظلام الليل فيبدوه ونور النبوات يشق ظلام الضلال فيبعثره ، وحقاً ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) .

النبوة هبة أم اكتساب

جمهور المسلمين ذهبوا إلى القول بأن النبوة تفضل وهبة من الله يؤتيها لمن يشاء من عباده، فلا يبلغها أحد بعلمه ولا يكتسبها كاسب بكسبه مهما أوتي من قوة الفهم وجودة الذهن وقوة الذاكرة ، ومهما تعهد نفسه بالتأملات العقلية وتخلق بالسجايا الطيبة والأخلاق الحميدة .

يقول السفاريني : ((ومن اعتقد أنها مكتسبة فهو زنديق يجب قتله لأنه يقتضي اعتقاده أنها لا تنقطع وهو مخالف للنص القرآني والأحاديث المتواترة بأن نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين)) (٢) .

فاعتقاد جمهور المسلمين أنها فضل من الله يمن بها على من يشاء .

يصور الشهرستاني مذهب أهل السنة فيقول : ((إن النبوة ليست صفة راجعة إلى النبي ولا درجة يبلغ إليها أحد بعلمه وكسبه ولا استعداد يستحق به اتصالا بالروحانيات بل رحمة يمن الله بها على من يشاء من عباده))(٣).

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٤)، فدل على أنها اصطفاه واجتباه من الله سبحانه .

---

(١) سورة الحج الآية : ٤٦ .

(٢) السفاريني - لوامع الأنوار البهية جـ٢ ص٢٦٨ .

(٣) نهاية الأقدام للشهرستاني ص٤٦٢ .

(٤) سورة الحج الآية : ٧٥ .

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) ففي كل هذه منسوبة إلى الله ليس للعبد فيها أي كسب .

يقول الشهرستاني في هذا الصدد ، فكما يصطفيهم من الخلق قولا بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر وطيب الأخلاق وكرم الأعراق فيرفعهم مرتبة حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الإلهية بعث إليهم ملكا وأنزل عليهم كتابا (٢) .

ويقول صاحب كتاب جوهرة التوحيد : " وانعقد إجماع المسلمين على أنها لم تكن مكتسبة ولو رقى في الخير أعلى عقبه - أي أشق الطاعات - بل ذاك فضل من الله يؤتيه لمن يشاء جل الله واهب المنن " (٣) .

مذهب الفلاسفة :

خالف الفلاسفة ما عليه جمهور المسلمين بأن الرسالة والنبوة لا تنال بالكسب، فذهبوا إلى القول بأنها مكتسبة يصل إليها الإنسان إذا لازم الخلوة والعبادة وداوم المراقبة وتناول الحلال وأخلى نفسه من العلائق المادية وظهر باطنه وظاهره من كل دنس ، فإذا فعل هذا انصقلت مرآة باطنه وفتحت بصيرته وأصبح متهيأ لتلقي الوحي، ذلك لأن النبوة عندهم هي عبارة عن اجتماع ثلاث خواص إذا ما وجدت في شخص استحق التشريف بأن يكون نبيا ؛ وهذه الخواص هي :

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٢٤ .

(٢) الشهرستاني : نهاية الأقدام ص ٤٦٣ .

(٣) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام بن إبراهيم اللقاني المالكي ص١٨٥ ط. السعادة بمصر .

أولاً : الإطلاع على المغيبات لأن النبي لصفاء نفسه وقوة روحه تكون لديه القدرة على الاتصال بالعقل الفعال أو الملائكة التي هي عندهم نفوس مجردة في ذاتها متعلقة بأجرام الأفلاك وتسمى ملائكة سماوية أو عقولا مجردة ذاتاً وفعلا، وتسمي بالملأ الأعلى ولا كلام لهم يسمع لأنه من خواص الأجسام إذ الحروف والصوت عندهم من الأمور العارضة للهواء المتموج ، فلا يتصور كلام حقيقي للمجردات [١] .

فالنبي بما صفا نفسه عن الشواغل المادية يستطيع الاتصال بالملأ الأعلى ويتطلع على الغيبات .

ثانياً : ظهور الخوارق على يديه بحيث تطيعه الهيولي [٢] العنصرية القابلة للصور المفارقة للبدن .

فتحدث بعد ذلك الخوارق المعجزة للعادة كتفجير الماء من الحجر وخلق الزلازل المدمرة ، وإحياء الموتى ، فالنفس ليست متأثرة بالجسد حتى يشغلها عن التدبير والتأثير في الأجسام .

ثالثاً : مشاهدة الملائكة وذلك عن طريق قوة مخيلة النبي ، فيتخيل الملائكة في صورة أشخاص ويسمع منهم كلاماً ؛ أي وحياً يبلغونه للناس .

هذه جملة ما يراه الفلاسفة في الوصول إلى درجة النبي وأنت خبير بما يلزم على ذلك من مفاسد .

أولها: مخالفتها لصريح النصوص الدينية الناطقة بأن الرسالة اصطفاء من الله تعالى، فقال : **﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾** [٣]، وقوله تعالى: **﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾** [٤] .

---

(١) عضد الدين الأيجي ـ المواقف ص٢٢١ .

(٢) الهيولي عند الفلاسفة هي المادة .

(٣) سورة الحج الآية : ٧٥ .

(٤) سورة الأنعام الآية : ١٢٤.

روى مسلم والنسائي عن وائلة بن الأسقع ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((**إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم**)) رواه الترمذي ، ولفظه : ((**أن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم**)) .

فهذه النصوص تدل على أن النبوة اصطفاه ولا داعي للجنوح ناحية إخراج اللفظ من معناه حيث صريح اللفظ دال على الحقيقة .

يقول التفتازاني مبيناً فساد القول باكتساب النبوة أن ذلك كله مخالف لما جاء به الدين وعلم منه بالضرورة، والواقع أن رأيهم هذا مبني على القول بتجرد النفس الإنسانية وهو قول لم يستطيعوا إثباته بدليل يسلم من النقد [١] .

ثانياً : أن قولهم يلزم عليه فتح باب النبوة وأنها لم تختم بسيدنا محمد ﷺ وقد جر فولهم على المسلمين بلاء عظيما ألاترى إلى أدعياء النبوة مثل البابية والبهائية والقاديانية وغيرها من ادعاءات تظهر بين الحين والآخر وما من واحدة إلا وتعتمد على مسلك الفلاسفة في أن الرياضة والاجتهاد والخلوة طريق إلى اكتساب النبوة ، وقد دل القرآن على أن النبوة قد ختمت بسيدنا محمد ﷺ وما بعد كلام الله تعالى قول ، قال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [٢] .

وقوله عليه الصلاة والسلام : ((**إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم عليه**

---

(١) سعد الدين التفتازاني جـ٢ ص١٣٤ - ١٣٥ . (٢) سورة الأحزاب الآية : ٤٠ .

السلام لمنجدل في طينته)) رواه الإمام أحمد في مسنده بحديث العرباض ابن سارية السلمي ﷺ .

ثالثاً : أنهم يجعلون النبوة مبنية على أمور متخيلة إذ النبي عندهم أو الرسول يتخيل أشخاصاً يخاطبونه ويسمى ذلك وحياً .

إذ كيف تبنى شرائع على أمور متخيلة ؟

كما أنه لا يكون هناك بين الرسول وبين كاتب يتخيل قصة من خياله ثمة فرق فتنهدم الشرائع وليس للوحي فائدة تذكر .

إن هذا الذي يقول به الفلاسفة عبارة عن تلفيق من خيالهم المريض مبني على فكرة العقول العشرة والنفوس الفلكية والتي لا وجود لها إلا في مخيلتهم اقتبسوها من الفكر اليوناني ، من غير اعتماد على دليل أو سند يقوي ادعاءاتهم الباطلة .

رابعاً : أنهم يرون أن كلام الله يفيض على نفس النبي من غير أن يعلموا أن حصرهم كلام الله في الإفاضة على نفس النبي تحكم منهم فإن لله كلاماً خارج نفس النبي ، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى ، كما أنه لا فرق عندهم في الفيض بين نفس النبي وغيره من بقية النفوس إلا من جهة كونها أصفى وأكمل .

يقول ابن تيمية: وهؤلاء عندهم النبوة مكتسبة وكان جماعة من زنادقة الإسلام يطلبون أن يصيروا أنبياء [1] .

ونزيد على ما قاله ابن تيمية أنهم يجعلون الفيلسوف أفضل من النبي لأن الأول يبني فكره على التأمل العقلي ، أما النبي فإنه يبني قوله على

(١) السفاريني : لوامع الأنوار البهية جـ٢ ص٢٦٨ .

الخيال .. نعوذ بالله من افتراءاتهم الكاذبة وتطاولـهم علـى مقـام النبـوة وتدخلهم في حكم الله تعالى القائل : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ .. ﴾ (١) .

شروط النبوة

اشترط العلماء في الذي شرفه الله بالنبوة شروطاً :

أولها : البشرية : فجمهور علماء المسلمين على أنه ليس هناك نبـي ولا رسول إلا من البشر ، وقد خالف في هذا بعض العلماء على رأسـهم الضحاك فقالوا : يجوز أن يكون نبياً من غير البشر كأن يكون من الجـن واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا .. ﴾ (٢) .

وقد أجاب القائلون بقصرها على البشر أن المراد بهذه الآية في قولـه (منكم) أي من جملتكم وليس المراد من كل منكم ، وقد صرفوا اللفظ عن ظاهره وهو الحق .

وقد استدل الجمهور على رأيهم قصر النبوة على الإنس بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى.. ﴾ (٣) .

وعن الحسن البصري قال : لم يبعث الله نبياً من أهل البادية ولا مـن الجن ولا من النساء . ذكره عنه طائفة منهم البغوي وابن الجوزي (٤) .

---

(١) سورة الأنعام الآيتان : ٨٩ ، ٩٠ .
(٢) سورة الأنعام الآية : ١٣٠ .
(٣) سورة يوسف الآية : ١٠٩ .
(٤) ابن تيمية – النبوات ص٣٩٦ .

كما استدلوا أيضاً بقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ (١) .

وقد وردت النصوص بأنهم قد أرسل إليهم الأنبياء من الإنس وأنهم تابعون لهم ومطالبون بما يناسبهم من شريعة الإنس .

وأن سيدنا محمد ﷺ قد أرسل إلى الثقلين وقد آمن به من آمن من جن نصيبين لما سمعوا القرآن وولوا إلى قومهم منذرين ثم آتوه وبايعوه على الإسلام بشعب معروف بمكة بين الأبطح وبين جبل حراءوسألوه الطعام ولدوابهم فقال : ((لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحماً وكل بعره علف لدوابكم)) (٢) .

وقد سجل القرآن هذه الواقعة فقال تعالى: ﴿ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣) .

وغيره مما ورد وقرأ عليهم فسورة الرحمن خطاب للثقلين جميعاً .

كما ورد بأن كفارهم يدخلون النار ومطيعهم يدخل الجنة ، فتكاليف الإنس وتشريعاتهم منسحبة عليهم .

قال تعالى ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ

---

(١) سورة مريم الآية : ٥٨ . (٢) ابن تيمية – النبوات ص٣٩٦ .

(٣) سورة الأحقاف الآيات : ٢٩ – ٣١ .

فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [١] .

هذا ؛ وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون المبعوثون من البشر ليحصل الاستئناس به وتكون الصلة التي تربط بين المرسل والمرسل إليه ، ولذا فقد جاء القرآن بقوله : **﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾** [٢] .

وقوله تعالى: **﴿ قُل لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً ﴾** [٣] .

إذن فلا مناص من أن يكون الرسول من البشر حتى يتم الإفهام والتلقي ويمكن الاقتداء والتأسي .

ثانيا ـ الذكورة : أجمع جمهور المسلمون وانعقد إجماعهم على أن الذكورة شرط من شروط النبوة، ولا تتصف بها أنثى ولا يوجد دليل على أن أنثى أتتها الرسالة أو النبوة ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ .. ﴾** [٤] فأثبت الرسالة للرجال الموحي إليهم وأشعرت بنفي ذلك عن غيرهم فلا تكون أنثى نبية .

وذلك لأمور منها :

١) أن الرسل يتعرضون للشدائد والأزمات التي لا يقوى على تحملها إلا الرجال الأقوياء الأصفياء من خلقه .
٢) كما أن المرأة لا ينقاد لزعامتها الرجال بسهولة .
٣) الدعوة تقتضي الانتقال من مكان إلى مكان وهذا فيه صعوبة على المرأة .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٣٨ . (٢) سورة الأنعام الآية : ٩ .
(٣) سورة الإسراء الآية : ٩٥ . (٤) سورة الأنبياء الآية : ٧ .

٤) أن المرأة تكون تحت رجل فيمنعها من القيام بواجب الدعوة .

وجمهور العلماء على أن النبوة كالرسالة مقصورة على الرجال دون النساء .

هذا ؛ وقد خالف في اشتراط الذكورة أبو الحسن الأشعري والقرطبي وابن حزم ، وحكى العلامة ابن الملقن في شرحه على عمدة الأحكام خلافا في نبوة مريم وآسية وسارة وهاجر وأم موسى [١] عليه السلام .

وستدلوا هؤلاء أن كل من جاءه الملك من الله تعالى بحكم أمر أو نهي أو بإعلامه شيئاً فهو نبي ، وقد ثبت وقوع ذلك بل قد ورد التصريح بالإيحاء لبعضهن ، فقد قال تعالى في حق مريم : ﴿ **فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** ﴾ [٢] .

وفي شأن أم موسى : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ** ﴾ [٣] .

وفي شأن آسية استدلوا بحديث كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران .

وقالوا إن حصر الكمال فيهما يدل على نبوتها لأن أكمل النوع الأنبياء ثم الأولياء فمن دونهم [٤] .

ويقول القرطبي : الصحيح أن مريم نبية ، لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك ، أما آسية فلم يأت ما يدل على ذلك .

ويوافقه على ذلك ابن حزم فيقول: إن مريم نبية وآسية نبية وأم موسى نبية.

---

(١) واسمها يوخابذ بنت لاوي بن يعقوب – السفاريني : الأنوار البهية جـ٢ ص٢١١ .

(٢) سورة مريم الآية : ١٧ .

(٣) سورة القصص الآية : ٧ .

(٤) في العقيدة الإسلامية د. علي معبد ، د. صفوت مبارك ص١١ .

ويبدو أن القرطبي لم يفهم من الحديث السابق إلا نبوة مريم ، ولعل ما ذكرته في عدم فهم القرطبي من الحديث إلا نبوة مريم مع أن الحديث قرنهما في الخصوصية دون التفرقة بينهما .

أما ابن حزم فانه يوسع الدائرة فتشمل آسية وأم موسى واستدل على أن النبوة قد تكون في أنثى بقوله تعالى :

١- ﴿ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (١).

٢- ذكر الله اصطفاء آل عمران التي هي من ذريته مريم في قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

٣- كما خصها الله بسورة كما خصص لغيرها من الأنبياء فسميت باسمها وهي سورة مريم كما لإبراهيم ويوسف ويونس وهود ومحمد ، فقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ (٣) .

ولم يكتف ابن حزم باستدلاله هذا ، بل أخذ يوجه قوله تعالى: ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ (٤) إلى رأيه ، فقال : إن ذلك لا يمنع من نبوتها فقد وصف الله

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٤٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ٣٣ .
(٣) سورة مريم الآيات : ١٦ - ٢١ .
(٤) سورة المائدة الآية : ٧٥ .

كثيراً من الأنبياء بأنهم صديقون .

أما آسية فإنه يقول في نبوتها أنها جاءت مقرونة مع مريم في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [١] .

والجواب على ذلك :

الذي نختاره هو رأي جمهور العلماء باقتصار النبوة على الرجال دون النساء، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ [٢]

أن الدعوة من لوازمها الاشتهار والاتصال بالناس ليلاً ونهاراً والنساء مأمورات بالتستر وهو ينافي الاشتهار، وقد قال الله تعالى آمراً النساء : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [٣] .

كما أن الأنبياء يقع عليهم الأذى والاضطهاد في سبيل الدعوة ، فقد ينكشف من أجسادهم ما هو عورة في حق المرأة وليس كذلك في حق الرجل فتعتري الدعوة عدم المهابة .

أن المرأة طبيعتها ضعيفة لما تعانيه المرأة من أضعاف صحتها أثناء الحيض والنفاس وفترة الولادة والرضاعة وغير ذلك من وظائفها الأنوثية ، فلا تقوى على تحمل أعباء الرسالة والوحي فضلاً عن انقطاع الوحي طوال هذه المدة .

---

(١) سورة التحريم الأيتان : ١١ ، ١٢ .　　(٢) سورة الأنبياء الأية : ٧

(٣) سورة الأحزاب الأية : ٣٣ .

وقد قال النبي ﷺ: ((**اتقوا الله في الضعيفين المرأة واليتيم**)) ، وقوله عليه الصلاة والسلام لحاوي الإبل : ((**يا أنجشة رفقاً بالقوارير**)) . كل ذلك يدلنا على أن النبوة لا تكون إلا للرجال دون النساء .

وأما ما جاء من آيات في حق مريم فيحتمل أن جبريل أرسل إليها ليبين لها أن حملها إنما هو بأمر الله تعالى الذي يقول للشئ كن فيكون .

كما أن السورة متضمنة أكثر لبيان حقيقة عيسى وأنه ولد من غير أب ليكون دليلاً على أن الله لا يعجزه شئ ، ورداً على مزاعم اليهود المادية التي ترى استحالة وجود سبب بدون مسبب فكان عيسى بدون علة، ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ [١] .

كما أن السورة تضمنت ذكر أسماء كثيرين من الأنبياء كإسماعيل وإدريس وإبراهيم وموسى وهارون .

وكذلك الحال مع أم موسى فإن جبريل لم يرسل إليها عن طريق النبوة وإنما ليطمأنها على مصير إبنها .

ويحتمل أن يكون الوحي إليهما عن طريق الإلهام كما أوحي الله إلى النحل فيكون وحيه إلى أم موسى بأن قذف في قلبها عزيمة قوية بأن تلقيه في أليم .

وأن غاية ما انتهى إليه أمر مريم بأنها صديقة وهذه مرتبة دون النبوة ولو كانت واحدة منهن نبيه لنص الله عليها صراحة ، لأن هذا ليس من الأمور التي تحتمل معنى آخر مجازي لما يترتب على النبوة من عظيم الشأن . وإذا انتفت النبوة عن مريم مع تكليم الملك لها انتفت عن غيرها .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٥٩ .

وأما الحديث المذكور ((**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية إمرأة فرعون**)) . فيجاب عنه بأن الكمال ليس دليلاً على منحها النبوة، فالكمال للرجال بالنبوة وللنساء بكونهن صديقات فكل بحسبه .

وأخيراً نقول : أنه لم ينقل إلينا بطريق التواتر إن نساء نبيات ، ولم يذكر الرسول واحدة منهن نبية .

الشرط الثالث : الحرية : فمن شروط النبي أن يكون حراً، لأن الرق وصف لا يليق بمقام النبوة ، والنبي يكون داعياً للناس آناء الليل وأطراف النهار والرقيق لا يتيسر له ذلك .

كما أن الرقيق خاضع في كل أموره لسيده وهذا يحول بينه وبين القيام بأعباء الرسالة ، والعبد به صفة نقص ولا ولاية لعبد على نفسه ، فمن باب أولى لا تكون له ولاية على غيره من الناس ، والناس يستنكفون من إتباع العبد والأنبياء يبعثون في أنساب أقوامهم . كما نطق هيرقل رداً على إجابة أبي سفيان عندما سأله عن نسب النبي محمد ﷺ فيهم قال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب ، فقال هيرقل هكذا الأنبياء تبعث من أنساب قومها [١] .

الشرط الرابع : القوة : يشترط فيمن أكرمه الله بالنبوة أن يكون قوياً قادراً على تحمل أعباء الرسالة ، قال تعالى على لسان بنت شعيب ﴿ **يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾ [٢] .

كما أنه يلزم في شأن الرسول أن يكون مستقيما الخلق، والخلق سليما من الأمراض المنفرة ذا عقل صحيح وفهم راجح وعلم بالأمور الدينية، كما

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – جـ ٢ ص٨١ .

(٢) سورة القصص الآية : ٢٦ .

أن الأنبياء منزهون عن جميع الرذائل من البخل والجبن واللـــهو واللغـــو وسائر الأخلاق الذميمة .

والأنبياء مبرءون من لوم النسب وشره القلب وحرص النفـس علـى الدنيا ، كما أنهم مبرءؤن عن الإتباع كدناءة الآباء وعهر الأمهات .

ومن المنفرات المخلة بالمروءة كالأكل على الطريق والحرف الدنيئـة كالحجامة [١] وشرط من أكرم بالنبوة حرية ذكوره قوة .

الشرط الخامس : البلوغ : اختلف العلماء في اشتراط البلوغ في النبي .

فذهب فريق على رأسهم الفخر الرازي بجواز أن يكون النبي صبيـاً واستدلوا بقوله تعالى في حق يحيى عليه السلام: ﴿ **يَايَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾ [٢] .

وبكلام عيسى في المهد قال تعالى: ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَـابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** ﴾ [٣] .

فهاتان الآيتان تدلان على أن يحيى وعيسى قـد أتاهمـا النبـوة دون البلوغ .

الفريق الثاني : فيرى أن بعثة الأنبياء لا تكون قبل البلوغ ولـم تقـع وإن كانت ممكنة . وستدلوا بقوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَـاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [٤] .

وقد أجابوا على استدلال الفريق الأول في اسـتدلالهم علـى الآيتيـن الواردتين في حق يحيى وعيسى عليهما السلام فقالوا :

---

(١) سعد الدين التفتازاني : المقاصد جـ٢ ص١٤٦ .
(٢) سورة مريم الآية : ١٢ .
(٣) سورة مريم الآية : ٣٠ .
(٤) سورة القصص الآية : ١٤.

بأن الآيتين إخبار عما سيحدث في المستقبل ، وقد استعمل الماضي للدلالة على المستقبل في آيات القرآن الكريم تأكيداً على وقوع الحدث فقال تعالى في حق أهل الجنة : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [١]، وفي حق أهل النار: ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ .. ﴾ [٢] .

وهذا إنما يكون يوم القيامة وقد عبر عنه في الماضي .

وكما في قوله تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [٣] والمعنى سيأتي فاستعمل الماضي مكان المضارع .

كذلك إرسال يحيى وعيسى فإنهما يدلان على المستقبل بعد البلوغ .

وما نراه أن ما أوتيه يحيى وعيسى قبل البلوغ إنما كانا إرهاصا للنبوة، لأن الرسالة أمر شاق ويحتاج إلى قدرة جسيمة وذهنية لا تتحقق إلا في البالغ الرشيد [٤]، كما أنه لا يعقل أن يكون عيسى وهو في المهد قد أوتي النبوة وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

والنبوة بمعنى الوحي المتضمن للتعاليم الإلهي فإنه لا يكون إلا بعد البلوغ .

* * * *

---

(١) سورة الصافات الآيتان : ٥٠ ، ٥١ . (٢) سورة [ق] الآية : ٢٧ .

(٣) سورة النحل الآية : ١ .

(٤) في العقيدة الإسلامية - الإلهيات والنبوات د. شوقي إبراهيم علي عبد الله ص١٥٨ .

التفاضل بين الأنبياء

إن الإيمان برسل الله – عليهم السلام – ركن من أركان الإيمان بدون تفرقة بينهم فكلهم مبلغون عن الله دعوة التوحيد الخالصة المبرءة من الشرك ولا ذنب لنبي فيما اقترفه من التحريف والتبديل والمغالاة أو فيما ابتدعوه من الإطراء حتى ادعوا ألوهيتهم كما زعمت النصارى في عيسى عليه السلام أو ذمه والصاق التهم الباطلةكما تدعي اليهودية على أنبياء الله ، لكن الإسلام وهو دين الله الخاتم بين الحقيقة ووضع الأمور في موضعها الصحيح فلا قبح ولا مغالاة ولا إطراء وأن من أنكر الأنبياء فقد كفر . قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (١) .

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً . أُولَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقًّا .. ﴾ (٢) .

وإذا كنا نؤمن بالرسل كلهم بدون تفريق فإننا نؤمن بأن بعضاً منهم قد تحملوا المصائب والنوائب أكثر من غيرهم، ولذلك فضلوا عن غيرهم لما يتناسب من عظم ما بذلوه وضحوا في سبيله ووقوفهم في وجه الطغاة والباغين ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأفضلية فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. ﴾ (٣) .

وأن منهم أولو العزم وهم أفضل من غيرهم ، وجمهور العلماء على أنهم خمسة : محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح – عليهم السلام .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٨٥ .
(٢) سورة النساء الآية : ١٥٠ ، ١٥١ .
(٣) سورة البقرة الآية : ٢٥٣ .

وهؤلاء هم الذين اجتهدوا في تأسيس الشرائع وتقريرها وصبروا على تحمل المشاق ومعاداة الطاغين ، ولذا سموا بأولي العزم لأنهم ذو عزيمة قوية ، وقيل : سموا بأولي العزم لصبرهم على البلاء من الله تعالى ، فنوح كان يضرب حتى يغشى عليه ، وإبراهيم صبر على النار وذبح ولده ، وبقيتهم صبروا على الاضطهاد والعذاب والعنت فما وهنوا لما اصابهم وما ضعفوا وما استكانوا . وقيل : إن كل الأنبياء أولو عزم وأن من في قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ ﴾ لبيان الجنس وليست للتبعيض فإن كل نبي كان ذو عزم وحزم ورأي وكمال عقل [١] .

وقيل : إن كل الأنبياء ذو عزم إلايونس فإنه قيل للنبي ﷺ ﴿ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ [٢] لعجلة كانت منه .

والحق أن ما يرد على يونس من شبهة توهم القدح في عصمته فإنه لا ينبغي لمؤمن أياً كان كلام بعد قول الله فيه ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ [٣]، وما حدث منه كان قبل الاجتباء وهي بعثته إلى قومه .

والحق الذي نراه أن الرسل بعضهم أفضل من بعض وأن أفضلهم جميعاً هو سيدنا محمد ﷺ وذلك لعلو منزلته التي أعطاها الله له في الدنيا والآخرة .

* * * *

---

(١) راجع السفاريني في لوامع الأنوار البهية جـ٢ ص٢٩٩، والآية ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٢) سورة القلم الآية : ٤٨ .

(٣) سورة القلم الآية : ٥٠ .

فضل سيدنا محمد على غيره من الأنبياء :

أن الآثار قد تواترت بفضله ﷺ على سائر الأنبياء :

ففي صحيح مسلم ما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ((**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع**)) .

وروى الترمذي من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ ((**أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذ أتبوأ لواء الحمد بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر**)) .

قال ابن الأنباري : أراد لا أتبجح بهذه الأوصاف لكن أقولها شكراً ومنبها على أنعام ربي عليَّ .

وقد ذكر الحافظ ابن الجوزي في الوفاء ، مبينا فضل النبي على سائر الأنبياء أن الله سبحانه أقسم بحياته وفي شرعه إنما تنعقد الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته وكلامه لا بدون ذلك ، ولكن تعظيما لمقام سيدنا محمد ﷺ أقسم بحياته فقال تعالى : ﴿ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [١]، وإنما يقع القسم بالمعظم وبالمحبوب [٢] .

وقال ابن عقيل أن قوله لمحمد ﷺ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾ [٣] أعظم من قوله لموسى ﴿ **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** ﴾ [٤] .

وذلك لأنه جعل اللام التي هي للملك أو للاختصاص واسطة بينه وبين موسى ولم يجعل بينه وبين محمد ﷺ واسطة .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٧٢ .

(٢) السفاريني : لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص٢٩٨ .

(٣) سورة الفتح الآية : ١٠ . (٤) سورة طه الآية : ٤١ .

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ .
المعنى : أقسم بك لا بالبلد ، فإن أقسمت بالبلد فلأنك فيه .

قال ابن عقيل : ياموسى اخلع نعليك ولا تجئ إلا ماشياً ، وقال يامحمد اركب البراق ولا تجئ إلا راكباً .

وقد أشار القاضي عياض في كتابه الشفاء إلى أفضلية الرسول ﷺ على سائر الرسل الكرام وبيان فضله وشرفه عليهم ، أن الله خاطب كل الأنبيـاء بأسمائهم فقال في شأن آدم : ﴿ يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُـكَ الْجَنَّـةَ ﴾ (١) ، وقال: ﴿ يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ (٢)، وقال: ﴿ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَـالاتِي ﴾ (٣)، ﴿ يَـادَاوُودُ إِنَّـا جَعَلْنَـاكَ خَلِيفَـةً ﴾ (٤)، ﴿ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ (٥)، ﴿ يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ (٦)، ﴿ يَايَحْيَى خُـذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ (٧) .

ودعا نبينا محمد ﷺ بالتعظيم والتفخيم بوصف النبوة والراسلة إظهاراً لعظيم قدره وعلو منزلته . فقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَـاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٨) ، وقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْـكَ مِـنْ رَبِّكَ ﴾ (٩) . ولما ذكر اسمه قرنه بالرسالة فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (١٠) ، وقال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِيـنَ مَعَـهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١١) .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٣٥ .
(٢) سورة هود الآية : ٧٦ .
(٣) سورة الأعراف الآية : ١٤٤ .
(٤) سورة [ص] الآية : ٢٦ .
(٥) سورة المائدة الآية : ١١٠ .
(٦) سورة مريم الآية : ٧
(٧) سورة مريم الآية : ١٢ .
(٨) سورة الأحزاب الآية : ٤٥ .
(٩) سورة المائدة الآية : ٦٧ .
(١٠) سورة آل عمران الآية : ١٤٤ .
(١١) سورة الفتح الآية : ٢٩ .

وعندما ذكر الخليل إبراهيم ومعه النبي ذكر إبراهيم باسمه ، أما رسولنا فذكر بلقبه فقال: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ (١) .

كما أن من فضائل النبي على سائر الأنبياء، أن الأنبياء كانوا يجادلون أقوامهم عن أنفسهم فقال قوم نوح ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ فقال نوح ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ (٢) . وقال قوم هود ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ فقال هود ﴿ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾ (٣) . وقال فرعون ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا﴾ فقال موسى ﴿ لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ (٤) أي : مصروفاً عن الحق مطبوعاً على قلبك .

أما سيدنا محمد ﷺ فقد تولى الله المجادلة عنه فقال قومه هو شاعر ، فقال الله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ (٥). وقالوا عنه أنه كاهن ، فقال الله تعالى: ﴿ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٦). وقالوا مجنون ، فقال تعالى: ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (٧) .

حتى قال الله تعالى: ﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ (٨) .

ولذلك فإنه من باب الأدب مع رسول الله وأتباعه لأمر الله سبحانه أن لا يقال محمد أو أبو القاسم .

ذكر ابن الجوزي عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ .. الآية ﴾ قال : كانوا يقولون يا محمد يا ابا القاسم فنهاهم

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٦٨ .
(٢) سورة الأعراف الآيتان : ٦٠ ، ٦١ .
(٣) سورة الأعراف الآيتان : ٦٦ ، ٦٧ .
(٤) سورة الإسراء الآيتان : ١٠١، ١٠٢ .
(٥) سورة يس الآية : ٦٩ .
(٦) سورة الحاقة الآية : ٤٢ .
(٧) سورة القلم الآية : ٢ .
(٨) سورة النور الآية : ٦٣ .

الله تعالى إعظاماً لنبيه فقالوا يا نبي الله ، يا رسول الله .. وحكى عن الحسن ونحوه رواه أبو نعيم ، وهذا بخلاف الأمم السابقة فإنهم كانوا يخاطبون أنبيائهم بأسمائهم [١] .

هنا ؛ قد يرد سؤال سائل فيقول : **كيف تفضلون بين الأنبياء وقد قال الله تعالى في القرآن ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ ؟**

ويجاب عن هذا أن الآية ذكرت التفريق وهو غير التفضيل . إذا التفريق هو ما كان بين شيئين ، ومنه قوله تعالى: **﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾** . أما التفضيل وهو تفضيل أحدهما على الآخر والمتفضل هو الذي يدعي الفضل على أقرانه، ومنه قوله تعالى: **﴿ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾** [٢] .

وعلى هذا يكون المراد بالتفريق بين الرسل كقولهم **﴿ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾** كما تزعم اليهود حيث لا يؤمنون بعيسى ولا سيدنا محمد – عليهم الصلاة والسلام – وكذا النصارى فإنهم لا يؤمنون بسيدنا محمد .

فالمنهى عنه التفريق بين الرسل ، أما تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض فمأمور به بدليل قوله تعالى: **﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾** .

وقد يقال إن النبي ﷺ قال : ((لا تفضلوا بين الأنبياء)) ، وقال : ((لا تخيروني على موسى))، وقال : ((لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس ابن متي)) .

فالجواب عن هذا : إما أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلمه الله بأنه سيد الأولين والآخرين ، فلما أعلمه أخبر به .

---

(١) المصدر السابق ص٢٩٧ .

(٢) المختار الصحاح الفاء مع الراء مع الضاد (سورة المؤمنون : ٢٤) .

وإما أن يكون من باب التواضع والتأدب احتراماً لخلة سيدنا إبراهيم عليه السلام والنهي عن تفضيل يؤدي لنقص في المفضول أو خصومه أو فتنة .

وإما أن يكون النهي عن التفضيل في النبوة نفسها وليس في خصائصها وتوابعها .

يقول السفاريني: والحاصل أنه ﷺ قال ذلك قبل العلم بتفضيل الله له على سائر الأنبياء والرسل مع مراعاة لعلو مراتبهم الباذخة وجلالة مناصبهم الشامخة ، ثم أعلمه الله تعالى بأنه سيد الأولين والآخرين ، وأفضل جميع الأنبياء والمرسلين وأمر بتبليغ ذلك فبلغه كما أمر ، لأن اعتقاد ذلك حق لازم وفرض جازم مع مجانبة التفضيل المؤدي إلى تنقيص المفضول ومراعاة تلك المراتب التي تدرك كنه حقائقها أكثر العقول (١) .

* * * *

---

(١) لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص٢٩٨ .

عدد الأنبياء والرسل

القرآن الكريم ذكر في آية الأنعام والبقرة ثمانية عشر رسولاً ونبياً ، فقال تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ (١) .

ويضاف على هذا العدد سبعة هم إدريس ، هود ، صالح ، شعيب ، صالح ، ذو الكفل ، آدم فيكون الذي ورد ذكرهم في القرآن خمسة وعشرون نبياً ورسولاً .

هذا ؛ ولا يجوز حصر الأنبياء في عدد معين فإنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير، لأن حصرهم يؤدي إلى أن يدخل في عدادهم من ليس منهم أو يخرج من هو منهم في الحقيقة .

وقد خاطب الله تعالى رسوله فقال : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ﴾ (٢) .

وقد ذكر ابن تميمة أنه يجب الإيمان بهم ويصح الإقرار بهم في الجملة مع الكف عن عددهم .

وذكر أهل العقائد في عقائدهم ما ذكره الإمام أحمد عن عددهم مستدلا بحديث عن أبي ذر الغفارى ﷺ أنه قال: قلت يا رسول الله أى الأنبياء كان

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٨٣ - ٨٦ .   (٢) سورة غافر الآية : ٧٨ .

أول . قال: **آدم** ، قلت يا رسول الله ونبي كان . قال : **نعم نبي مكلم**، قلت يا رسول الله كم المرسلون . قال : **ثلاثمائة وبضعة عشرا جماً غفـــيراً** . وفي رواية أبي إمامة قال أبو ذر قلت يا رسول الله كم وفاء عدد الأنبيـــاء قال مائة ألف وأبعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلاثمائة وعشر جمـــا غفيرا . رواه أحمد .

فأهل العقائد يستدلون بهذا الحديث على أن عدد الأنبياء مائـــة ألــف وأربعة وعشرون ألفاً نبياً ورسولاً، وأن الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشــر، وأن الكتب المنزلة مائة وأربعة عشر كتاباً .

ولكن الواجب الإيمان بهم جملة لقوله تعالى: **﴿ مِنْهُمْ مَـــنْ قَصَصْنَـــا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾** .

قال ابن تميمة في كتابه ((الجوارب الصحيح لمن يدل دين المســيح)) أن بني إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء بعث إليهم موسى بن عمران عليــه السلام بشريعة التوراة وبعث إليهم أنبياء كثيرون حتى قيل أنهم ألف نبـــي كلهم يأمرون بشريعة التوراة ولا يغيرون منها شيئا إلى أن جـــاء عيســى بشريعة أخرى غير فيها بعض شريعة التوراة بأمر الله ﷻ [1] والواجـــب الإيمان بهم إجمالا لقول النبى ﷺ لما سئل عن الإيمان فقال أن تؤمن بـــالله وملائكته ورسله [2].

* * * *

(١) السفارينى ص ٢٦٥ لوامع الأنوار البهية جـ ٢ .

(٢) رواه البخارى فى باب الإيمان .

الفصل الثالث ، صفات الرسل

رسل الله هم أصفياء الله من خلقه ميزهم على سائر خلقه واجتباهم ليكونوا سفراء إلى عباده فهم هداة مرشدون إلى خير الدنيا والآخرة من اقتدى بهم فقد فلح ومن عاداهم فقد خسر .

ومن كانت تلك نعوتهم فلابد وأن يتصفوا بصفات عالية فى الخلق ومزايا فى الخلق ، ولذا فيجب لهم كل كمال بشرى يليق بهم فهم مبرءون من العيوب الخلقية فلا يكون فيهم ما ينفر الناس منهم كالأمراض المنفرة مثل الجذام والبرص أو العمى والشلل أو مرض عقلي كالجنون أو يكون بهم بكم أو صمم إلى غير ذلك مما يراه ذلك مما يراه الناس أنه نقص في حق الأفراد العاديين ، فمن باب أولى لا يتصف به من اصطفاهم الله لأعظم مهمة وأجل غاية .

كما يجب أن يتصفوا بكل كمال خلقي مثل الشجاعة والعدل والوفاء بالوعد والصبر والسخاء وكل ما يسمى في التزين به فضيلة وفي البعد عنه رذيلة .

ولسنا نجد أجل وصف نستطيع أن تصف به هؤلاء القدوة من وصف العلي القدير في كتابة الحكيم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، فيقول الله تعالى عن سيدنا محمد ﷺ: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [2] ، وقوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [3] .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨ . (٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

(٣) سورة القلم الآية ٤ .

ولو تتسمنا تلك الأوصاف العاطرة مع بقية الرسل لوجدناه تعالى يقول فى حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (١).

☜ وفي حق إسماعيل عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴾ (٢) .

☜ وفي حق موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴾(٣)

☜ وفي حق إدريس عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (٤) .

☜ وفي حق زكريا عليه السلام : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (٥) .

☜ ويقول في حق يحيى عليه السلام : ﴿ يَايَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا. وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا. وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (٦) .

☜ ويقول في حق عيسى بن مريم عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (٧) .

---

(١) سورة هود الآية : ٧٥ .

(٢) سورة مريم الآية : ٥٤ .

(٣) سورة مريم الآية : ٥١ .

(٤) سورة مريم الآية : ٥٦ .

(٥) سورة الأنبياء الآيتان : ٨٩ ، ٩٠ .

(٦) سورة مريم الآيات : ١٢ – ١٥ .

(٧) سورة مريم الآيات : ٣٠ – ٣٢ .

ولو ذهبنا وراء كل المعاني الفاضلة والأوصاف النبيلة والسجايا التي أسداها الله على رسله عليهم السلام لطال بنا المقام وحسبنا ما ذكرناه لبعضهم وهي أوصاف مشتركة القدر بينهم جميعاً فما يثبت لأحدهم يثبت لجميعهم ما لم تكن خاصية اختص بها رسول الله منهم دون غيره كما اختص سيدنا محمد ﷺ بأنه الرحمة المهداة ، وأنه خاتم النبيين وأنه الشافع والمشفع يوم القيامة .

وحسبنا من هذه الأوصاف العظيمة التي لو وجدت قاضياً عادلاً يحكم بميزان العدل فيما يصف به القرآن أنبياء الله وما تصفه اليهودية المحرفة أو المسيحية الزائفة من أوصاف لا تليق بمن ينشد المعاني السامية فضلاً عن أن تكون النبوة أو الرسالة الإلهية لا يسع من ينشد الحق إلا أن يهتف من أعماق قلبه آمنت بالله العلي القدير وأمنت بالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً خاتماً للرسالات الإلهية .

هذه وما ذكر من معالي أوصاف الخير والكمال وسمات العلي والسؤدد إذا وجدت في بعض الأفراد صفة ما فإن الأنبياء تجتمع فيهم كل الصفات الحميدة .

وقد أوجب العلماء للرسل عليهم الصلاة والسلام صفات حصروها في أربع وهي :

الصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، والفطانة ، وإنما كان الحصر في هذه الصفات لأن جميع الأوصاف الأخرى ترجع إليها فهي أس الفضائل وملاك الأمور وإليها تعود سائر صفات الكمال . وها نحن سنفصل الحديث فيما ذكر على وجه الحصر من أوصاف تجب للأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

الصفة الأولى : الصدق :

الصدق وهو ضد الكذب، والضدان لا يجتمعان . والصديق بوزن السكيت هو الدائم التصديق ، وهو أيضاً الذي يصدق قوله بالعمل ، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (١) .

ويعرف الصدق بأنه مطابقة الخبر للواقع .

ومطابقة الخبر للواقع نوعان :

أحدهما : مايكون في الأخبار العادية التي لا تتعلق بدعوى الرسالة ، فالصدق هنا معناه مطابقة الخبر للواقع بحسب الاعتقاد وذلك أن يكون هو الغالب على الاعتقاد ولو لم يكن مطابقاً كاعتقاد النبي بأنه صلى الظهر كاملاً أربع ركعات ولكنه في الواقع قد وقع سهواً منه ، ولذا أجاب عن ما يعتقده للسائل الذي سأله وهو ذو اليدين عندما سأله أقصرت الصلاة أم نسيت يارسول الله . فقال النبي ﷺ : ((**كل ذلك لم يكن**)) أي : لم أقصر الصلاة ولم أنس . فقال ذي اليدين : " بل بعض ذلك قد كان " ، فالنبي ﷺ أجاب على حسب ما يعتقده وإن لم يكن مطابقاً للواقع وهو حصول السهو . وهذا لا يقدح في نبوته وإنما كان هذا لبيان حكم تشريعي وبيان كيف يعالج المسلم صلاته إذا وقع منه السهو .

الثاني : وهو ما يتعلق بدعوى الرسالة ، وهو نوعان :

١- ما يكون متعلقاً بدعوى الرسالة نفسها وهو ما يجب ، وأن يكون مطابقاً للواقع والاعتقاد معاً لأنه يشكل القاعدة الرئيسية التي يعتمد عليها الوحي ، فقول النبي ﷺ : ((**إن الله أرسلني إليكم**)) لابد وأن يكون صادق في قوله واعتقاده والمعجزة شاهدة على ذلك .

---

(١) سورة مريم الآية : ٥٦ .

وقد كانت هذه الصفة سمة من السمات التي اتصف بها نبينا ﷺ وآمن على أثرها المسلمون وعرف عند أعدائه أيضاً بأنه الصادق الأمين .

٢- ما يتعلق بالأحكام التشريعية ، وهذا أيضاً يجب أن يكون مطابقاً للواقع والاعتقاد .

إذ لو حدث الكذب لضاعت الرسالة وكان كذبهم على الله ، والكـــذب محال في حقه سبحانه وهو القائل : ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى . إِنْ هُـوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى** ﴾ [1] .

وما عدا هذين الأمرين من أمور الحياة العادية فإن الصدق فيها يكـون بحسب الاعتقاد ، كما حدث في حديث ذي اليدين، وفي حديث تأثير النخـل حينما قال لو تركتموه لصلح فلم يصلح، قال بعض العلماء : أن هذا ومثلـه من قبيل الإنشاء لا الخبر [2] .

الدليل على وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق :

لنا في هذا دليلان أحدهما نقلي والآخر عقلي .

أما الدليل النقلي : قال تعالى: ﴿ **وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ﴾ [3] .

وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [4].

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾ [5] .

---

(١) سورة النجم الآيات : ٣ - ٥ .

(٢) جوهرة التوحيد ص١٣٩ .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٢٢ .

(٤) سورة النجم الآيتان : ٣ ، ٤ .

(٥) سورة الحاقة الآيات : ٤٤ - ٤٧ .

أما الدليل العقلي :

١- أنهم لو لم يكونوا صادقين لكانوا كاذبين والكذب معصية والأنبياء معصومون من المعاصي .

٢- أنه لو جاز عليهم الكذب لارتفعت الثقة في أخبارهم ولم يصدقهم الناس فلا تتحقق الغاية من بعثتهم ويكون إرسالهم عبث والعبث محال على الله تعالى .

٣- لو جاز عليهم الكذب الذي هو عدم مطابقة الواقع لجاز الكذب في خبره تعالى لتصديقه إياهم بالمعجزة المنزلة منزلة قوله تعالى: " صدق عبدي في كل ما يبلغ عني " وتصديق الكاذب من العالم بكذبه محض كذب والكذب على الله تعالى محال .

أما وقد وثق الناس بأخبارهم وآمن برسالاتهم خلق كثير ، فدل على أنهم صادقون فيما يبلغونه .

يقول ابن تيمية لا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به النبي ﷺ وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله . فمن شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فإن هذه حقيقة الشهادة بالرسالة إذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ** ﴾ ، وهو عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه وبالجملة فهذا معلوم بالأضطرار (١) .

وفي قصة هيرقل مع أبي سفيان عند سؤاله عن أوصاف الرسول محمد ﷺ دليل على اتصافهم بالصدق .

---

(١) السفاريني لوامع الأنوار البهيه جـ٢ص٣٠٧ .

يقول هيرقل : هل كنتم تتهمونه بالكذب ؟ أى على الناس .

قال أبو سفيان : لا وإن كان ليدعى الأمين ، فقال : هيرقل لقد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله تعالى .

الصفة الثانية : الأمانة :

الأمانة وهى ضد الخيانة وقد تأتي بمعنى الفرائض المفروضة كما في قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾، أو النية التي يعقدها فيما يظهره باللسان من الإيمان ويؤديه من جميع الفرائض المفروضة في الظاهر، لأن الله تعالى ائتمنه عليها . فمن أضمر من التوحيد مثل ما أظهر فقد أدى الأمانة .

وفي اللغة : الأمانة تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان .

وفي حق الأنبياء والرسل عليهم السلام : حفظ الله ظواهر الأنبياء وبواطنهم من التلبس بفعل منهى عنه أو ترك مأمور به .

يقول صاحب الجوهرة : حفظ ظواهرهم وبواطنهم ولو فى الصغر من التلبس بمنهى عنه ولو نهى كراهة ؛ أى كونهم لا يتصور أن يكونوا عند الله إلا كذلك [١] .

ومن هذا التعريف يتبين لنا أنه يتناول جانبا :

الأول : حفظ الله الأنبياء فيما أئتمنهم الناس عليه من حقوق وإختصاصات .

الثاني : عصمة الأنبياء من كل ما يحل أو يخدش كرامتهم من التلبيس بمحرم أو بمكروه .

---

(١) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام بن إبراهيم اللقانى المالكي - تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد - ص١٧٩ ط السعادة بمصر .

أما المعنى الأول : فدليله : أن الرسل لو لم يكونوا أمناء على حقوق الناس وواجباتهم لا نتزعت ثقة الناس فيهم ولعرضوا أنفسهم للتشنيع عليهم فلا يكونوا أمناء بحق على دين الله فتضيع الفائدة من إرسالهم وقد جاء على لسان كل نبى حرصه على إيمان قومه . قال تعالى : ﴿ **إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** ﴾ (١) .

وقد دلت النصوص الدينية أن الرسل كانوا حرصاء على ثقة الناس فيهم فقال تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ (٢) .

ويقول عن هود : ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُود أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ (٣) .

وعن صالح : ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ (٤) .

وعن لوط : ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ (٥) .

وعن شعيب : ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ (٦) .

وعن موسى عليه السلام : ﴿ **أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ (٧) .

---

(١) سورة النحل الآية : ٣٧ .
(٢) سورة الشعراء الآيتان : ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٣) سورة الشعراء الآيتان: ١٢٤، ١٢٥ .
(٤) سورة الشعراء الآيتان : ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٥) سورة الشعراء الآيتان: ١٦١، ١٦٢ .
(٦) سورة الشعراء الآيتان : ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٧) سورة الدخان الآية : ١٨ .

= وقد كان نبينا محمد ﷺ يلقب قبل بعثه بالأمين .

= ومن هذا ندرك أن الأمانة صفة مشتركة عامة بين الأنبياء جميعهم .

= فهم معصومون ظاهرا وباطنا .

= أما عصمتهم ظاهرا فمن الكذب والزنا وشرب الخمر وإذاء الناس .

= وعصمتهم باطنا من الغش والخديعة والكبر والحسد والنفاق ومن كل ما يكدر باطنهم .

أما المعنى الثانى : فهو عصمتهم عن ترك مأمور به أو فعل منهى عنه وهذا الأمر يتعلق بالرسالة ذاتها .

والأمانة والعصمة بمعنى واحد ولهذا فإن العصمة لغة مطلق الحفظ . وفي الإصلاح حفظ الله للمكلف من الذنب من استحالة وقوعه (١) .

الدليل على عصمتهم من المخالفات التي تؤدي إلى وقوع الذنب أو ترك أمر أو فعل نهى .

وللعلماء على ذلك أدلة نذكر منها :

<u>الدليل النقلي</u> : فهو ما تقدم ذكره من الآيات القرآنية .

<u>أما الدليل العقلي</u> :

١ - أنهم لو لم يكونوا معصومين لفعلوا خلاف ما يطلب منهم من ترك أمر أو فعل نهى ولكانوا حينئذ خائنين – ولو جازت عليهم الخيانة ما أمرنا الله بإتباعهم لأن الله لا يأمر بإتباع الخائنين . قال تعالى: **﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾** (٢) .

---

(١) شرح البيجوري على الجوهرة ص١٦٦ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٣١ .

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [١] .

وقوله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [٢] .

٢ – أنهم لو خانوا بترك ما أمروا بتبليغه أو بفعل منهى عنه لكنا مأمورين بذلك، لأن الله أمرنا بإتباعهم وبذلك يكون الفعل مأموراً به منهى عنه في وقت واحد وذلك محال في حقه تعالى فاستحال ما أدى إليه من جواز خيانتهم بفعل أو ترك مأمور به .

٣ – أن الله تعالى قال : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ فلو تركوا ما أمرهم الله به أو فعلوا ما نهاهم عنه لكانوا ظالمين والظالمون لاينالون عهد الله فثبت لهم الأمانة واستحالت في حقهم الخيانة .

* * * *

آراء العلماء فى عصمة الأنبياء

قد اختلف العلماء فى عصمة الأنبياء .

فالذى عليه الأشاعرة والمعتزلة إلى أنه لا يمتنع عقلا صدور المعصية من الأنبياء قبل البعثة سواء كانت كبيرة أو صغيرة [٣] .

وذهب القاضى عياض إلى تصور المعصية لا يكون إلا بعد تقرير الشرع إذ لايعلم كون الفعل معصية إلا من الشرع وعلى هذا يمتنع صدور المعصية بعد البعثة، أما قبلها فليس بممتنع حيث لاشرع يبين المعصية .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٢) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٣) شرح السنوسية الكبرى ص٣٧٠ .

وقال آخرون : أن الأنبياء معصومون عن الذنوب الكبائر عمداً قبل البعثة وبعدها وذلك لأن الكبائر إما أن تكون شركا وهو أكبر الكبائر وإما أن تكون غيره كالقتل والزنى والسرقة وغير ذلك من الكبائر ، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين مما يدنس شرفهم قبل البعثة وبعدها أما قبلها فلأن ذلك يوجب تحقيرهم في أعين الناس ونفرة الناس منهم .

أما بعدها فإنه يكون مخالفا لما جاءوا به فتكون أفعالهم مخالفة لشريعتهم إذ الأنبياء يأتون بمحاسن الأخلاق وجميل الشيم ولذا فإنه من الضرورى أن يكونوا معصومين من الذنوب الكبيرة قبل البعثة وبعدها .

وهذا هو الرأى الأسلم في أن الأنبياء لا يجوز صدور الكبيرة منهم قبل البعثة أو بعدها وإن كان هناك من يجوز صدور الكبائر منهم قبل البعثة لا بعدها .

يقول الإمام محمد عبده : واختلفوا في الكبائر فمن قائل أنها جائزة قبل البعثة لا بعدها ومن قائل أنها ممتنعة عليهم قبل البعثة وبعدها (١) .

هذا ؛ ويجب أن نعرف أن صدور الكبائر يمتنع في حق الأنبياء قبل البعثة وبعدها على رأى أغلب جمهور العلماء .

وذلك لأن صدور الكبيرة منهم سواء كانت قبل البعثة أو بعدها عمدا أو سهوا يلزم عليه أمور لا تليق بهم منها :

أولا : أنه صدرت الكبيرة منهم قبل البعثة أو بعدها لوجب النفرة المانعة من اتباعهم فتفوت المصلحة من إرسالهم – هذا ما ذهب إليه السعد التفتازانى حيث قال: والحق منع ما يوجب النفرة كعهر الأمهات والفجور والصغائر الدالة على الخسة .

---

(١) الشيخ محمد عبه رسالة التوحيد ص٤٨ .

وهو رأى المعتزلة أيضاً ووافقهم على ذلك الشيعة حيث منعوا صدور الصغيرة والكبيرة قبل الوحى وبعده غير أنهم جوزوا إظهار الكفر تقية [(١)].

ثانيا : لو صدرت منهم الكبيرة لكنا مأمورين بإتباعهم وهذا يؤدي إلى التناقض إذ يكون الفعل الواحد مأموراً به ومنهيا عنه في وقت واحد . والله سبحانه لا يأمر بالفحشاء .

ثالثا : لو صدرت منهم الكبيرة لكانوا أقل من عصاة الأمة وهذا غير جائز لأنهم أعلم بقبح الفاحشة أكثر من غيرهم فصدور الفاحشة منهم أقبح لأن السيئة في ذاتها سيئة وهى في حق من اصطفاهم الله وكلفهم بتبليغ رسالته تكون أسوأ .

رابعا : لو صدرت منهم الكبيرة لكان إيذاؤهم غير محرم وقد لعن الله الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات فقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** ﴾ [(٢)] .

خامسا : ولو صدرت منهم الكبيرة لكانوا فاسقين فتكون شهادتهم غير مقبولة فقد قال الله تعالى: ﴿ **إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا** ﴾ [(٣)] .

ومن هنا ندرك أن العلماء قد اتفقوا على عدم صدور الكبيرة بعد البعثة أما قبلها فرأيان أصحهما امتناعها قبل البعثة وبعدها .

أما صدور الصغائر من الأنبياء :

فإن الصغائر معصومون منها قبل البعثة وبعدها عمداً أو سهواً إذا كانت تشعر بخسة تدل على دناءة النفس وضعف في شخصيتهم مثل سرقة

---

(١) لوامع الأنوار البهية جـ٢ ص٣٠٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٧ .

(٣) سورة الحجرات الآية ٦ .

لقمة أو تطفيف بحبة في مكيال وذلك لعلو هممهم وسمو نفوسهم عن فعـل الدنية . أما إذا كانت الصغيرة لا تشعر بخسة فيمتنع عليهم فعلها عمـداً أو سهواً فتجوز عليهم قبل البعثة وبعدها . أما صدور السهو أو النسيان منـهم فجائز إذا كان في الأخبار العادية .

أما فيما يتعلق بالوحي فإنه يستحيل أن يصدر منهم سهوا أو نسيانا فيما أمروا بتبليغه. أما السهو في الأفعال البلاغية تجوز صدوره منهم إذا كـان في التشريعات ، كما في حديث ذى اليدين .

أما النسيان فهو مستحيل في حقهم سواء كان في البلاغيات قولية كانت أو فعلية – وذلك لأن النسيان هو مخالفة الصواب بدون الرجوع إليه ولـذا فهو ممتنع في حقهم . أما السهو فهو مخالفة الصواب مع الرجوع إليه ولذا فهو جائز عليهم في غير الأمور البلاغية .

شبهات وردت فى حق الأنبياء مما يوهم عدم عصمتهم :

الأنبياء كما قدمنا معصومون من إرتكاب الذنـوب، فـإذا ورد مـن النصوص مما قد يوهم عصمتهم :

فإن كانت أخبار آحاد حملت على خطأ الراوى وهو أهون من القـول بمعصية الرسول وإن كانت أخباراً متواترة حمل على التأويل إن كان يقبله وإلا فإنه يقال إنه كان قبل البعثة – أو من باب ترك الأولى على سـبيل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وها نحن سنتناول بعض النصوص التى وردت مما قد توهـم عـدم عصمة الأنبياء .

أولاً : ما ورد في حق آدم عليه السلام :

ورد من النصوص الدينية على آدم نهاه الله عن الأكل من الشجرة فخالف النبى وأكل من الشجرة فعوقب بالطرد من الجنة والهبوط إلى الأرض وإعترف بخطئه وتاب واسغفر الله عن هذا الخطأ . يصور القرآن الكريم هذا الفعل من آدم عليه السلام فيقول الله تعالى: ﴿ **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** ﴾ (١).

وقد أخذ من يقول بعدم عصمة الأنبياء بظاهر الألفاظ .

فيقولون إن آدم قد خالف ما أمره الله به والمخالفة معصية .

٢ – أنه اعترف وزوجه بأنه كان ظلماً فقالا ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (٢)، فقد سميا فعلهما ظلماً وطلبا التوبة منه فدل على أنه معصية .

٣ – أنه الله سمى مخالفتهما ظلم. قال تعالى ﴿ **وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ** ﴾ (٣) .

ويجاب عن هذه الشبهة :

أولاً : أن أكل آدم من الشجرة كان قبل البعثة إذ لم يكن له ولد يبعث إليه ويبلغه وأنه أكل ناسياً والنسيان جائز قبل البعثة وهذا يؤيده قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** ﴾ (٤) والاجتباء هو الاصطفاء بالنبوة .

ثانياً : أن آدم قد تاب من فعله هذا ، فالكريم إذا ما نهى عبده عن فعل شئ ما فعله العبد ناسياً فسأله العفو والصفح ، فإن كرمه سيمنعه من وقوع

---

(١) سورة طه الآية ١٢١ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٣ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٣٥ .

(٤) سورة طه الآية : ١٢٢ .

العقاب على عبده والله أكرم من أن يأخذ بجريرة طلب منه الصفح عليها .

وفي مثل هذه الحالة يساق قول النبي ﷺ فيما يحكيه عن رب العزة أنه قال : ((أذنب عبد فقال اللهم اغفر لي ذنبي فقال الله عز وجل أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب ، فقال أي رب اغفر لي ذنبي فقال الله تعالى أذنب عبدي ذنباً وعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب . فقال يارب اغفر لي فقال الله تعالى أذنب عبدي فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . اعمل ما شئت فقد غفرت لك)) .

والمراد بهذا الحديث حفز الهمم لعمل الصالحات ، والبعد عن الجريمة مهما حدث من الإنسان ، فإنه يجب أن يعلم أن له رباً يغفر الذنوب والله يطلب من عباده أن يسألوه المغفرة إذا أذنبوا ، قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَاعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ [١] .

ثالثاً : أن آدم فهم أن الأكل كان من شجرة بعينها فأكل من شجرة أخرى من جنسها فكان هذا اجتهاد منه لا عن سابق تعمد وإصرار على المخالفة .

يقول القرطبي : " واختلفوا كيف أكل مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى: ﴿ **فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ** ﴾ فقال قوم : أكلا من غير التي أشير إليها فلم يتأولا النهي واقعاً على جميع جنسها ، وقيل : أكل ناسياً وهو الصحيح لإخبار الله تعالى في كتابه العزيز بذلك حتماً وجزماً ، فقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾ [٢] .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٥٣ .	(٢) سورة طه الآية : ١١٥ .

ولكن لما كان الأنبياء يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعاً صار به عاصياً ؛ أي مخالفاً [١] .

هذا ؛ وجمهور مذهب أهل السنة أن الذنوب إذا كانت غير مشعرة بخسة فإنها تجوز أن تقع من الأنبياء قبل البعثة ، وهذا ما حدث بالنسبة لآدم عليه السلام .

وعلى كل فما وقع من آدم حكاية لصورة حقيقية وعما سيلاقيه النوع الإنساني في حياته الدنيا ، وهذا سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ثانياً : ورد في حق آدم وحواء ما يوهم وقوع الشرك منهما :

قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [٢] .

جمهور المفسرين إلى أن المراد بالنفس الواحدة هي آدم وجعل منها زوجها حواء ليسكن إليها ويأنس بها ويطمئن وكل هذا كان في الجنة ثم بعد هبوطهما إلى الأرض وحدث حمل لحواء من غير عهد لها به، وكان الحمل خفيفاً في أول أمره مما لم يمنعها من مباشرة أعمالها ، فلما ثقل الحمل وبرز — ينقل القرطبي عن الكلبي في هذا مما هو بعيد عن الصواب — أن إبليس أتاها في صورة رجل فقال لها ما هذا الذي في بطنك ، قالت ما أدري ، قال إني أخاف أن يكون بهيمة ، فقالت ذلك لآدم عليه السلام فلم

---

(١) تفسير القرطبي جـ٢ ص٣٠٦ .   (٢) سورة الأعراف الآيتان : ١٨٩ ، ١٩٠ .

يزالا في هم من ذلك ، ثم عاد إليهما فقال هو من الله بمنزلة فإن دعوت الله فولدت إنساناً أفتسمينه باسمي فقالت ما اسمك فقال اسمي الحـارث ، فلمـا وضعته سمته عبد الحارث [1] .

المشككون

وهذا من قبيل الإسرائيليات التي لا يعبأ بها وقد أثار المشـككون فـي عصمة الأنبياء شبهتهم ، فقالوا إن آدم قد وقع منه الشرك وهو معصيـة ، واستدلوا على دعواهم بما يلي :

١) قد تقدم ذكر آدم وحواء فيكون الشرك مضافاً إليهما .
٢) أنهما ذكر بلفظ التثنية فيكون الشرك قد وقع منهما .
٣) أن الله سمى فعلهما شركاً وهو كبيرة بلا شك .

الجواب عن هذه الشبهات بما يلي :

أولاً : إن قولهم لم يتقدم ذكر أحد إلا آدم وحواء فيكون الشرك وقـع منهما ، فقد تقدم ذكر من خلق منهما في قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ وذلك عبارة عن ولده ، وقد تقدم ذكر ولد آدم بقوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا** ﴾ فالمذكور غيرهما ، فكم صار أن يرجـع إليـهما قوله جعلا له شركاء دون الرجوع إلى ولدهما .

ثانياً: إن القول بأن الكلام جرى على التثنية وولدهما ذكر بلفظ الجمع.

يقال أن رجوع الكلام إلى آدم وحواء ليس بأولى من رجوعه إلى ولده.

وقد دل على الأولى بالرجوع إلى ولدهما قوله تعالى في آخر الآيـة : ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ بلفظ الجمع ، وإذا تقدم ذكـر أمريـن ودل الدليل على أحدهما على امتناع الحكم عليه ، فالواجب أن يرد ذلك الحكـم

---

(١) تفسير القرطبي جـ٧ ص٣٤٠ - دار الكتب المصرية .

إلى المذكور الآخر اضطراراً . وقد علم أن آدم وحواء لا يجوز أن يكون قد حدث منهما الشرك حقيقة فلم يبق إلا الرجوع إلى المذكور وهو الذرية .

ثالثاً : أن حصول الشرك ليس على حقيقته وإنما كان شركا في التسمية والصفة لا في العبودية والربوبية ، قال أهل المعاني أنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث ، بل أنه من قبيل التسمية كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له لا على أنه عبد والضيف ربه والعرب تستخدم هذا التعبير .

يقول حاتم الطائي :

وإني لعبد الضيف ما دام ناوثا   وما فيَّ إلا تيك من شيمة العبد

وأحسن ما قيل في تأويل الشرك الوارد في الآية أنه يستحيل أن يكون قد وقع من آدم وحواء ، وذلك لأمور :

١) أن قوله : ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ فدل أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة .

٢) أنه تعالى ذكر بعد ذلك الرد على عباد الأصنام في قوله تعالى : ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ** ﴾ (1) فيكون الشرك منسوبا إلى الذرية .

٣) ولو كان المراد به إبليس لكان الخطاب بمن وليس بما ، لأن العاقل يعبر عنه بصيغة من .

٤) أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها ، وهو أشد الناس معرفة بإبليس ، فكيف أن آدم لم يعرف اسمه الحرث الذي سمى إبليس به نفسه حتى يستطيع خداعه والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٩١ .

فهذا الذي ذكرناه ينفي عن آدم وحواء أن يكون قد وقع منهما الشـرك وأنهما سميا ابنهما باسمه وأن المعنى أنهما طالبا أن يأتيهما الله ابناً صالحاً سليماً سوياً كما أراده، وهذا لا يمنع أن يكون الشرك قد وقع منه ومن ذريته بعد، أو يحتمل أن الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ وهم آل قصي وهو المراد في قوله ﴿ **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ وهو قصي وجعل منها زوجها عربية قريشية لا أنه خلقها منه . ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا** ﴾ أي أشركا في تسميته فسموا أبنائهما بعبد اللات، وعبد العزى أسماء الأصنام وعبد مناف وعبد قصي وجعل الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهم في الشرك .

ويحتمل التأويل على فرض رجوع الضمير في جعلا له شركاء « إلى آدم وحواء » أنهما لما آتاهما الولد الصالح عزما على أن يجعلاه وقفاً على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الإطلاق لكنهما أحياناً كان ينتفعان به في مصالحهما الدنيوية وتارة يأمرانه بخدمة الله وطاعته وهذا العمل وإن كان قربة وطاعة إلا أنه من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ودليل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام عن رب العزة : « **أنا أغنى الأغنياء عن الشرك فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري تركته وشريكه** » .

وأنهما سميا ابنهما عبد الحارث لأجل اعتقادهم أنه إنما سلم من الآفات والأمراض بسبب دعاء ذلك الرجل المسمى بالحرث فقد سمى المنعم عليه بعبد المنعم ، وهذا من قبيل الاشتراك في التسمية فقط لا غير ، ومن هنا نعلم أن آدم لم يرتكب كبيرة لا قبل البعثة ولا بعدها .

* * * *

ثالثاً : ما ورد في حق إبراهيم عليه السلام :

نسب إلى إبراهيم عليه السلام أنه وقع منه الشرك في قوله ﴿ **هَذَا رَبِّي** ﴾ وهذا يقتضي أنه مشرك وهذا بناءاً على ما فهم من ظواهر الآية ، وهذا الظاهر غير مراد في قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [1] .

فظاهر الآيات تفيد أن إبراهيم قد وقع منه اعتقاد ألوهية الكواكب فيكون مشركا. وهذا الظاهر غير مراد وباطل من وجوه :

أولا : أن إبراهيم أراد أن يقيم الحجة على قومه فجاراهم على معتقدهم لينتزع الدليل على بطلان ألوهية الكواكب من أفواههم فيكون حجة عليهم ولم يكن إبراهيم يعتقد ألوهيتها على الحقيقة وذلك لأمور :

١) أن إبراهيم كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بدليل ما ذكر قبل هذه الآية بأنه من الموقنين بعد ما رآه الله ملكوت السموات والأرض فلا يعقل أن من كان هذا حاله يعتقد بألوهية الكواكب ، وأن الفاء في قوله ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ** ﴾ تفيد الترتيب وهو يفيد أن هذا وقع بعد أن كان من الموقنين .

٢) أن إبراهيم كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بدليل ذلك أنه قال لأبيه أتتخذ أصناما آلهة .

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٧٦ - ٧٩ .

٣) أنه دعاه إلى ترك عبادة الأصنام والإيمان بالتوحيد مستخدما مع أبيـــه وقومه الرفق في الدعوة فقال له : ﴿ **يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَـا لاَ يَسْـمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَاأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَـانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا . يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَـذَابٌ مِـنَ الرَّحْمَـانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا** ﴾ [١] .

وفي هذا المقام انتقل إلى الخشونة والعنف ، والمعروف أن أسـلوب الدعوة يبدأ باللين والرفق قبل العنف ، فدل على أن إبراهيم قد عـرف ربه قبل هذه الواقعة .

٤) أن الله سبحانه ذكر أن إبراهيم يستحيل أن يكون قد مر على قلبه مجرد الشك في ألوهية الله واعتقاد ألوهية الكواكب فقال في شأنه : ﴿ **إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [٢]، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِـنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ** ﴾ [٣] .

<u>ثانياً</u> : أن إبراهيم أراد بقوله – هذا ربي– على سبيل الاستهزاء كأنه يقول هذا ربي على زعمكم واعتقادكم ذلك الجسم المحدود وهذا نظيره قوله تعالى: ﴿ **وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا** ﴾ [٤]، وقوله تعـالى: ﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ [٥]، وكما يقال للذليل الذي ساد قوماً : هذا سيدكم .

---

(١) سورة مريم الآيات : ٤٢ ـ ٤٥ .
(٢) سورة الصافات الآية : ٨٤ .
(٣) سورة الأنبياء الآية : ٥١ .
(٤) سورة طه الآية : ٩٧ .
(٥) سورة القصص الآية : ٦٢ .

أو أنه من قبيل الاستفهام الإنكاري كأنه قال : أهذا ربي وأسقط حرف الاستفهام لدلالة الكلام عليه .

وأحسن ما قيل في هذا أن إبراهيم أراد أن يستدرج قومه على سبيل الحجة ومقصوده من ذلك ذكر الدليل على إبطاله وفساده وأنه لم يجد طريقاً يسلكه في دعوتهم غير هذا الطريق .

فإبراهيم لم يرتكب كبيرة لا قبل البعثة ولا بعدها .

ثالثاً : نسب إلى إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ [1] الآية يفيد بحسب ظاهرها أن إبراهيم شك في قدرة الله تعالى وهذا يتنافى مع العصمة ، وذلك لأمور :

١ - أن إبراهيم كان شاكاً في قدرة الله تعالى ولذا فقد طلب أن يريه كيفية إحياء الموتى .

٢ - أن إبراهيم شك في البعث وهو الإعادة مرة ثانية فيكون كافراً .

٣ - ورد في الخبر ما يفيد حصول الشك من إبراهيم في قول النبي ﷺ : نحن أحق بالشك من إبراهيم ... الحديث .

وهذا يتنافى مع ما هو ثابت من عصمة للأنبياء عليهم السلام .

ويجاب عن هذا :

١- أن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكا في قدرة الله تعالى ولا يتصور حدوث ذلك وهو يخاطب ربه إذ كيف يخاطبه وهو شاك فيه .

وجمهور المفسرين على أن إبراهيم لم يكن شاكا في إحياء الله للموتى

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

وإنما طلب المعاينة وذلك أن النفوس مستشرقة إلى ما أخبرت به ولهذا قال عليه السلام " ليس الخبر كالمعاينة " رواه ابن عباس ولم يرو له راو آخر غيره ، ولهذا يقول الأخفش لم يرد رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين ليزداد يقيناً على يقين .

أما عن سؤال إبراهيم – بكيف – فإن كيف يسأل بها عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول – وكيف للاستفهام ؛ والاستفهام هنا عن هيئة الأحياء الذي هو متقرر وموجود ، فإذا ما قلت عن أمر معلوم ، كيف بيع الدكان مثلا ؟ فالبيع متقرر وحدث بالفعل . والسؤال عن الهيئة أو الصفة التي بيع بها وسؤال إبراهيم بهذه الكيفية .

٢- أن إبراهيم لم يكن شاكا في البعث ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ولو كان شاكا لم يصح ذلك وأن قوله ﴿ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ إنما هو كلام عارف يطلب المزيد من المعرفة والتي توصل إلى عين اليقين ، ولو كان إبراهيم شاكا لكان غير عارف بأنه نبي إذ النبوة لا تعرف إلا بعد الإيمان بوجود الله وقدرته .

٣- أما الحديث الوارد عن النبي ﷺ (نحن أحق بالشك من إبراهيم) فالمراد به نفي الشك بالكاية عن إبراهيم عليه السلام ومعناه : لو كان إبراهيم شاكا لكنا أحق بالشك منه ، ونحن لانشك فإبراهيم عليه السلام أحرى أن لا يشك، والشك هو تردد بين أمرين لا مزية لأحدهما عن الآخر ، وهذا هو النفي – وإحياء الموتى – يثبت عن طريق السماع وإبراهيم أعلم بالناس بذلك فالشك منفي عن من تثبت قدمه في الإيمان . فكيف بمرتبة النبوة والخلة ؟!

وقال آخرون في تأويل هذه الآية فقالوا :

إن إبراهيم سأل ربه عند البشارة بأنه اتخذه خليلاً فسأل الله أن يريه

علامة على ذلك ليطمئن قلبه على هذا الاصطفاء ويكون ذلك عنـــده مـــن اليقين مؤيداً للبشارة .

وعلى هذا يكون إبراهيم كغيره من الأنبياء معصومون مـــن الكبـــائر والصغائر التي فيها رذيلة باتفاق جمهور المسلمين .

رابعاً : ما نسب إلى إبراهيم من أنه كذب على قومه حينما سألوه عـــن تكسير آلهتهم . فقال ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** ﴾ [١] مع أن إبراهيم هو الـــذي فعل . وهذا كذب وهو عدم مطابقة الخبر للواقع ، وإبراهيم قد كذب وهـــو مما ينافي عصمة الأنبياء .

ويجاب عن هذا : أن إبراهيم أراد أن يبين ما عليه قومه من الضـــلال في عبادتهم للأصنام ، فقال مستهزئاً بهم مبيناً أن من لا يتكلم ولا يعلـــم ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه مضرة الآخرين لا يستحق أن يعبد .

والكذب لا يكون مذموماً إلا بما يترتب عليه من المساوئ ، أما إذا كان غرض المتكلم حسن وقامت قرينة على ذلك فإن ذلك يكـــون مـــن بـــاب المعاريض ، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب ؛ أي فاسألوهم إن نطقوا ، وفي كلامه اعتراف ضمنياً بأنه هو الفاعل لأنه عدده على نفسه في أنـــهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة ، وقوله – بل فعله كبيرهم هذا – فكأنـــه يقول لهم إذا كانوا لا ينطقون ولا يملكون ضراً ولا نفعاً فلـــم تعبدوهـــم ، فتقوم عليهم الحجة والإلزام .

يقول القرطبي : ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجـــع إلى الحق من ذات نفسه فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهـــة [٢]،

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٦٣ .

(٢) تفسير القرطبي جـ١١ ص٢٩٥ – دار الكتاب العربي – القاهرة .

وهذا أحسن ما قيل في نفي الكذب عن إبراهيم عليه السلام .

وعلى فرض أنه تعمد إخبارهم بغير الواقع فإن هذا ليس كبيرة يترتب عليه مضرة فإنه لا مصلحة لإبراهيم إلا هدايتهم وصرفهم عن عبادة الأوثان والتي لو تحققت لفازوا في دنياهم وأخراهم .

رابعاً : ما ورد في حق موسى عليه السلام :

نسب إلى موسى أنه قتل القبطي وذلك جرياً على ظاهر الآية في قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١).

وقد احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام عامة وبما يقدح في عصمة موسى عليه السلام بهذه الآية قائلين إن القتل وقع من موسى وهو كبيرة من الكبائر واستدلوا على ذلك بأن القبطي إما أن يكون مستحقاً للقتل أو لا، فإن كان غير مستحق للقتل فيكون قتل ظلماً وإن كان مستحقاً للقتل :

١- فلم قال موسى أنه من عمل الشيطان .

٢- أن ما فعله موسى كان ظلماً طلب المغفرة منه .

٣- اعترف موسى بأن ما فعله كان ضلالاً ، فقال فعلتها إذاً وأنا من الضالين .

---

(١) سورة القصص الآيات : ١٥ - ١٧ .

ويجاب عن هذا :

بأن الذي فعله موسى أنه وكز القبطي؛ والوكز غير القتل إذ الوكز هو الدفع بأطراف الأصابع ، وهذا لا يعقل أن يؤدي للقتل ، وقد قرأ ابن مسعود فلكزه موسى واللكز يكون في الظهر، وعلى كل فإن موسى لم يود قتله متعمداً ، وعلى القراءة الأولى يكون المعنى وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمة ، وهي لا تقتل في الغالب .

واستدل بحديث رواه مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : يا أهل العراق ما اسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الفتنة تجئ من هاهنا وأومأ بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان ، وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ ، فقال الله ﷻ : ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [1] ويحتمل أن يكون هذا قبل البعثة .

١- أما أنه قال هذا من عمل الشيطان فيحتمل أن الله أباح قتال الكفار ولكن يؤخره إلى زمن آخر ، فلما فعل موسى ما ترتب عليه القتل فيكون قد ترك المندوب وخلاف الأولى . فيكون المعنى أن إقدامه على ترك المندوب من عمل الشيطان أو يحتمل أن عمل المقتول نفسه من عمل الشيطان بكونه مخالفاً لله تعالى فيكون مستحقاً للقتل . والإشارة إليه يدل على أن المقتول من حزب الشيطان وجنده .

٢- أما قولهم إن موسى قال ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ فيكون معترفاً

---

(١) سورة طه الآية : ٤٠ .

بالذنب وهو معصية ، فيجاب عنه أنه لم يكن هناك ذنب ، وإنما يتصور من موسى بأن حرم نفسه ثواب المندوب ولهذا قال فاغفر لي ترك هذا المندوب أو أنه طلب من الله أن يستره عليه حتى لا يعلم فرعون فيقتله به .

٣- أما أنه قال إني كنت ضالاً حتى فعلتها فإن معناه أنه كان متحيراً لا يدري ماذا يفعل ؟

وعلى كل فإن موسى لم يحدث منه القتل عمداً أو خطأ بل أنه ترك الأولى فلعله كان يستطيع أن يخلص الإسرائيلي من يد القبطي بدون الوكز ولكنه ترك الأولى فلجأ إلى الاستغفار .

وأن إعانة موسى للإسرائيلي على القبطي كانت طاعة لا معصية إذ لو كانت معصية لما قال **﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾** فلو كانت معصية لقيل : بما أنعمت على ولن أكون مواظباً على ذلك المعصية ، ويحتمل أن يكون طلب الدعاء من الله أن يعينه على أن لا يكون ظهير للظلمة والفسقة .

وأن ما ذكر في قوله من عمل الشيطان وأنه فعله من الضالين فإن ذلك ناشئ من شدة تأثر نفسه الكريمة وحساسيتها وأنه يلوم نفسه على العمل الصغير الذي وقع منه .

خامساً : ما ورد في حق سيدنا محمد ﷺ :

أما ماورد في نسبة الذنب إلى سيدنا محمد ﷺ سيد الأولين والآخرين في قوله تعالى: **﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. ﴾** (١) .

---

(١) سورة الفتح الآيتان : ١ ، ٢ .

قيل في تفسير ما تقدم من ذنبك وما تأخر بعدها .

ولذا فقد ذهب الطاعنون في عصمة الأنبياء إلى القول أن الذنب المتقدم هو يوم بدر حيث دعا النبي ﷺ ربه قائلاً : ((**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض أبدا**)) فأوحي الله إليه من أين تعلم أنني لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد .

وأما الذنب المتأخر فيوم حنين حيث قال النبي لعمه العباس ولابن عمه أبي سفيان: ناولاني كفاً من حصباء الوادي فناولاه فأخذه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال شاهت الوجوه حم لا ينصرون فانهزم القوم عن آخرهم فلم أجد إلا امتلأت عيناه حصبا ثم قال النبي لو لم أرمهم لم ينهزموا فأنزل الله ﷻ ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى** ﴾ [١] . فهذا هو الذنب المتأخر [٢] .

ويجاب عن هذا :

أن ما تسوقه الآيات هي تعدد نعم الله سبحانه على نبيه ﷺ وإعلاء نشأته في الدنيا والآخرة وهو فتح مكة ونصره على أعدائه وتمكينه في الأرض وليس للنبي ﷺ ذنب يغفر وأنه كان أكثر الناس عبادة لله وأشدهم خشية .

روى البخاري أن النبي كان يقوم ويجهد نفسه وكان ينهي أصحابه عن تقليده فقالوا له كيف ونحن أحوج إلى العبادة منك ، فقد أخبره الله بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنني أقربكم من الله وأكثركم تقديراً لعظمته وجلاله فما افعله من العبادة لا يشق علي كما يشق عليكم .

---

(١) سورة الأنفال الآية : ١٧ .　　(٢) تفسير القرطبي .

أولاً : أما قول الطاعنين بأن الذنب المتقدم كان يوم بدر والمتأخر يـوم حنين ، فإن ذلك لا دليل عليه ولو كان قد حدث عتاب من الله لنبيه على هذا القول لوضحه الرسول وحكى به مثل غيره كما حصل في أسرى بـــدر ، وعلى فرض أنه قد حدث ذنب فليس من النبي وإنما المـــراد بـــه ذنـــوب المؤمنين ، أو يكون المراد به ترك الأفضل ، أو أنها من الصغـــائر التـــي تجوز على الأنبياء كالسهو مثلاً .

فليس هناك ذنب ، بل يمكن القول إنه من باب حسنات الأبرار سـيئات المقربين .

ثانيا : ما نسب إلى النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى** ﴾ فليس معناه الظاهر الضلال وهو الإنصراف عن الحق فيكون النبي كـــان منصرفا على الحق فهداه الله .

ولكن يحتمل أنه وجدك ضالاً عن النبوة فهداك إليها ، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ **مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ** ﴾ (١) .

أو يحتمل أنه وجدك ضالاً فهداك إلى طريق الصواب والبعد عما كان عليه قومك وأبعدك عن كل ما يشينك ، فقد ألقى الله عليه النوم حتى لا يرى ما عليه قومه من اللهو والتفاخر فلم يدر ما وقع فيها .. فليس هناك ضلال.

ثالثاً : ورد ما ينسب الذنب إلى النبي ﷺ . قوله تعالى: ﴿ **وَوَضَعْنَـــا عَنكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ** ﴾ (٢) .

ظاهر الآيات بأن النبي ﷺ قد ارتكب الذنب وأن الله قد غفر له الذنب، وهذا يتنافى مع وجوب العصمة .

---

(١) سورة الشورى الآية : ٥٢ .　　(٢) سورة الشرح الآيتان : ٢ ، ٣ .

ويجاب عن هذا :

بأن المراد بالوزر ليس محدد الوقت أو الذات فيحتمل أن يكـــون وزر أمته أو أنه الحمل الثقيل في قيامه بأعباء الرسالة فمما لا شك فيه أنه كـــان ينوء بحملها ويعتريه الألم لعدم إيمان قومه وحرصه عليهم ، ويؤيـــد ذلـــك قوله تعالى: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيـــثِ أَسَفًا** ﴾ (١)، فأخبره الله بأنه رفع ذكره بين الأنام ووسع صـــدره ، فليـــس هناك ذنب حتى يتنافى العصمة .

رابعاً : ورد ما ينسب إلى سيدنا محمد ﷺ ما يفيد بظاهره أنه قد أتـــى بمعصية يستحق فاعلها العذاب ، وذلك في حديث القرآن الكريم عن أسـرى بدر، فقال الله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِـنَ فِـي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَـــوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (٢) .

هذه الآيات نزلت في شأن أسرى بدر وكان عددهم سبعين رجلاً وفيهم العباس عم النبي وابن عمه عقيل بن أبي طالب، فاستشارهم فيهم أصحابـــه فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم لعل الله يتو عليهم ويدخلون في الإسلام ، واشار عمر بضرب أعناقهم ؛ وأخذ الرسول برأي أبي بكر ولكن القـــرآن نزل معاتباً للنبي ﷺ بهذه الايات على أخذه الفداء ولم يضرب أعناقـــهم . وروي أنهم لما أخذوا الفداء نزلت هذه الآية فدخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان ، فقال رسول الله أخبرني فإن وجدت بكاء بكيـــت وإن لم أجد تباكيت ، فقال أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولو نـــزل

---

(١) سورة الكهف الآية : ٦ .   (٢) سورة الأنفال الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ .

عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ. ذكره الفخر الرازي في سبب النزول [١] .

وقد تمسك الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه الآية من وجوه :

١ - أن أخذ الفدية في الآية منهى عنه وممنوع فكان ذنباً .

٢ - أن الله أمر بقتل الكفار يوم بدر والأمر للوجوب فقال تعالى﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [٢]، فلما لم يحدث القتل كانت المخالفة وهما معصية .

٣ - أن النبي حكم بأخذ الفداء وكان ذلك معصية يدل عليه قوله تعـــالى : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ [٣] .

وقوله: ﴿ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

٤ - أن النبي ﷺ وأبا بكر بكيا لأجل أخذ الفداء ، وذلك يدل على أن النبـــي مذنب .

٥ - أن النبي قد صرح بقرب نزول العذاب بسبب أخذ الفداء فدل ذلك على أنه ذنب .

<u>ويجاب على هذه الوجوه بما يلي :</u>

١- أن الأسر كان مشروعا ولكن بشرط أن يسبقه الأثخان في الأرض بالقتل والتخويف الشديد ، وقد قتل الصحابة عدد كبير من المشركين يو بدر قبل الأسر ، والأسر ليس ذنباً ولا معصية يؤيده قوله تعالى: ﴿ حَتَّـــى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ [٤] .

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٥ ص٢٠٤ .
(٢) سورة الأنفال الآية : ١٢ .
(٣) سورة الأنفال الآية : ٦٧ .
(٤) سورة محمد الآية : ٤ .

أما كون العقاب ترتب عليه لعله غلب على ظن الرسول أن ذلك القدر من القتل كاف في حصول المقصود مع أنه كان بخلاف ذلك فهو اجتـــهاد منه ﷺ وإن ذنباً ولكنه من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين .

٢- إن ظاهر قوله ((فاضربوا فوق الأعناق)) خطاب للصحابة ولـم يكن الرسول مأمور بمباشرة القتل بنفسه ، فلما تركوا القتل وأقدموا علـى الأسر كان الذنب صادراً من الصحابة وليس من الرسول ولا يقال أنه قـد جيئ بالأسرى إلى حضرته ﷺ فإن ذلك كان بعد انتهاء القتال .

فالتكليف بالقتل أثناء المعركة أما بعدها فلا تكليف بالقتل .

٣- أما قولهم: إن النبي حكم بأخذ الفداء وهو محرم بدليل قوله تعالى ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ فإن المراد به أن أخذ الفداء للتقوية على الأعداء وإن يصرف في مهام الجيش فليس بحرام كما هو رأي أبو بكـر ، ولكـن المحرم هو ما يطلب لعرض الدنيا ولم يكن أبداً مقصود النبي ولا الصحابـة عرض الدنيا قط .

٤- أما عن طلب النبي يحتمل لأجل خوف النبي على أصحابه وشفقته عليهم من نزول العذاب بهم لاشتغالهم بالأسر أو عن اجتهاده في القتل الذي حصل به حد الإثخان .

٥- أما عما ذكر عن قرب نزول العذاب ، إنما بسبب أولئـك الذيـن خالفوا أمر الله بالقتل واشتغالهم بالأسر .

وهذه أوجه الردود على الطاعنين في عصمة الأنبياء .

أو يقال على فرض أن المسألة قتل الأسرى من المشركين ولكنه لـم يفعله فيكون فعل خلاف الأولى وهو ليس ذنباً بل هو اجتهاد منه وعوتـب على ذلك لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

خامساً : رد ما نسب إلى سيدنا محمد ﷺ :

فيما أخذ على ظاهره وهو غير مراد لفهم منه أن النبي ﷺ كتم أمـــراً أعلمه الله به وهذا يتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم السلام .

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيـــهِ وَتَخْشَـــى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَـــيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ (١) .

ففهم الطاعنين عدم عصمة الأنبياء بما ذكر في الآية من قوله تعـــالى: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ فقالوا أن النبي ﷺ أمر زيداً أن يمسك زوجه وهو يعلم أنه مفارقها ، فيكون أظهر خلاف ما يضمر .

٣- إن قوله تعالى: ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ إشارة إلى أن النبي خشى الناس ، والأنبياء مأمورون أن لا يخشون أحداً إلا الله .

ويجاب عن هذا :

أولاً : أن الآيات تشتمل على تشريعين عظيمين مما اشـــتملت عليـــه الشريعة الإسلامية الغراء :

أحدهما يختص بإبطال نظام التبني الذي صدرت به سورة الأحـــزاب وقد أراد الله أن يبطل ما عليه العرب من نظام التبني وبيـــان أنـــه ليـــس كالنسب من حرمة النكاح واعطائه حق التوارث فـــانتدب الله رســـوله ﷺ للقيام بأعباء هذه المهمة وليكون التشريع في شخص الرسول ، إذ وظيفتـــه

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٧ .

بينهم ربط النفوس بالله وتطييب قلوبهم ، وقد سبق الحديث بقوله تعالى : **﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾** [١].
مما يشعر بصعوبة هذا الأمر الشاق المخالف للمألوف من العادات .

ثانيا أن في هذه الآية تحطيم للفوارق الطبقية داخل الجماعة الإسلامية فلا فرق داخل المجتمع المسلم بين السيادة والموالي[٢] فزوج الرسول مولاه زيد إلى شريفة قرشية وهي زينب بنت جحش بنت عمته ، ليسقط هذه الفوارق داخل أسرته والتي كانت من العمق والعنف بحيث لا يسقطها إلا فعل واقعي وليكون تشريعاً للمسلمين في كل الأزمنة ، وكما قال النبي ﷺ : ((**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ألا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**)) .

ولهذا يمكن أن يجاب على الطاعنين في عصمة الأنبياء بأن ما ذكره في قوله **﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾** بأن النبي لم يخف شيئاً أمره الله به بل أن النبي أراد أن يختبر من زيد ما لم يكن يعلمه من عدم رغبته عنها فأبدى زيد منها النفرة والكراهية ولتكون دليلا على إقامة الحجة ومعرفة العاقبة .

وعلماء الكلام يقولون قد يأمر الله العبد بالإيمان وهو يعلم أنه لا يؤمن فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع الأمر به عقلا وحكماً ، وفعل النبي من هذا القبيل ليعلم من زيد عزمه الأكيد على الفراق ولتكون الحجة عليه ألزم .

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٦ .

(٢) طبقة من الرقيق المحرر دون السادة .

ثالثاً : أن قوله ﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ** ﴾ فليس المراد به أن النبـــي كـــان يخشى الناس ولا يخشى الله ، بل أن الله أحق بالخشية وحده ودعك من كلام الناس كما قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَـوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ** ﴾ (١) .

أو هو عتاب من الله لنبيه إذ قد أعلمه أن زينب ستكون زوجة له، وقد انتظر النبي بعض الوقت وليس في هذا خطيئة وخصوصاً في أمور النكـاح والطلاق ، فإن التروي فيها واجب – والنبي لم يؤمر بالاستغفار أو التوبـة من هذا مما يدل أنه ليس بخطيئة إلا أنه قد يكون غيره أحسن منه وأخفـى ذلك في نفسه خشية أن يفتن الناس .

يقول الشيخ الباجوري : أن معنى الخشية استحياؤه ﷺ من النـــاس أن يقولوا تزوج زوجة ابنه ؛ أي من تبناه فعاتبه الله على هذا الاستحياء لعلـــو مقامه وما قيل من أنه ﷺ تعلق قلبه بها وأخفاه فلا يلتفت إليه – وأن أجلـى ناقلوه فإن أدنى الأولياء لا يصدر عنهم مثل هذا الأمر . فما بالك به ﷺ ؟

وأخيراً ؛ بعد هذه السياحة الطويلة في النبوات العاطرة نستطيع القـول أن الأنبياء لا يجوز في حقهم الكبائر فهم معصومون منها قبل البعثة وبعدها أما الصغائر أو خلاف الأولى فمرجعه إلى هذين الأمرين أن صدورها منهم على فرض لو حدثت فإن ذلك لم يكن عن عمد وإنما ينسب إلى أنه صـــدر منهم سهواً وهو معفو عنه .

* * * *

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٩ .

الصفة الثالثة : التبليغ :

التبليغ إيصال الأحكام التي أمروا بتبليغها إلى من أرسلوا إليهم .

والدليل على وجوب اتصافهم بها قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ .. ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ (٢) .

والدليل القائم على وجوب اتصافهم بهذه الصفة هو :

١ – أنهم لو كتموا شيئاً بما أمروا بتبليغه لكنا مأمورين بكتمان العلم لأن الله أمرنا بالاقتداء بهم وقد لعن الله كاتم العلم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَات وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ ﴾ (٣) .

٢ – لو جاز عليهم الكتمان لكتم رئيسهم الأعظم سيدنا محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (٤) .

٣ – لو كتموا لضاعت المهمة التي أرسلوا من أجلها فيكون إرسالهم عبثاً والعبث على الله محال .

ثم إن الرسل شهداء على الأمم يوم القيامة . فكيف تقوم شهادتهم إذا هم خانوا بكتمان ما أمروا بتبليغه ؟

يقول ابن تيمية : ومعلوم أنه ﷺ قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتم منها شيئاً فإن كتمان ما أنزل الله تعالى إليه يناقض موجب الرسالة كما أن الكذب

---

(١) سورة المائدة الآية : ٦٧ .
(٢) سورة النحل الآية : ٣٥ .
(٣) سورة البقرةالآية : ١٥٩ .
(٤) سورة الأحزاب الآية : ٣٧ .

يناقض موجب الرسالة ، قال ومن المعلوم في دين المسلمين أنه معصـــــوم من الكتمان لشئ من الرسالة كما أنه معصوم من الكذب فيها ، والأمة تشهد له بأنه مبلغ الرسالة كما أمر الله تعالى وبين كل ما أنزل إليه من ربه وقــد وجب على كل مسلم تصديقه في كل ما أخبر به [١] .

هذا وما ثبت لواحد من الأنبياء فهو ثابت لجميعهم .

الصفة الرابعة : الفطانة :

الفطانة من الفطنة وهي الفهم وحدة العقل وذكاؤه .

وهي عبارة عن التفطن والتيقظ لإلزام الخصوم وإبطال دعواهم الباطلة . وإزالة شبهة المتشككين .

وهذه من ألزم الصفات التي يجب أن يتصف بها الأنبياء وقد قام الدليل على إلزامها للأنبياء عليهم السلام . قال تعالى: ﴿ **قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَـــا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ..** ﴾ [٢] .

وقال في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيــمَ عَلَــى قَوْمِهِ ..** ﴾ [٣] .

وقال في حق سيدنا محمد ﷺ: ﴿ **وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..** ﴾ [٤].

فلو لم تجب لهم الفطانة لكانوا عاجزين عن إقامة الحجة على خصومهم . وبذلك تضيع الفائدة من إرسالهم .

---

(١) السفاريني : لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٣٠٨ .

(٢) سورة هود الآية : ٣٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٨٣ .

(٤) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

يقول الشيخ الباجوري : ومن لم يكن فطناً بأن كان مغفلا لا تمكنه إقامة الحجة ولا المجادلة [١] .

كما أنه لم تجب لهم صفة الفطنة لكانت بلادتهم عاملا من العوامل التي تؤدي إلى نفرة الناس منهم وهذا يتنافى مع الغاية التي أرسلوا إليها وهي هداية البشر .

* * * *

ما يستحيل في حق الأنبياء

قدمنا أن الأنبياء يجب في حقهم إجمالا كل كمال بشري يجب لهم تفصيلاً الصفات الأربع من الصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، والفطانة .

كذلك يستحيل في حقهم كل نقص يؤدي إلى خستهم أو نفرة الناس منهم وأي صفى تؤدي إلى تضييع الفائدة من رسالتهم والتي انتدبهم الله القيام بأعبائها ويستحيل عليهم تفصيلا : الكذب ، والخيانة ، والكتمان ، والبلادة . هذا وقدمنا الدليل على وجوب الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة فاستحالت عليهم أضداد هذه الصفات .

يقول السنوسي : أن أفعالهم دائرة بين الواجب والمندوب والإباحة وليس وقوع المباح منهم كوقوعه من غيرهم [٢]، بل إن المباح لا يصدر منهم إلا على وجه يصير به طاعة أو يقصد به التشريع للغير وهم مندوبون للتعليم .

---

(١) شرح الباجوري على الجوهرة ص ٢٥ .

(٢) شرح السنوسية الكبرى ص٣٧٢ .

ما يجوز في حق الأنبياء :

يجوز في حق الأنبياء الأعراض البشرية التي لا تخل بمراتبهم العالية أو تؤدي إلى إنصراف الناس عنهم فيجوز أن يكون النبي تاجراً أو في صناعة قومه أو راعياً للغنم أو الإبل . كما يجوز عليهم معاشرة الناس والنوم بما تستريح به ابدانهم ، ونكاح النساء سواء كان بالحل أو بالملك ، ويجوز عليهم وطء الأمة الكتابية بخلاف الوثنية فإنها لا تحل .

وخالف في هذا ابن عربي بأن النبي لا يحل له الأمة الكتابية معللاً بأنه عليه الصلاة والسلام شريف في أن يضع نطفته في رحم كافرة وبأنها تكره صحبته [١] .

والحق أنه من الأفضل الاعتقاد أن النبي لا تحل به من الإماء إلا المسلمة وذلك لخوف العنت عليها .

وذهب النووي أنه لا يجوز عليهم الاحتلام لأن الشيطان لا يتلاعب بهم فإن كان مجرد ماء من غير تلاعب فلا مانع .

ولا يجوز عليهم الأغماء ولو خفيفا وكذا الجنون أو الجذام أو البرص أو العمي وغير ذلك من الأمور المنفرة .

وأما ما قيل في حق يعقوب عليه السلام من أن العمي قد اصابه ، لما ورد من قوله تعالى: ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ [٢] .

فإن ما أصابه لم يكن سوى غشاوة على العين وهو ما يسمى في عرف الأطباء بالعمي الهستيري – نتيجة لصدمة معينة – ويعقوب أصابته

(١) شرح الباجوري على الجوهرة ص٢٦ .   (٢) سورة يوسف الآية : ٨٤ .

غشاوة حزناً على يوسف عليه السلام فلما أن جاء البشير وألقى القميص على وجهه رجع بصيراً كما كان أولاً .

وما قيل في حق أيوب فإن هذا من قبيل الإسرائيليات التي لا يعبأ بها فقد أغرقوا في الخيال وقالوا إن الدود كان يتناثر من جلده وقد سقط لحمه حتى لم يبق منه سوى لسانه وقلبه وأنه مكث سنين طويلة على هذا ، هذا ما لا يصدقه عقل ولا ينطلي إلا على مخدوع . أما قوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾(٢)

فإن معناه أنه ابتلى بضياع ماله والتفرقة بينه وبين أهله مما يعد أمراً عاديا يحدث مرات عديدة في دنيا البشر، ولا يحتاج إلى تعليل وأن هذا كان من قبيل الاختبار فصبر على البلاء وكان الشيطان يوسوس له ليصرفه عن الصبر ، وكان أيوب يصرف ما يجول بخاطره بعناء ومشقة لما يحدث من هذه الوسوسة . وقد كافأه الله فرد إليه ماله وجمع بينه وبين أهله ولهذا يقول سبحانه : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾ .

ومما لاشك فيه أن الشكاية لله تعالى لا تنافي الخشوع، فالمس المذكور في الآية معناه الوسوسة وقد عبر القرآن عن هذا بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٣) .

وبالجملة فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من البشر وأرسلوا إلى البشر فظواهرهم خالصة للبشر يجوز عليها من الآفات والتغييرات والآلام والأسقام وتجرع كأس الحمام ما يجوز على البشر مما لا نقيصه فيه فإن

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان : ٨٣ ، ٨٤ .   (٢) سورة ص الآية : ٤١ .

(٣) سورة الأعراف الآية : ٢٠١ .

نبينا ﷺ كان يمرض ويتألم ويشتكي وكان يصيبه الحر والقر والجوع والعطش والغضب والضجر والنصب والتعب ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه ولا يوجب الإتصاف به نوع نفرة عند كل نبيه .

* * * *

المعجزة

المعجزة مأخوذة من العجز الذي هو نقيض القدرة ، والمعجزة في الحقيقة فاعل العجز في غيره ، وهو الله تعالى كما أنه هو المقدر أي فاعل القدرة في غيره وسمي غير الله معجزاً – كما في فلق البحر – وإحياء الموتى – من قبيل التوسع والتجوز على سبيل أنه سبب لظهور الإعجاز وهو الأنبياء عن امتناع المعارضة لا الإنباء عن العجز عن الإتيان بمثل تلك المعجزة .

أو أن الأمر الدال على صدق الرسول يسمى معجزة بمعنى أن هذا الأمر هو الذي خلق العجز في المعارضين مع أن الخالق لذلك هو الله تعالى . إذ لا فاعل سواه حكما .

والمعجز مصدر أعجز زيدت عليه التاء إما للمبالغة أو التأنيث أو للنقل من الوصفية إلى الأسمية .

تعريف المعجزة :

عرف المتكلمون المعجزة بتعريفات منها :

ما ذكره الأشعري بأنها فعل من الله تعالى أو قائم مقام الفعل ؛ يقصد بمثله التصديق .

وقال ابن حمدان في نهاية المبتدئين : المعجزة هي ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدي ابتداء بحيث لا يقدر أحد عليها ولا على مثلها ولا على ما يقاربها [١] .

ويلاحظ على هذين التعريفين بما يلي :

هل الخارق للعادة المعجزة ، أو الفعل ؟

فإن كان الخارق للعادة الفعل فيكون خرق العادة ليس مضبوطاً لأنه يلزم عليه أن يكون هذا الفعل لا يوجد له نظير في العالم – وهذا باطل فإن آيات الأنبياء قد تكون متشابهة في بعض الأحيان – كإحياء الموتى مثلا قد جرى على يد عيسى – وخزقبال [٢] والياس وسيدنا إبراهيم الخليل ، وإن أريد بها هي الخارق لعادة المخاطبين بالنبوة فهذا ليس بحجة .

فإن هذا مشترك بين الأنبياء وغيرهم فقد يكون المخاطبون بالنبوة ليس فيهم هؤلاء ، فالمبرر في فن من الفنون يقدر على ما لايقدر عليه في زمنه وليس هذا دليلا على النبوة ولم يقل صاحبه أنه نبي ، فطب أبقراط مثلا بل وعلم عالم كبير من علماء المسلمين خارج عن عادة الناس وليس هو دليلا على نبوته [٣] .

---

(١) السفاريني : لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص٢٩ .

(٢) جرى الله على يد عيسى إحياء الموتى في قوله : ﴿ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، وعلى يد خزقبال على أنه المعنى بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ وعلى يد إبراهيم في قوله تعالى : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وعلى يد إلياس المراد به أيليا العجيب الذي فلق البحر بردائه فعبر العابرون واحي الموتى بإذن الله [راجع موقف اليهود من قضية الألوهية والنبوات بعد موسى – موقف الإسلام منهم د. عبد العزيز تمام (رسالة دكتوراة)] .

(٣) ابن تيمية : النبوات ص ٢٢ .

وبعد: فإن أشمل التعاريف التي تكون جامعة مانعة بأن المعجزة ((أمر خارق للعادة مقرونة بالتحدي مع عدم المعارضة)) .

وهذا التعريف هو ما ارتضاه العلامة سعد التفتازاني والفخر الرازي ، وزاد البغدادي في أصول الدين في دار التكليف لإظهار صدق نبوة الأنبياء[١] .

شروط المعجزة :

من خلال التعريف السابق تكون المعجزة :

أولاً : أمر ؛ يعني أنها من متعلقات قدرة الله تعالى وحده .

والأمر يشمل الفعل كتسبيح الحصى ، وإطعام العدد الكثير بالقليل من الطعام ، كما يشمل القول القرآن كالقرآن الكريم ويشمل أيضاً الترك كعدم احراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام أو قول كنوح عليه السلام ﴿ **ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ** ﴾[٢] .

فقد وقع التحدي بعدم الفعل كالضرب والترك .

ثانيا : أن يكون خارقا للعادة : وللنظار في الخارق للعادة رأيان :

أحدهما : أن العادة لا تخرق إلا لنبي ، وهذا هو مذهب المعتزلة وعلى رأيهم كذبوا خرق العادة للكهان والسحرة وأنكروا كرامة الأولياء وفسروا ما حدث لمريم عند الولادة أن هذا ليس خاص لمريم ، بل هو إرهاص لعيسى عليه السلام .

---

(١) البغدادي – أصول الدين ص١٧٠ – ط. دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

(٢) سورة يونس الآية : ٧١ .

وأما الأولياء فإنما تخرق العادة لهم لاتباعهم للرسول فكذلك كل ما تأخر عنه فهو من معجزاته مثل ما تقدم .

فالمعتزلة يكذبون ما تواتر من خوارق العادات لغير الأنبياء .

أما الجهمية فإنهم يجوزون خرق العادة لغير النبي بل كل ما خرق العادة للأنبياء يجوز أن يخرق للأولياء والسحرة والكهان وليس ثمة فـــرق إلا أن الخارق على يد النبي مقروناً بالتحدي ولا يمكن لأحد معارضته ، هذا مـــا ذهب إليه الجهمية حيث جوزوا في أفعال الرب فعل كل ممكن فيجوز خرق العادات مطلقاً على يد كل أحد .

ويلزم على هذين المذهبين مفاسد :

أولا : لا يوجد فرق بين أن يخلق الله الخارق على يد النبي وغـيره – بل أن كلاهما جائز – فإذا كان لا يوجد ثمة فرق بينهما فلم كان أحدهمـــا دليلاً على النبوة دون الآخر . ومن اين أتى العلم بأن الله لا يخرقها إلاّ على يد الصادق . والجهمية يجوزون كل فعل مقدور لله وخلقها على يد الكـاذب في مقدور الله أيضاً وخرق العادات عندهم جائز مطلقا على يد كل أحد .

ثانيا : لم يميزوا بين الخوارق بعضها البعض ولا فرق بينـــها وبيـــن الخارق الذي يظهر على يد النبي إلا بدعوى التحدي .

يقول ابن تيمية : ((بل صرح أئمتهم أن كل ما خرق العادة لنبي يجوز أن يخرق للأولياء ، حتى معراج محمد وفرق البحر لموسى ، وناقة صـالح وغير ذلك كما أنهم لم يذكروا فرقاً معقولا بين المعجزة والسحر، بل يجوز أن يأتي الساحر بمثل فعل النبي إلا أنهم يقولون أن نفس النبي طاهرة ونفس الساحر خبيثة أما الفرق بين الفاسق والصالح فمتعذر على قول هؤلاء [1].

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص ٧ .

وأفضل الآراء في خلق الخارق على يد النبي مقروناً بدعوى التحدي مع العجز التام عن المعارضة كماهو مذهب أهل السنة ، إذ لو كانت عامة يستوي فيها البار والفاجر والصالح والطالح والمفتري بدعواه ومدعي النبوة المحق لما افاد ما يقدر معجزاً تمييزاً وتنصيصا على الصادق ، وقد بين أهل السنة الفرق بين الخوارق بعضها عن البعض مما سنبينه في حينه أن شاء الله تعالى .

الشرط الثالث : أن تكون مقرونة بدعوى الرسالة :

وهذا يقتضي أن يتحدى النبي بالمعجزة وتظهر على وفق دعواه . فلو ظهر الخارق مكذباً له لا يكون معجزة ، فلو قال أنا رسول الله وآية صدقي أن ينطق الله يدي – فلو نطقت قائلة أنه كاذب لم يكن ذلك دليلا على صدقه لأن شرط ذلك المكذب أن يكون مما يقع في جنسه خرق العادة .

أما إذا قال : آية صدقي ؛ إحياء هذا الميت فأحياه الله ونطق مكذباً له فإنه يكون دليلاً على صدقه ، فالخارق هو الإحياء وقد وقع .

كما أنها لا تجوز أن تكون صفة قديمة ولا مخلوقة للرسول .

ولا تتقدم على النبوة – وما وقع يسمى إرهاصا .

ولا تتأخر عنها، وقال بعض النظار إن كان التأخير بزمن يسير جاز.

أما إذا كان الزمن طويلا فإن ذلك لا يكون معجزة للنبي .

الشرط الرابع :

أن تكون موافقة لدعواه فإن خالفته لا تكون معجزة كما قدمنا في مثال اليد إن نطقت مكذبة له فليس بمعجزة للنبي أو كما إذا قال معجزني إنفلاق هذا الجبل فانفلق البحر مثلا فلا يكون دالاً على صدقه .

الشرط الخامس :

أن يكون ظهورها على يد مدعي النبوة فإن ظهرت على يـــد الولـــي فكرامة أو عبد صالح فمعونة أو على يد كاذب فإهانة أو استدراج .

الشرط السادس :

أن تكون مقرونة بالتحدي وهذا إما أن يكون التحدي بالقول كـــالقرآن الكريم أو بالفعل كنبع الماء من بين أصابعه .

الشرط السابع :

أن تتعذر معارضته وبذلك يخرج السحر فإنه يمكن معارضتـــه مـــن أرباب الصنعة ، كما تخرج الشعوذة وغرائب المخترعات إذ يمكن أن يأتي بمثل فعلهم .

وزاد بعضهم شرطاً ثامناً وهو أن لا تكون في زمنْ نقــض العــادات كطلوع الشمس من المغرب عند دنو يوم القيامة .

الفرق بين خوارق الأنبياء وغيرهم :

أولاً : أنواع الخوارق :

١ - إما أن يعين الخارق صاحبه على البر والتقوى والصلاح كما هو الحال في خوارق الأنبياء .

٢ - إما أن يعين صاحبه على فعل مباح يستعين به على قضاء مصالحـــه كاستعانته ببعض الجن بحيث تكون الاستعانة بهم ترفع صاحبـــها ولا تخفظه كما سخر الجن لسيدنا سليمان عليه السلام .

٣ - وإما أن يعين الخارق على المحرمات من الفواحش والظلم والشـــرك والقول الباطل وهذا من جنس خوارق الكهان والسحرة والكفار .

ثانياً : الخوارق التي تعطي للأنبياء :

يظهر الله سبحانه على يد أنبيائه خوارق للعادات وهـــي مـــا تسـمى بالنسبة للأنبياء بالمعجزة ، وقد أجمع أهل السنة على أن جنس الخـــوارق كما تكون للأنبياء قد تكون لغيرهم ، أما ما يعطي للأنبياء فيتميز عن مـــا يعطي لغيرهم بما يلي :

١ - أن تكون خوارق الأنبياء خارجة عن مقدور البشر بل وعـــن مقـــدور الحيوان والجن أيضاً ، أما ما يقال عن السحر فهو في مقدور البشـــر ، ولذلك خر السحرة ساجدين لما أدركوا أن ما جاء به موسى ليس مـــن فعلهم ولا في مقدورهم الإتيان بمثله .

٢ - الرسول يخبر من أنباء الغيب . قال تعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْـهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ** ﴾ (١) .

٣ - الرسول يخبر عن الأمور البعيدة الكبيرة مفصلا مثل أخبار النبي ﷺ : ((**إنكم تقاتلون الترك صغار الأعين ذلف الأنف ينتقلون الشعر كـــأن وجوههم المطرقة**)) (٢) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : ((**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار مـــن**

---

(١) سورة الجن الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) ذلف الأنف قصره وانبطاحه وقيل ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته والذلف بســكون الـلام جمع أذلف كأحمر وحمر والأنف جمع قلة للأنف وضع موضع جمع الكثرة .

أرض الحجاز تصبى لها أعناق الإبل ببصري ⁾⁾ ، فهذا ما ليس في مقدور إنس ولا جن أن يخبر به [١] .

وبذلك تكون خصائص خوارق الأنبياء قد وضحت ويقتضينا الأمر أن نبين الفرق بينها وبين غيرها من الخوارق الأخرى .

وقبل الكلام عن هذه الفروق يجب أن نعلم أن جمهور المعتزلة منعوا إظهار الخارق على يد غير النبي وقالوا لو جاز ظهور مثل ذلك على يد من ليس بنبي لأفضى ذلك إلى تكذيب النبي وافترائه ، ويؤدي إلى عدم تمييز النبي من غيره ، كما يؤدي إلى التشكيك في المعجزات التي تحصل على يد النبي .

أما أهل السنة: فقالوا أنه يجوز أن يجري الله الخارق على يد غير النبي.

وقالوا ما من أمر سواء كان خارقا أو غير خارق إلا وهو مقدور لله تعالى وإنكاره يؤدي إلى التعجيز وابطال كون الفعل مقدوراً لله تعالى وهو مستحيل [٢] .

والحق هو ما ذهب إليه أهل السنة إذ قد وقعت أمور كثيرة خارقة ولكنها ليست من النبوة وذلك مثل قصة أهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة سنين وتسعة وهم ليسوا بأنبياء ، وقصة أم موسى ومريم وليس في هذا تكذيب للنبي ، ولا يلزم على وجود الخوارق على يد النبي تكرارها في زمننا هذا فهو وإن كان جائز عقلا إلا أنه مستحيل عادة .

---

(١) ابن تيمية – النبوات ص١١ .

(٢) الآمدي – غاية المرام في علم الكلام ص٣٣٤ وما بعدها . ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

كما أنه من المعلوم بالضرورة أن النبوة قد ختمت فما يحدث في زمننا هذا ليس من جنسها . ولا يلتفت إليه في هذا المجال .

<u>الفرق بين المعجزة وخوارق العادات الآخرى :</u>

قدمنا تعريف المعجزة باعتبارها أمراً خارقا للعادة يظهره الله تأييداً لنبيه في دعواه الرسالة وعجز المعارضين عن الإتيان بمثلها وهى تشترك مع غيرها من خوارق العادات في أن كلا منهما خارق للمعتاد والمألوف ، ولهذا يجب أن نبين الفروق بينها وبين غيرها حتى لا يلتبس النبي بغيره ، ومن هذه الخوارق :

أولا : الإرهاص : هو الأمر الخارق للعادة الذى يظهر قبل بعثة نبي من الأنبياء تأسيساً لنبوته – كإظلال الغمام لسيدنا محمد ﷺ ، وكلام عيسى في المهد. وقد يكون في شخص آخر كما كان يظهر النور في وجه عبد الله أب النبي ﷺ . وما كان يحدث من إرهاصات قبل مولده كقصة أصحاب الفيل وغير ذلك .

والفرق بينه وبين المعجزة أن المعجزة تكون بعد التكليف بالرسالة ويتحدى بها .

<u>أما الإرهاص</u> : فإنه يكون قبل الرسالة ولا يتحدى به .

ثانيا : الكرامة – وهى أمر خارق للعادة يظهره الله على عبد ظاهر الصلاح تكريما له غير مدع النبوة .

<u>الفرق بينها وبين المعجزة :</u>

١) أن المعجزة لابد فيها من الظهور والتحدى – أما الكرامة فقد يخفيها صاحبها ولا يتحدى بها .

٢) أن المعجزة مقرونة بدعوى النبوة – أما الكرامة فإنها ليس فيها دعوى النبوة .

٣) أن صاحب المعجزة مأمون التبديل معصوم عن الكفر والمعصية بعد ظهور المعجزة عليه، وصاحب الكرامة لا يؤمن بتبديل حاله كما هي حالة بلعم بن باعوراء أوتى مالم يؤت غيره ثم ختم له بالشقاء [١] .

والكرامة قد ظهرت على يد كثيرين مثل ما حدث لمريم ، قال تعالى : ﴿ **وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا .. الآية** ﴾ (آل عمران: ٣٧) ؛ أى أنشأها إنشاءاً حسنا وجعلها تنبت في اليوم كما ينبت المولود في العام – وكلفها زكريا كلما دخل عليها وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، فلما سألها من أين لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، وكمثال قول عمر بن الخطاب وهو على المنبر يا سارية الجبل والجيش الجبل والجيش بنهاوند والمسافة بينهما مسيرة شهر .

وجمهور أهل السنة يثبتون الكرامة للأولياء مستدلين بما حدث ووقع فعلا لهم .

وبقوله تعالى : ﴿ **أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [٢].

ووافق أهل السنة أبو الحسن البصرى المعتزلي في جواز كرمات الأولياء ووقوعها .

وقالوا يجوز في الكرامات أن تقع بسائر وجوه خوارق العادات على إختلاف أنواعها .

وقال قوم الكرامات تختص بمثابة إجابة ودعاء ، وذهب النووى إلى أنها تجري حتى في قلب الأعيان .

---

(١) أصول الدين للبغدادى ص ١٧٥ .

(٢) سورة يونس الأية ٢٦ .

وأهل السنة يقولون بأن الكرامة هبه من الله وليست باكتساب ولا تؤدى إلى سقوط التكليف عن الولى ما دام بالغاً عاقلاً [١] .

وقد أنكر المعتزلة الكرامة هى وسائر الخوارق ولم يثبتوا من الخوارق إلا المعجزة للأنبياء وحجتهم في ذلك :

أولا : لو جاز ظهور الخارق على يد من ليس بنبي لأدى ذلـــك إلـــى تكذيب النبي بحيث لا يميز النبي عن غيره مـــن الســحرة والمشــعوذين والأولياء .

ثانيا : أن وقوع الخوارق للأولياء يؤدى إلى كثرتها وخروجـــها عــن كونها خارقة للعادة مما يؤدى إلى التشكيك في المعجزة .

ويجاب عن هذا :

أولا : أما القول بأن وقوع الكرامة يؤدى إلى الإلتباس بينها وبين المعجــزة فإن ذلك ليس بلازم .

فإن الكرامة لا تكون مع دعوى النبوة بخلاف المعجزة فإنها مقرونــة بالنبوة.

ثانيا : أن القول بكثرتها يخرجها عن كونها خارقة للعادة فإن ذلـــك ليــس بالضروة بل غاية الأمر استمرار خرق العادة وذلك لا يوجب كونــها عادة .

يقول الآمدى : ((وما ذكروه من تجويز إنخراق العادات في زماننا فهو إنما يستحيل بالنظر إلى العادات لا بالنظر إلى العقليات)) [٢] .

---

(١) السفارينى الأنوار البهية جـ٢ ص٣٩٦ .

(٢) الأمدى غاية المرام في علم الكلام ص٣٣٥ .

هذا ؛ وكما علمت فإن جمهور أهل التحقيق على جواز وقوع الكرامة، وقد قال بعض المحققين أن للولى شروطا حتى لا يلتبس بغيره وحددوا هذه الشروط :

أولا : بأن الولى يجب أن يكون عارفا بأصول الدين حتى يفرق بين الخلق والخالق وبين النبي والمتنبى.

ثانيا : أن يكون عارفا بأحكام الشريعة نقلا وفهما .

ثالثا : أن يتخلق بالأخلاق الحميدة التى دل عليها الشرع والعقل من الورع عن المحرمات والمكروهات وإمتثال المأمورات واخلاص العمل وحسن المتابعة .

رابعا : أن يلازمه الخوف أبدا واحتقار النفس وأن ينظر إلى الخلق بعين الرحمة وأن يبذل جهده في مراقبة النفس ومحاسبتها .

يقول فضيلة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع في شرح الكواكب الدرية : ((وبهذا يتبين أن من ظهر على يديه شئ من الخوارق التى يسمونها كرامات الأولياء وهو مصر على دعوة غير الله تعالى من الأحياء والأموات معتقدا أنهم ينفعون أو يضرون فهو من الحيل والشعوذة لا من الكرامات إذ من شروط حصولها صحة الاعتقاد . وأى اعتقاد أفسد من الإشراك بالله تعالى وكذا يتبين كذب من ادعى الولاية وهو تارك للصلوات مع المسلمين في مساجدهم أو يزعم أنه يصلي بمكة جميع الصلوات ، ولو كان بينه وبينها مسافة أيام [١] .

---

(١) شرح الكواكب الدرية ص٩٩ .

المعونة :

وهى أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد مستور الحال - من عوام المسلمين تخليصا له من المحن أو المكاره غير مدع النبوة .

مثال المعونة : ما رواه مسلم عن الثلاثة الذين آووا إلى مغارة فسدت عليهم صخرة باب المغارة فدعا كل واحد ربه بصالح عمله فكشف الله عنهم مما هم فيه من كربة ومكروه .

وأنت خبير بعد بالفرق بين المعونة والمعجزة - فالمعونة لا تكون مع دعوى النبوة ولا يتحدى بها بخلاف المعجزة .

السحر :

هو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر بأمور حسابية في مطالع النجوم فيتخذ من تلك الجواهر هيكلا على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع وتقرن بـ كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين .

والفرق بينه وبين المعجزة ظاهر . إذ السحر يكتسب بالتعليم ويستعين فاعله بالشياطين ولا يتحدى به وليس مقرونا بدعوى النبوة بخلاف المعجزة فإنها ليست مكتسبة بل هى من فعل الله تعالى ويتحدى بها وتظهر على يد مدعى النبوة والسحر يكون على أيدى الفساق والكفرة .

واختلف العلماء في حقيقة السحر . فذهب قوم إلى أن الساحر له تمكن قلب الأعيان واستدلوا بحديث أرجعوه في إسناده إلى السدة عائشة قال عنه ابن كثير أنه أثر غريب وسياق حديث .

وذهب آخرون إلى أن الساحر ليس له القدرة إلا على التخييل واستدلوا بقوله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (٢) .

والحق أن الساحر ليس له القدرة على قلب حقائق الأشياء بل أن هـــذا من مقدورات القدرة الإلهية والتى لا يظهرها الله إلا على أيـــدى الأنبيـــاء تأييداً لهم في دعواهم النبوة .

رأى أهل السنة : جمهور أهل السنة على أن السـحر ثـابت وقـالوا لايمتنع أن يترقى الساحر في الهواء ويتحلق في جو السماء ويسترق ويتولج في الخوخات إلى غير ذلك مما هو من قبيل البشر إذ الحركات فى الجهات من قبيل مقدورات الخلق ولا يمتنع عقلا أن يفعل الرب تعالى عند إرتيـــاد الساحر ما يستأثر بالإقتدار عليه فإن كان ماهو مقدور للعبد فهو واقع بقدرة الله عندنا (٣) .

أما الدليل النقلى : فاستدلوا بما ورد في قصة هـــاروت ومـــاروت ، وبسورة الفلق .

يقول الجونبي : وقد اتفق الفقهاء على السحر واختلفوا في حكمه وهـم أهل الحل والعقد وبهم ينعقد الإجماع (٤) .

وقد أنكر المعتزلة السحر كما أنكروا سائر الخوارق سوى المعجـزة ، وقد استدلوا بمثل ما استدلوا به إنكار بقية الخوارق .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١١٦ . (٢) سورة طه الآية ٦٦ .

(٣) ا لجوينى الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصـــول الإعتقـــاد ص٣٢٢ ط السـعادة بمصـر ١٩٥٠م .

(٤) المصدر السابق ص٣٢٣ .

ومذهبهم هذا مردود عليه بما هو ثابت في نصوص الكتاب والسنة .

يقول الجويني : وحق اللبيب والمعتصم بحبل الدين أن يثبت ما قضى العقل بجوازه ونص الشرع على ثبوته ولا يبقى لمن ينكر إبليس وجنوده والشياطين المسخرين في زمن سليمان كما أنبأ عنهم آي من كتاب الله تعالى لا يحصبها مسكه في الدين وعلقه يتشبث بها [١] .

الشعوذة :

هى خفة في اليد يرى أن لها حقيقة ولا حقيقة لها كما يفعل الحواة .

الإهانة :

وهى ما يظهره الله خارقا للعادة على يدى كاذب في إدعائه النبوة إهانة له . كما حدث لمسيلمة الكذاب حينما تفل في عين أعور فعميت السليمة ، ومسح على رأس غلام فاتقرع .

الاستدراج :

وهو أمر خارق للعادة يظهره الله على يد فاسق مدع للألوهية على وفق مطلوبه خديعة له ؛ حتى إذا أخذه أخذ عزيز مقتدر . قال تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [٢].

والفرق بينه وبين المعجزة :

١) أن المعجزة تكون على يد مدعى النبوة – والإستدراج يكون بادعاء الألوهية .

---

(١) الجوينى – الإرشاد ص٣٢٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٢، ١٨٣ .

٢) أن ظهور المعجزة على يد النبي تصديقا له أما الإستدراج فظهور الخارق على يده ليس تصديقا لأن كذبه وفسقه ظاهر .

غرائب المخترعات :

وهى ناشئة عن معرفة بعض خواص المادة وعلم بالطبيعة الكيمياء – كالراديو – والتليفزيون والتليفون والكمبيوتر وغير ذلك .

حكم المعجزة :

اختلف الآراء حول حقيقة المعجزة فذهب فريق إلى أن المعجزة ممكنة عقلا وواقعة فعلا .

أما كونها ممكنة عقلا : فلأن المعجزة من الأمور الممكنة . وقد قام الدليل على إثبات وجود الله وقدرته – وفي قدرة الله تعالى خلق الأشياء على غير المألوف في عادة البشر فتختلف الأسباب عن مسبباتها على يد النبي تصديقا له بقدرة من يخلق الخارق بدون سبب ليس مما عليه العقل أو يمنعه .

أما كونها واقعة فعلا : ما ظهر من المعجزات على يد أنبياء الله عليهم السلام وصدق بها من شاهدها ونقلت إلينا بطريق التواتر الذى هو أحد الضروريات العقلية .

وذهب فريق آخر إلى القول بإستحالة المعجزات وأستدلوا بشبهات :

١- قالوا فيها أن تجويز الأمر الخارق يؤدى إلى قلب حقائق الأشياء ، فينقلب الجبل ذهباً والماء حجراً ويجوز أن يكون من ظهرت على يديه المعجزة غير النبي .

يجاب عن هذا :

أن الأمر الخارق ممكن عقلا وإن كانت العادة تحكم بامتناعه والإمكان لا ينافى الامتناع . كما أن قولكم إن هذا يؤدى إلى قلب الحقائق فليس كون المعجزة خارقة للعادة بأن تقلب العصا حية وأن ينطق الجماد أو ينشق القمر ليس ذلك بأغرب ولا أعجب من صنع السموات والأرض وما بينهما من عجائب المخلوقات التى وقعت العين عليها والتى لم نراها .

الشبه الثانية :

قالوا فيها على فرض ثبوت المعجزة فإنها يستحيل أن تكون دليلا إلا على من شاهدوها وعاصروها، أما الذين لم يشاهدوها فمن الإستحالة أن تكون دليلا عليهم – لأنهم لا سبيل إلى معرفتها إلا النقل بالتواتر – وهو لايفيد اليقين – فمن أين أتى العلم بأن واحدا من المتواترين لا يجوز عليه الكذب ؟ وبذلك يكون كذب المجموع إذ الفرد أحاد المجموع .

كما أنه يقال إذا آفاد المتواتر اليقين فأن الآحاد يفيدها فالخبر المتواتر إذا حذفنا من أفراده واحدا فهل الباقى يفيد اليقين أم لا ؟

فإن لم يفد الباقي اليقين – فيكون اليقين محصورا في الواحد المحذوف فيكون أحاداً وليس متواتراً .

وإن فاد اليقين استمررنا في الحذف حتى يبقى واحد فقط وهو الذي يفيد اليقين . ثم إن العبرة في التواتر ليس في عدد معين بل الضابط هو حصول اليقين في ذهن السامع بصرف النظر عن العدد وبذلك لا يكون الخبر متواترا إلا إذا حصل اليقين – فيكون التواتر متوقفاً على اليقين وحصول اليقين متوقف على التواتر وهكذا تمضي السلسلة إلى ما لا نهاية وهذا يؤدى إلى الدور وهو باطل .

الجواب عن هذه الشبه :

أن المتواترات أحد أقسام الضروريات العقلية والطعن فيها هدم للقواعد العقلية وهى موجبة للعلم الضروى .

يقول البغدادى في أصول الدين : ((والتواتر فيما أنكروه كالتواتر فيما أقروا به ومن أنكر ذلك توجه الإلزام عليه بإنكار البلدان التى يدخلها الناس مع تواتر الأخبار عنها وإنكار أبويه وإن عرفهما بتواتر الأخبار وهذا ما لا محيص له منه)) [١] .

ثم يقال لهم أن مجموع الأفراد غير الفرد فالمجموع يقوى بعضها البعض ؛ ألا ترى إلى حزمة العصى لا تستطيع كسرها مجتمعة فاذا ما تفرقت كسرت كل واحدة على حدة .

وأما ما يقال عن مسألة الدور فإن اليقين الحاصل عن الخبر المتواتر يكون لمضمون الخبر بخلاف اليقين الذى يثبت به التواتر وهو ما يحصل عند السامع حتى يوقن بصدق ما يسمع فلا يتوقف أحدهما على الآخر ولا دور حينئذ .

وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول :

اختلف المتكلمون في دلالة [٢] المعجزة على صدق الرسول فمن قائل أنها دلالة عقلية ، وآخر أنها وضعية ، وثالث أنها دلالة عادية .

وقد اتفقوا على إستبعاد أن تكون الدلالة سمعية وذلك لأنه يستحيل أن تثبت صحة الأدلة السمعية قبل ثبوت المعجزة .

---

(١) إبى منصور عبد القاهر بن طاهر التميمى البغدادى أصول الدين ص١٨٠ .

(٢) الدلالة كون الشئ بحالة يلزم من العلم به العلم بشئ آخر أو هى فهم أمر من أمر ، راجع شرح القطب على الشمسية .

أما كونها دلالة عقلية لأن خلق الله الخارق على يد النبي على وفق دعواه مع وجود التحدى والعجز عن المعارضة يدل عقلا على أن الله يصدقه .

وقد اعترض على هذا بإن التصديق صفة للخارق - فيكون صفة الله حادثة كسائر الأفعال الحادثة .

ويجاب على هذا الإعتراض : بأن التصديق المراد به خبر عن الصدق وخبر الله تعالى أزلى ولا يصح أن يكون حادثا ولا صفة لحادث .

وأن التصديق الذى تعلقت به الإرادة هو التصديق لهذا الخارق فيكون خبره الدال على صدق رسوله مدلولا بهذا التصديق الحادث الذى هو متعلق الإرادة .

أما كونها دلالة وضعية : بمعنى أن الخارق وضع للدلالة على صدق الرسول على معانيها وكدلالة الإنسان على الحيوان الناطق - مثلا .

والقائلون بكونها عقلية أو وضعية أستدلوا على قولهم :

بأنه يستحيل صدور الخارق العجز على يد الكاذب لما يلزم من كونها عقليه نقص الدليل العقلى بأن يوجد ولا يوجد مدلوله . فيصير الدليل شبهة والعلم جهلا وذلك قلب الحقائق .

أما كونها وضعية فإنها لو صدرت من الكاذب لأدى ذلك إلى الخلف [١] في خبره تعالى . إذ تصديق الكاذب كذب والكذب محال عليه تعالى .

وحكم المواضعة في خبره تعالى حكم الكلام الصريح . فظهور الخارق على يد النبي كأن الله قال صدق عبدى فيما يبلغ عنى .

---

(١) التناقض وهو الإستدلال بصدق قضية من كذب قضية أخرى والعكس .

أما عن الثاني وهو استحالة الكذب على الله تعالى ، فيجاب عليه من ثلاث وجوه :

الأول : أن كل عالم يحدث نفسه حديثاً يطابق معلومه ، وهذا هو عين الخبر الصدق والله سبحانه عالم بالأشياء كلها، فيكون كلامه مطابقاً لمعلومه فاستحال عليه الكذب وهو الإخبار بالشئ بخلاف ما هو عليه ، لأنه لايكون في حقه إلا عن جهل ماهو عليه ذلك الشئ ، وذلك في حق من علمه ما لا يتناهى محال .

وقد اعترض على هذا : بأن الواحد يعلم شيئاً في نفسه ويخبر عنه بالكذب ويلزم من كذبه جهل .

يجاب عنه : أن هذا بالنسبة للمحل الذي قام به وهو خبر اللسان اللفظي أما كلامه النفسي فلا يكون إلا على وفق عقدة ؛ أي التصديق .

ولما كان الله سبحانه يستحيل عليه التركيب حتى يقوم العلم والصدق بمحل والكذب بمحل آخر ويستحيل عليه الوسواس والتقادير الحادثة .

الثاني : أن كل مخبر تجرد النظر إليه فإنه يصح من العالم به أن يخبر على وفق علمه فلو صح الكذب عليه تعالى لوجب أن يتصف بجائز وذلك يمتنع أن يتصف بضده وهو الصدق وهو محال .

الثالث : أنه قد يثبت اتصافه تعالى بالكمال والصدق صفة كمال وضدها نقص والنقص في حقه تعالى محال ، فوجب كونه صادقاً (١) .

الثالث : دلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة عادية (٢) :

---

(١) السنوسي : شرح السنوسية الكبرى ص٣٦٧ .

(٢) دلالة عادية كدلالة الحمرة على الخجل والصفرة على الوجل .

بحسب قرائن الأحوال فحيث حصل العلم الضروري عنـــها يصـــدق الآتي لأنه لو كان كاذباً لانقلب العلم الضروري جهلا .

ولم تجر العادة من أول الدنيا حتى الآن بأن مكن الكاذب من دعـــواه ومن حاول ادعاء النبوة كذباً فضحه الله كمسيلمة مثلا ، أو خيل بسحر فـإن الله يفضحه .

أما في المستقبل فإن النبوة قد ختمت فمن ادعى النبوة فلا يلتفت إليــه ولا إلى الخارق الذي ظهر على يديه .

ولا سبيل إليه إلا قطع رأسه بالسيف .

وهذا الرأي ذهب إليه كثير من المحققين منهم الأيجي فـــي المواقـف والسعد التفتازاني في المقاصد والباقلاني في التمهيد .

والذي نختاره أن المعجزة دلالة على صدق الرسول بكل هذه الوجـوه الثلاثة عقلية ووضعية وعادية .

فحيث ظهر الخارق على يد الرسول فيدل عقلا أن الله يصدقه بأن هذا الخارق دال على صدق الرسول مواضعة لم تجر عادة بتأييد الكاذب .

ولا ريب أن المعجزة دليل صادق على دعوى النبوة واثباتها وقد ذهب بعض المتكلمين إلى حصر الدليل في المعجزة فقط ومن هؤلاء :

إمام الحرمين الجويني فيقول : لا دليل على صدق النبي غير المعجزة [١].

ويرى التفتازاني أن النبوة قد تثبت بالمعجزة وغيرها فيقول : " هـــذا الكلام ينبغي أن يحمل على مايصلح للنبوة مطلقاً وإلا فإن النبوة قد تثبـــت

---

(١) الارشاد للجويني ص ٢٣١ .

بخلق الله العلم الضروري في الشخص المصدق وذلك كتصديق أبي بكر ﷺ للرسول ﷺ قبل ظهور معجزة له كما قد تثبت بأخبار نبي صدقه .

فجمهور أهل السنة متفقون على أن النبوة كما تثبت بالمعجزة قد تثبت بطرق أخرى غيرها إذ النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين وأكذب الكاذبين ومن هذه الطرق :

١ - العلم الضرورى بقرائن الأحوال للتمييز بين الصادق والكاذب فإنه من أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا وقد ظهر عليه من الجهل والفسق بما يفضحه الله به ويظهر كذبه للناس .
فالنبى يأمر بأمور ويخبر الناس بأمور ويفعل أموراً يبين بها صدقه .
والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه ما يفعله ما يبين به كذبه .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ((**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وأن البر يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**)) .

والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة في الصناعات والحرف والعلوم ، والنبوة هى أشرف الأعمال . فكيف يشتبه فيها الصادق بالكاذب ؟

وقد قيل : ((ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه)) .

فقرائن الأحوال دليل على صدق الرسول :

يقول الإمام الغزالي : ((فمن هذا الطريق أطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعباناً وشق القمر فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده لم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر بما ظننت أنه سحر وتخيل وأنه من الله اضلال [١] .

وقد عبر هذا غير الغزالي ((أنه يقصد محمداً ﷺ وقد اجتمع فيه من الأخلاق الحميدة والأوصاف الشريفة والسيرة المرضية ما لا يجتمع إلا لنبي [٢] .

وقد كانت هذه الأوصاف التى يتصف بها نبينا محمد ﷺ ما علمت به السيدة خديجة رضى الله عنها أنه صادق ، قال لها جاءه الوحى أني قد خشيت على نفسي فقالت: كلا – والله لا يخزيك الله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق [٣] .

ذلك لأنها علمت أن من كان مجبولا على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم لا يمكن أن يكون العارض له عارض سوء .

ومنه أيضاً ما استنبطه النجاشى دليلاً على صدق النبي لما استخبر المسلمين المهاجرين إلى بلاده وقرأوا عليه القرآن : ((قال إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة)) .

وكذلك ورقة بن نوفل حينما أخبره النبى بما رآه ، قال : هذا الناموس الذى كان يأتى موسى [٤] .

---

(١) المنقذ من الضلال ص١٣٩ تحقيق د. عبد الحليم محمود .

(٢) المقاصد ، التفتازانى ج٢ص٣٩ .

(٣) أخرجه البخارى من حديث عائشة .

(٤) أخرجه البخارى وهو من تمام الحديث الذى قبله .

وقالوا بالناموس الذى كان يأتي موسى ولم يذكر عيسى ، لأن رسالة عيسى عليه السلام وشريعته متممة لشريعة موسى وليست شريعه مستقلة كما أن المماثلة بين سيدنا محمد وبين موسى عليه السلام واضحة يعرفها لمن أراد المزيد في كتب الملل والنحل وقد كانت الجن أكثر معرفة بذلك عندما سمعت القرآن قالت : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ [١] .

ومن قرائن الأحوال الدالة على صدق الرسول ما عرف به هيرقل عندما استخبر عن أحواله ﷺ من العرب الذين كانوا في تجارة ببلاد الروم وقد كان النبي ﷺ قد كتب له رسالة يدعوه إلى الإسلام .

فسأل هيرقل أبا سفيان وأمر الباقين إن كذب يكذبوه فصاروا بسكوتهم موافقين له في الأخبار . قال هيرقل هل كان في آبائه ملكاً ؟

قال أبو سفيان : لا .

قال : هل قال هذا القول أحد قبله ؟

فقالوا : لا .

ثم سألهم عن نسبه فقالوا : ذو نسب .

ثم سألهم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فقالوا ما جربنا عليه كذبا .

وسألهم هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم فذكروا أن الضعفاء اتبعوه.

وسألهم هل يزيدون أم ينقصون ؟

فذكروا أنهم يزيدون .

وسألهم هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه ؟

فقالوا : لا .

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٣٠ .

فسألهم هل قاتلتموه ؟ قالوا : نعم .
سألهم عن الحرب بينه وبينهم، فقالوا يدال علينا وندال عليه أخرى .
وسألهم هل يغدر ؟ فذكرو أنه لا يغدر .
وسألهم بماذا يأمركم ؟
فقالوا : يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

ثم أخذ هيرقل يفند لهم الأدلة على صدق الرسول .

قال سألتكم هل كان في آبائه من ملك ؟ فقلتم لا فقلت لو كان في آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتكم هل قال هذا القول فيكم قبله فقلتم لا . قلت لو قال هذا القول أحد قبله لقلت رجل ائتم بقول قيل قبله . وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال . فقلتم لا ، فقلت قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على ثم يذهب فيكذب على الله تعالى . وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم فقلتم ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل يعنى في أول أمرهم ، ثم قال وسألتكم هل يزيدون أم ينقصون فقلتم بل يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم . وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه ؟ فقلتم لا. وكذلك الإيمان . إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد .

يقول صاحب العقيدة الطحاوية معلقا على هذا القول: ((وهذا من أعظم علامات الصدق والحق، فان الكذب والباطل لابد أن ينكشف في آخر الأمر فيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه والكذب لايروج إلا قليلا ثم ينكشف)) (١) .

(١) العقيدة الطحاوية ص١٦٢،١٦٣ .

ثم يقول هيرقل : وسألتهم كيف الحرب بينكم وبينه ، فقلتم أنـــها دول كذلك الرسل تبتلي وتكون العافية لها .

قال وسألتكم هل يغدر ؟ فقلتم لا – وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتكم عما يأمر به – فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشــركوا به شيئا ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وينهاكم عما كان يعبـد آباؤكم وهذه صفة نبي وكنت أعلم أن نبيا يبعث فيكم ولم أكن أظنه منكـــم ولوددت أنى أخلص إليه ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه . وإن يكــن ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين : وكان المخاطب بذلك أبو سفيان بن حرب وهو حينئذ كافر من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ، قال أبو ســفيان : فقلت لأصحابي ونحن خروج لقد أمر بن أبي كبشة أنه ليعظمه ملك بنــي الأصفر وما زلت موقنا أن النبي ﷺ سيظهر حتى أدخل الله على الإســلام وأنا كاره [١] . وبعد استقراء ما سبق نعلم علما يقينا أن رسل الله صادقون في دعواهم للنبوة وأن ما نقل من أحوالهم بطريق التواتر .

يقول الطحاوي : « ونحن إذا علمنا بــالتواتر مــن أحــوال الأنبيــاء وأوليائهم وأعدائهم – علمنا يقينا أنهم كانوا صادقين على الحق من وجــوه متعددة ، **منها** :

١ – ما أخبرهم الله به من نصرهم على أعدائهم وهلاك أعدائهم ومن ذلك ما حدث من إغراق المكذبين لنوح عليه السلام – وإغراق قوم فرعــون فذكــر سبحانه في قصص الأنبياء نبيا بعد نبي وفي سورة الشــعراء كقصــة

---

(١) الحديث بطوله من حديث أبى سفيان رواه البخارى وله عنده تتمة ، راجع أيضا سيرة ابن هشام والعقيدة الطحاوية ص١٦٤ .

موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده يقول آخر كل قصة . ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ [1] .

وقول النبي ﷺ : ((**ونصرت بالرعب من مسيرة شهر**)) وهذه خاصة نبينا ﷺ ، فقد علم أنه كان في الأرض من يقول إنه رسول الله وآمن بهم أناس وكذب الآخرون وإن الله نصر رسله وجعل العافية لهم وعاقب أعداءهم وهو من أظهر من العلوم المتواترة وأجلاها .

٢- ومن الدلائل على صدق الأنبياء :

أن ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها تبين له أنهم أعلم الخلق وأنه لأيحصل مثل ذلك من كذاب جاهل .

وأن ما جاءوا به من المصلحة والرحمة والهدى ودلالة الخلق على ما ينفعهم ودفع ما يضرهم دل أن ذلك لا يصدر إلا عن رحيم قاصد للخير والمنفعة .

٣- ومن هذه الأدلة ما ذكره ابن خلدون فيما يدل على صدق الرسول من غير المعجزة :

أنه يوجد لهم قبل الوحى خلق الخير والزكاة ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة كأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وأنها منافية لجبلته .

فقد جاء في الصحيح أنه ﷺ دعى إلى وليمة عرس ولعب فألقى الله عليه النعاس إلى أن طلعت الشمس ولم ير شيئا مما كان يحدث من لهو ولعب .

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٥٨،١٥٩ .

وعندما كان يحمل الحجارة وهو غلام معه عمه العباس لبناء الكعبة فانكشف شئ من إزاره سقط مغشيا عليه حتى استتر بإزاره .

وعندما أردت خديجة اختيار ما يأتيه حال الوحى قالت اجعلنى بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب عنه ، فقالت : أنه ملك وليس بشيطان .

معناه أنه يقرب النساء وكذلك سألته عن الثياب التى يأتيه فيها الملك فقال البياض والخضرة فقالت أنه الملك دالة على أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة .

هذه بعض الوجوه التى تدل على أنبياء الله تعالى من غير المعجزة الخارقة للعادة ما اشتهر به أقوامهم .

شبه المنكرين لدلالة المعجزة على صدق الرسول :

قد أثار المنكرون للنبوة شبهات حول المعجزة منكرين إياها وبالضرورة فإبطالهم أن تكون المعجزة دليلا على صدق النبى . فينكرون النبوة أصلا فضلا عن عدم ثبوتها عندهم ولهم على إنكارهم للمعجزات شبه نذكرها فيما يلي :

الشبة الأولى : قالوا فيها يحتمل أن يكون الخارق ليس فعلا لله تعالى وإنما هو من فعل المدعى الذى له مزاج خاص وعلم بخواص الأجسام ومطالع النجوم فيعتمد على تسخير الجن أو الملائكة ، والمقرون بالنبوة يقرون أيضاً بوجود هذه الأشياء وقدرتها على خرق العادة على يد السحرة مثلا .

الجواب عن هذا :

قد ثبت لدينا بالدليل القاطع أن الله هو الخالق للأشياء وإجراء المعجزة على يد النبي ليست من جنس ما يفعله السحرة وغيرهم فانقلاب العصا حية

حقيقة ، أما ما يفعله السحرة فهو أنهم سحروا أعين النـــاس وليـــس قلبــا للحقائق . وكذا الكهان وغيرهم فإنهم يخبرون بالأخبار الصادقـــة أحيانــا والكاذبة غالباً ، أما الأنبياء فالأخبار عندهم صادقة البتة .

الشبهة الثانية : قالوا فيها يحتمل أنه كان في الإمكان معارضته إلا أن المرسل إليهم لم يعارضوه – إما أنهم لم يستطيعون المعارضة . أو أنـــهم أرادوا أن يرفعوا من شأنه – أو أنه عورض ولكن لم ينقل إلينا .

الجواب عن هذه الشبهة :

أن المعجزة هى ما يتحدى بها ويعجز المعارضون عن الإتيان بمثلها ، ومن المعروف أن الرسول يأتى مخالفاً لما عليه عادة القوم مـــن الجهالـــة والسفه وهم أحرص الناس على تكذيبه – ولو قدروا لأعلنوا ذلـــك بكـــل السبل – والمتتبع لحياة الأنبياء يرى كيف كانت المعارضة لهم فالســـحرة أتوا من كل صوب متحدين وفرعون بجبروته يدعى الألوهية وهذا موســـى يريد أن يسلب من فرعون ادعاءه ومن السحرة مكانتهم ومنزلتهم فى أعين الناس ولكنهم عندما أدركوا أن مايأتى به موسى ليس سحرا قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

وسيدنا رسول الله ﷺ تحداهم في مصدر فخرهم وعزهم والتي كـــانوا ينصبون لها الأسواق المشهورة يتبارون فيها بالفصاحة والبلاغـــة ، فـــإذا محمد يعارضهم بما أعجزهم وأخرس ألسنتهم .

الشبه الثالثة : قالوا فيها يحتمل أن يكون خلق الأمر الخـــارق ليـــس بقصد تصديق مدعي النبوة وخصوصا وأن أهل السنة يقولون أن أفعال الله خالية عن الأغراض والمصالح .

أو يكون لغرض ولكنه يقصد اللطف بالشخص المدعي استجابة لدعوة رجل صالح أو اختبار للناس أو إضلالا لهم .

الجواب عن هذا :

أن الفارق بين المعجزة وغيرها واضح ومحال أن يظهر الله على يـد غير النبي أمراً خارقاً تأييداً في كذبه .

الشبه الرابعة : أن المعجزة لا تدل على صدق الرسول إلا إذا ثبتـت استحالة الكذب في أخباره تعالى ، وهذا لا يكون إلا بالدليل السمعي الـذي أتى به الرسول الذي ثبت صدقه فتكون المعجزة متوقفـة علـى صـدق الرسول ، وصدق الرسول متوقف على ثبوت المعجزة وهذا يـؤدي إلـى الدور .

ويجاب عن هذا : بأن إظهار المعجزة دليل على صدق الرسول مـن غير حاجة اعتبارا آخر – فلا دور .

وبهذا نكون قد أجبنا على بعض الشبهات التي تثار حول المعجزة .

أنواع المعجزات :

المعجزات تنقسم إلى أعداد كثيرة غير أنها في الجملـة ترجـع إلـى نوعين :

أحدهما : وجود فعل غير معتاد وهذا ضربان :

١- ما كان غير داخل تحت قدرة من هو معجزة له ولا قدرة غـيره من الخلق ولا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى وذلك مثل إيجاد الأشـياء مـن العدم وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص .. ونحو ذلك .

٢- ما لا يدخل تحت قدرة من هو معجزة فيه . وله على الوجه الذي أظهره الله تعالى وإن دخل مثل أبعاضه وجنسه تحت قدرة العباد بأن يكتسبوه في أنفسهم ويستحيل منه فعله في غيرهم لقيام الدلالة على إبطال التولد . وهذا مثل الكلام المنظوم نظم القرآن في فصاحته وبلاغته المفارقة لبلاغة البلغاء . وإن كان جنس العبارة ومفردات الألفاظ بعض أنواع التركيب منها مقدوراً للعباد .

الثاني : تعجيز الفاعل بشئ معتاد عن فعله مثل تعجيز زكريا عن الكلام ثلاث ليال بعد أن كان معتاداً له الدلالة على صحة ما بشر به [١] .

وعلى هذا نستطيع القول بأن المعجزة إما أن تكون قولاً أو فعلاً أو تركاً .

فالقول ما شمل الكتب السماوية المنزلة وفي الدرجة العليا القرآن الكريم وإن كان معظم الكاتبين يذهبون إلى أن المعجزة القولية خاصة بالقرآن وحده إلا أننا نرى أن الكتب السماوية باعتبار أنها كلام الله المنزل على أنبيائه وبما اشتملت عليه من أمور خارقة للعادة فإنها تكون معجزة . لكن ليست مما يتحدى به .

والفعل – كانقلاب العصا حية – وإحياء الموتى بإذن الله – ونبع الماء من بين اصابع النبي ﷺ والترك كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام – وعدم كلام زكريا ثلاث ليال عندما بشر بالولد .

وهناك تقسيم آخر للمعجزات باعتبار كونها حسية أو معنوية إلى قسمين [٢] .

---

(١) البغدادي – أصول الدين ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) هناك تقسيم آخر للمعجزات باعتبار ثبوتها .

١- مادية محسوسة ومرئية وملموسة . وهذا لمن عاصرها وشاهدها ونقلت بطريق التواتر – كانشقاق القمر. ورد عين قتادة بن النعمان . وهذا النوع من المعجزات يحدث وينقضي فلا تتجاوز آثاره الزمن الذي حدثت فيه ولا تبقى مع الأيام .

٢- المعجزات المعنوية وهي المعجزات التي لا تقع تحت بصر الإنسان وحسه ولكن يتم اخبار الرسول بها [١] وهذا مثل القرآن الكريم والإسراء والمعراج للنبي ﷺ .

معجزات الأنبياء :

معجزاتالأنبياء كثيرة جداً ومتعددة إذ هي إحدى الدلائل على صدقهم في دعواهم النبوة ولن يكون في مقدورنا حصرها وسنكتفي في حصر المعجزات لأنبياء الله عليهم السلام والتي كانت في جملتها مادية محسوسة انقضت بانقضاء وقتها ولولا أن القرآن الكريم هو معجزة نبينا ﷺ تحدث عنها لقال الناس عنها أنها ضرب من الخيال فثبوت معجزات الأنبياء بما تحدثت به المعجزة المعنوية لنبينا ﷺ [٢] .

أولاً : معجزات الأنبياء :

كان من مقتضى الحكمة الألهية أن يؤيد الله أنبياءه بالمعجزة الخارقة عن جنس ما اشتهر فيه القوم الذين بعث فيهم النبي . أو ما عاندوه فيه مكابرة فيكون عذابهم بما توعدهم به النبي معجزة له .

فمعجزة آدم عليه السلام : علمه الأسماء كلها من غير قراءة ولا تدريس .

---

(١) ما ثبت بطريق التواتر وهي المعجزات المعنوية .

(٢) ما ثبت بطريق الآحاد كباقي المعجزات .

قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَاآدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ .. ﴾ (١).

ومعجزة نوح عليه السلام الطوفان وخلاصه منه .

قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ (٢).

ومعجزة هود عليه السلام الريح وما كان من شأنها مع قوم عاد .

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ . تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ (٣) .

فكانت الريح تقلعهم من أماكنهم ، وروي أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فقلعتهم الريح وصرعتهم موتى فكأنهم حين تقلعهم الريح أعجاز نخل منقلع من مغارسه وساقط على الأرض وشبهوا بها لأنهم كانوا طوال الأجساد فكانت الريح تقلع رؤوسهم فتبقيهم أجساداً بلا رؤوس .

وكانت معجزة صالح الناقة والصيحة التي دمرت القوم .

فكانت الناقة من صخر لا من أبوين كما هي العادة – آية معجزة دالة على صدقه ولكنهم عتوا عن أمر ربهم وعقروا الذاقة – أي نحروها لأن الإبل تنحر وإنما قال عقروها لأن ناحر البعير يعقروه أولا ثم ينحروه .

---

(١) سورة البقرة الآيات : ٣١ – ٣٣ .

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) سورة القمر الآيات : ١٨ – ٢٠ .

فلما عقروها أخذتهم الرجفة عقاباً لهم على ما اقدموا عليه ، فأهلكتهم الزلزلة الشديدة . يقال رجفت الأرض إذا اضطربت وزلزلت ، وفي آية أخرى فأخذتهم الصيحة ؛ أي من السماء التي زلزلت بهم الأرض وكانوا باركين على ركوبهم أو مقيمين ، والمراد أنهم هامدون صرعى لا حراك لهم . يصور ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ** ﴾ (١) .

ومعجزة إبراهيم عليه السلام النجاة من النار . قال تعالى: ﴿ **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ** ﴾ (٢) .

ومعجزة موسى عليه السلام : اليد البيضاء وقلب العصا حية وسائر الآيات التسع . وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن الآيات التسع هي اليد البيضاء والعصا والطوفان ، والجراد والقمل والضفادع ، والدم والجدب والنقص في الثمرات (٣)، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** ﴾ (٤).

أما معجزة عيسى عليه السلام : فكانت من جنس ما نبغ فيه قومه وهو الطب فلما أنكر عليه اليهود دعوته جاءهم بما عجزوا عنه فكان إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وإنزال المائدة من السماء وأن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله .

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ٧٧ - ٧٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين مخلوف ص٣٧٢ .

(٤) سورة الإسراء الآية : ١٠١ .

وقد حكى القرآن معجزات عيسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿ **وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ (١) .

وكذلك كل نبي له معجزة مخصوصة واجتمعت لنبينا ﷺ جميع وجوه المعجزات التي تفرقت في الأنبياء .

* * * *

(١) سورة آل عمران الآية : ٤٩ .

معجزات نبينا محمد ﷺ

أوتي النبي ﷺ معجزات حسية وأخرى معنوية وكانت معجزته الكبرى هي القرآن الكريم معجزة معنوية له إذ المعجزات الحسية تنقضي بانقضاء وقتها ولا تفارق الزمان والمكان الذي حدثت فيه . أما المعجزة المعنويـــة فهي باقية إلى يوم القيامة .

أولاً : المعجزات الحسية :

ذكر ابن تيمية في آيات النبي ﷺ المتعلقة بالقدرة والفعـــل والتـــأثير أنواع : منها ما هو في العالم العلوي [١] : كانشقاق القمر وحراسة الســماء بالشهب الحراسة التامة ومعراجه إلى السماء .

١- فمعجزة انشقاق القمر : قد ثبتت بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وأجمع على لك أهل الحق في أن النبي ﷺ قد انشـــق لـــه القمــر نصفين ، قال تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ [٢]، وروي الإمام أحمد من حديث جبير بن مطعم ﷺ قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا سحرنا محمد وقالوا إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فاســألوا فإن شهدوا بما أبصرتموه فهو حق وليس سحراً ، فسألوا من كان مســافراً عن مكة من أهلها ومن غيرهم فأخبروهم أنهم رأوا ذلك فتمادوا في كفرهم وعتوهم ولم يؤمنوا .

---

(١) السفاريني : لوامع الأنوار البهية جـ٢ ص٢٩٣ .

(٢) سورة القمر الآية : ١ .

وهذه المعجزة اختص بها سيدنا محمد ﷺ عن سائر الأنبياء والمرسلين فلم تقع لأحد سواه ولم يشاركه فيها غيره ولا يفوقها غير القرآن الكريم .

يقول البغدادي : ((ولو لم يقع ذلك لقال أعداؤه متى كان هذا ؟))[١].

٢- نبع الماء من أصابعه ﷺ :

روي أن جماعة من الناس طلبوا ماء للوضوء فلم يجدوا فأتى النبي ﷺ بقليل من الماء فصبه في إناء ووضع يده في الإناء فصار يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فتوضأ العدد الكثير . ويذكر في بعض الروايات أنهم كانوا ثلاثمائة فرد .

٣- تسبيح الحصى في كفه ﷺ :

فقد روى ثابت أن أنس بن مالك قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من حصى فسبحن في يده حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن في يد أبي بكر فسبحن ثم في يد عمر فسبحن ثم في يد عثمان فما سبحن ثم في أيدينا فما سبحن [٢] .

٤- حنين الجذع :

وهو ساق النخلة الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ فلما صنع له المنبر انتقل إليه فسمع للجذع حنيناً وصوتاً عظيماً لفراق النبي ﷺ سمعه الحاضرون في المسجد فضمه الرسول إلى صدره فجعل يئن كأنين الصبي الذي تسكته أمه ، فقال له النبي : إن شئت رددتك إلى بستانك فينبت

---

(١) البغدادي : أصول الدين ص ١٨٢ .

(٢) شرح البيجوري على الجوهرة ص٤٢ .

غرسك أو أغرسك في الجنة ، فقال بصوت مسموع بل تغرسني في الجنـة فيأكل مني أولياء الله وأكون في مكان لا بلاء فيه ، فقال النبي ﷺ قد فعلت ثم قال اختار دار البقاء على دار الفناء وأمر به فدفن تحت المنبر . وكـان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى وقال يا عباد الله إن الخشبة تحن إلـى رسول الله فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه .

٥- إبراء المرضى :

ومنها رد عين قتادة بن النعمان الذي أصيب في عينه يوم أحد فسالت على خده فذهب إلى رسول الله وهو يحمل عينه في يده، فلما رآها الرسول بكى وقال إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت رددتها ودعوت لك فلـم تفقد شئ . فقال يارسول الله أخشى أن يعيرني الناس فردها وادعوالله إلـى ففعل النبي فكانت أحسن مما كانت .

وروي أنه كانت ترمد السليمة ولا ترمد التي أصيبت .

وغير ذلك من المعجزات الحسية التي وقعت على يد النبي ﷺ كنطق الضب وشهادته بأنه نبي الله .

وكنطق الشاة المسمومة يوم خيبر — ودرور ضرع شـاة أم معبـد . وكتسبيح العنكبوت وبيض اليمامة على غار حراء حتى لايراه المشـركون وغير هذا كثير مما لا ينبغي لأحد أن يشك فيها لأنها قـد وردت بطريـق التواتر والمتواترات من القضايا الضرورية التي لا ينازع فيها .

ثانياً : المعجزات المعنوية :

يذكر المؤرخون لكتب العقائد أنواعاً من المعجزات المعنويـة التـي يستدل بها على صدق نبينا ﷺ .

منها أولاً : الاستدلال بصورته وهيئته :

أن من ينظر في نفس النبي ﷺ وصورته وطلعته الشريفة وأفعاله التي كان يقوم بفعلها بخلاف ما جبلت عادة قومه من لهو ومجون وتعلق بالأصنام وبعده عن الفواحش الظاهرة والباطنة وسمو خلقه وأدبه حتى قال أدبني ربي فأحسن تأديبي ، ليدرك عقلاً أنه نبي صادق فيما يدعيه ، ولهذا عندما نظر عبد الله بن سلام في وجهه قال فلما رأيت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب .

من سمع كلامه ورأى أدبه لم يدخله شك في نبوته .

قال ابن الجوزي : وكان في صغره يعرف بالأمانة والصدق ، وجميل الأخلاق . وقال هيرقل في حديق أبي سفيان : ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى .

وقد نقل ابن تيمية عن نفطويه في تفسير قوله تعالى: ﴿ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ..** ﴾ [1] هو مثل ضربه الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول يكاد منظره يدل على نبوته وإن لم ينل قرآنا ، وكما قال عبد الله ابن رواجة :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالاخبر

ثانياً : البشارات في الكتب السماوية السابقة بنبينا محمد ﷺ ذكر القرآن أن الكتب السابقة قد دلت على الرسول باسمه ونعته الذي وصفه به فقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ**

---

(١) سورة القمر الآية : ٣٥ .

لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ .. ﴾ (١) ، وقد أخذ الله الميثاق على كل الأنبياء بأن يؤمن كل نبي بمحمد ﷺ وأن يبلغوا أقوامهم إذا أدركوا زمانه أن يكونوا ناصروه ومؤيدوه . قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٢) .

قال ابن عباس ﷺ ((ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ الله عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته)) (٣) .

ومن هنا ندرك بشارة التوراة والإنجيل ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. ﴾ (٤) .

وليت شعري أين نجد هذه البشارات وقد شوهت اليهودية ومن بعدها المسيحية التلمودية عد قصد وسوء نية — الآيات الدالة على اسمه صراحة ووضعوا رموزاً لا يفهمها إلا الأحبار والرهبان الضالعين في العقيدة منهم بأنها دالة على نبي الإسلام محمد ﷺ ، أما العامة فلا يفهمون ذلك .

يقول الإمام الجويني في كتابه شفاء العليل : فقد نطق الخبر اليقين في

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٥٧ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٨١ .

(٣) محمد على الصابوني - صفوة التفاسير جـ ١ ص٢١٤ .

(٤) سورة الصف الآية : ٦ .

صريح القرآن مبيناً نصوص التوراة والإنجيل على ذكر سيد المرسلين صلوات الله عليه ، وهذا السبب هو الحامل علماء الإسلام على القول بالتبديل [١] .

ويمكن أن نلقي بعض النصوص التي في التوراة (العهد القيم الآن) والإنجيل والتي تدل على الرسول محمد .

ففي سفر التثنية ، جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير . وتلألأ من جبال فاران [٢] ، **فمجئ الرب من سيناء إشارة إلى رسالة** موسى عليه السلام واشراقه عن ساعير إشارة إلى رسالة عيسى عليه السلام وساعير في بيت لحم الذي ولد فيه عيسى .

أما تلألأ من جبال فاران فإشارة إلى رسالة محمد ﷺ حيث جبال فاران إحدى سلاسل جبال مكة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأمكان الثلاثة فقال تعالى: **﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾** .

فإن التين والزيتون مشهور أنباتهما في أشرف بقعة في بلاد الشام وهي فلسطين – مولد عيسى ومهجر إبراهيم ومسرى النبي ﷺ .

وطور سيناء مكان مناجاة موسى .

والبلد الأمين مكة مكان ميلاد محمد ﷺ .

وفي الإنجيل قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب الحجر الذي رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجب

---

(١) الجويني : شفاء العليل ص٢٩ .

(٢) تثنية ٢٣ / ٢ .

لأعيينا كذلك أقول لكم أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطي لأمة تعمل على إثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يستحقه [١] .

فالمحققون يذهبون إلى أن الحجر الذي رفضه البناءون هو إسماعيل والذي كان محمد ﷺ من عقبه ونسله ، فقد هاجرت هاجر بابنها إسماعيل إلى جبال فاران حيث لا زرع ولا ماء وطمأنها الله ووعدها بأن يكثر من ذريتها وقد تحقق وعد الله وانتزعت ملكوت الله من نسل إسحاق وأعطى لنسل إسماعيل الذي كان منه النبي محمد ﷺ .

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : ((**مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويقولون ما أحسنه وأجمله إلا موضع هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**)) [٢] .

هذا بعض ما اشتملت عليه الكتب السابقة وهي تدل دلالة ظاهرة على التبشير والإشارة إلى نبوة محمد ﷺ صاحب الشريعة الحاكمة والخالدة والخاتمة للشرائع السماوية ، غير أن المقام لا يتسع لذكر هذه الإشارات .

ثالثاً : من المعجزات المعنوية الدالة على صدق سيدنا محمد ﷺ :

الإسراء والمعراج :

ثبت بالقرآن وبصحيح السنة النبوية أن الإسراء والمعراج قد وقعا ، وأنه أسرى بالنبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السموات العلى .

---

(١) متى ٢١/ ٤٢ : ٤٤ .

(٢) صحيح مسلم جـ١٥ ص٥ ط. المصرية .

والذي ذهب إليه أهل العلم من المحدثين والمفسرين والفقهاء والمتكلمين أن الإسراء والمعراج كانا يقظة بالجسد والروح معاً .

والدليل على ذلك : قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ .

والعبد عبارة عن الجسد والروح معاً إذ الإنسان معروف بأنه المركب من الجسد والروح .

كما أنه لو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة وذلك يؤدي إلى إنكار الملائكة وهذا كفر .

قال أهل الحق وهذا هو الحق من غير افتراء وعليه يدل القرآن نصاً وصحيح الأخبار إلى السموات استفاض استفاضة تكاد تبلغ التواتر أو بلغته ولا يعدل عن الظاهر في الأخبار الواردة في ذلك ولا عن الحقيقة المتبادرة إلى الأذهان من ألفاظها إلى التأويل إلا عند الإستحالة وتعذر حمل اللفظ على حقيقته وليس ، ثم استحالة تؤذن بالتأويل – فلا جرم وجب اعتقاده على ظاهره مع تفويض علم ما دق إلى الحق [١] .

هذا فيجب الإيمان بالإسراء والمعراج ومنكر الإسراء كافر لأنه أنكر أمراً أثبت بالكتاب والسنة ومنكر المعراج مبتدع لأنه خالف إجماع المسلمين وأنكر أمرا ثبت بالأحاديث المشهورة .

أوجه الإعجاز في القرآن الكريم :

القرآن هو المعجزة الكبرى المعنوية لسيدنا محمد ﷺ ، والقرآن الكريم هو كلام الله المنزل على عبده سيدنا محمد ﷺ المتعبد به المتحدي بأقصر سورة منه .

---

(١) السفاريني : لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٢٨٩ .

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

تحدى به فرسان البلاغة وأرباب البيان وأثار فيهم الحمية متواعداً إياهم بالنار وبين عجزهم وهذا التحدي لجميع الخلق وسمعه القاصي والداني ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٢) .

وقد سمي كتاب الله ويسمى بالقرآن المجيد وذلك لبيان أنه يعتني به في موضعين فلا سقة بقراءة قارئ ما لم يوافق المكتوب ولا ثقة بكتابه كاتب ما لم يوافق المقرؤ والمحفوظ في الصدور .

وقد تكفل الله بحفظه دون سائر الكتب السماوية الأخرى . قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) .

وذلك لما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتبديل على أيد اليهود والنصادرى كما أن الرسالات السابقة جاءت على التوقيت ، أما رسالة الإسلام فقد جئ بها على التأييد وختمها للرسالة السماوية .

والقرآن الكريم معجزة الرسول محمد ﷺ الكبرى .

وقد اختلف المتكلمون في أوجه الإعجاز :

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ٨٨ .

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعري جـ١ ص٢٧١ ، والآية ٩ من سورة الحجر .

١- فمنهم من أرجح الإعجاز إلى أنه جاء في الطبقة العليا من البلاغة والفصاحة الخارجة عن العادة في نظم الخطب والشعر المزدوج من الكلام ، وهذا القول ذهب إليه المعتزلة إلا النظام – وعباد بن سليمان وهشام الفوطي [١] ونحو ذلك يقول الإمام محمد عبده ((نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترات الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب وأغزرها مادة في الفصاحة وأنفس ما كانت تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء)) [٢] .

وقد تحداهم القرآن الكريم فعجزوا عن المعارضة ولو استطاعوا وحدث ذلك منهم لكان نقل بطريق التواتر كما نقل غيره .

كما أنهم لو استطاعوا أن يعارضوه أو يعارضوا سورة منه لكان ذلك أهون عليهم من الحروب التي تذهب صيحتها صناديهم وأبطالهم .

٢- ومنهم من ذهب – القاضي الباقلاني – إلى أن أوجه الإعجاز ما انطوى عليه من الأخبار الماضية وسير الأوليين وما شجر بينهم ومما لا يجوز حصول علمه إلا لمن كثر لقاؤه لأهل السير ودرسه لها وعنايته بها في مجالسته .

ومعروف أن النبي ﷺ لم يجلس إلى معلم يتعلم منه ولا قرأ كتابا من قبل ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [٣] .

---

(١) الأشعري - مقالات الإسلاميين جـ١ ص٢٧١ .

(٢) محمد عبده - رسالة التوحيد ص١١٤ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٤٨ .

فمن كانت هذه حالته مع إقامته بينهم دل ذلك على أن المخبر عن هذه الأمور هو الله تعالى .

الثاني من الوجهين الذي ارتضاهما الباقلاني هو ما انطوى عليه من الأخبار بالأمور المستقبلية التي يعلم كل عاقل عن معرفتها التوصل إلى إدراكها مثل قوله تعالى: ﴿ الم . غُلِبَتْ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ﴾ (١) .

وقد كان وحدث أن انتصرت الروم على الفرس بعد هزيمتها في الماضي البعيد ، وقوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ .. ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (٣) .

وإخباره عن اليهود بأنهم لن يتمنوا الموت وامتناع النصارى عن المباهلة في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (٤).

الرأي الثالث من أوجه الإعجاز القول بالصرفة :

وهو ما ذهب إليه النظام من المعتزلة والشريف المرتضى من الشيعة وابن حزم الأندلسي وقال السنوسي وهو قول لأبي الحسن الأشعري .

---

(١) سورة الروم الآيات : ١ – ٤ .

(٢) سورة الفتح الآية : ٢٧ .

(٣) سورة القمر الآية : ٤٥ .

(٤) سورة آل عمران الآية : ٦١ .

أما وجهة نظر النظام إلى القول بالصرفة أي أن الله صرفهم بأن صرف دواعيهم إلى المعارضة مع توفر الأسباب الداعية للمعارضة خصوصاً بعد التحدي والتبكيت بالعجز [١] .

ويرى النظام أنه كان يجوز أن يقدر العباد على التأليف والعجز لولا أن منعهم الله بمنع وعجز أحدثهما فيهم [٢]؛ كذلك ذهب النظام إلى أن الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الأخبار عن الغيوب .

فوجه إعجاز القرآن لدى النظام من حيث الأخبار عن الأمور الماضية والآتية . ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب عن الإهتمام به خبراً وتعجيزا حتى لو خلاهم وكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما [٣] .

وقد وافق النظام على رأيه الفقيه الأندلسي ابن حزم في كتابه الفصل، فيقول : ((ولم يقل أحد في أن كلام الله غير معجز لكن لما قال الله تعالى وجعله كلاما له آصاره معجزاً ومنع من مماثلته ؛ ثم قال وهذا برهان كان لا يحتاج إلى غيره)) [٤] .

أما الشريف المرتضي فيرى بأن الله قد سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله ومؤدي كلامه وأنهم أوتوا القدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة فهم قادرون على النظم

---

(١) الأيجي المواقف ص٥٧٧ .

(٢) الأشعري مقالات الإسلاميين ص٢٢٥ .

(٣) الشهرستاني الملل والنحل جـ١ ص٣٩ .

(٤) الشيخ أبو زهرة ص٨٠ المعجزة الكبرى .

والعبارات لكنهم عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن بسبب أنهم سلبوا العلوم التي يستطيعون بها محاكاة القرآن في معناه [١] .

ومن المتكلمين من ذهب إلى أن وجه الإعجاز في القــرآن الكريـم راجع إلى عدم تناقضه مع طوله وتصديق بعضه بعضاً فهو من لدن حكيم خبير ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَـنزِيلٌ مِـنْ حَكِيـمٍ حَمِيدٍ ﴾ [٢] .

ومنهم من ذهب إلى أن إعجازه في موافقته لقضايا العقول [٣] .

والحق الذي نراه أن القرآن الكريم معجز من كل هذه الوجــوه وأن الإعجاز في القرآن الكريم إعجاز ذاتي وأن فصحاء العرب وبلغائهم كـانوا يتعجبون من حسن نظمه وعلو بلاغته وسلاسة ألفاظه وجزالة أسـلوبه ، فلما لم يجدوا للطعن سبيلا قالوا إن هو إلا سحر يؤثر وهذا جواب العقـل المبهوت الذي يعجز عن محاجة خصمه وقد نطق أحدهم قـائلا : إن لـه لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو ولا يعلى عليه .

الجواب على شبهة القائلين بالصرفة :

النظام يرى أن الله صرف العرب عن المعارضة ولم يتوجهوا إليـها مع قدرتهم على المعارضة ، والشريف يرى أن الله سلب العلوم التي يمكن بها المعارضة .

---

(١) السفاريني – لوامع الأنوار البهية جـ ١ ص ١٧٤ .

(٢) سورة فصلت الآية : ٤٢ .

(٣) السنوسية الكبرى ص٢٧٩ تحقيق د. عبد الفتاح بركة .

والجواب على هذا :

أولا : أن القول بالصرفة باطل ولم ينقل أن العرب كانت لديهم القدرة على المعارضة ولكن المتواتر أن القرآن معجز إعجازاً ذاتياً .

قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾** (١) .

وقوله تعالى: **﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾** (٢) .

يقول القرطبي إن القول بالصرفة مناقض لإجماع الأمة الذى انعقد قبل وجود القائلين بالصرفة على أن إعجاز القرآن ذاتي)) (٣) .

كما أنه يمكن أن يقال أن الواقع التاريخي للعرب يكذبهم لأنه لو كانوا قادرين على المعارضة ما توجهوا إلى الحروب وتحمل الأهوال والصبر على القتل وألم الجراح إذ أن حرب اللسان أخف وطأة من حرب السنان .

ثم أنهم توجهوا إلى أبي طالب ليفاوضه في شأن ابن أخيه الذي سب آلهتهم وسفه أحلامهم عارضين في مقابل ذلك أغلى وأنفس شئ لديهم حتى ولو كان أحد أبنائهم المغاوير ، ثم أنهم جمعوا الجيوش لخوض المعارك يقدمون أنفسهم وأبناءهم وقوداً له والقضاء على محمد ﷺ ودعوته كل هذا كان يكفيهم مؤنته معارضة أقصر سورة من سور القرآن الكريم .

أما عن قول أن الله قد سلب من العرب العلوم التى يحتاجون إليها في المعارضة . معنى ذلك أن العرب كانت لديهم علوماً ، فلما نزل القرآن سلبت منهم هذه العلوم التى كانوا يستطيعون بها المعارضة .

---

(١) سورة الرعد الآية ٣١ .

(٢) سورة الحشر الآية ٢١ .

(٣) تفسير القرطبي جـ ص٦٦ .

أين هى العلوم التى كانت قبل البعثة ؟ بل أين أساليبهم وأشعارهم التى يستطيعون أن يحاكوا بها القرآن ؟ ولماذا لم يلجأوا إلى أساليب القدماء منهم وعارضوا به القرآن إن كانت عندهم من قبل ؟

يقول الفخر الرازى مبينا ضعف الرأى القائل بالصرفة :

« إن عجز العرب عن المعارضة لو كان لأن الله أعجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن ، بل كان يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم . بعد أن كان مقدوراً عليه لهم كما أن نبيا لو قال معجزتي أن أضع يدى على رأسي هذه الساعة ويكون ذلك متعذرا عليكم ويكون الأمر كما لم يكن بل من تعذر ذلك عليهم علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسها وبطل ما قاله النظام [1] .

ثم يذكر اعتراضا على القول بالصرفة فيقول : إن العرب لو كانوا بحيث متى قصدوا فعل المعارضة افتقدوا العلوم التي لابد منها فيها لوجب أن يعلموا ذلك أنفسهم بالضرورة وأن يميزوا بين أوقات المنح وأوقات التخلية ولو عملوا ذلك لتذاكروه ولذاع وانتشر [2] .

هذا ؛ وقد عارض جل المتكلمين القول بالصرفة ومن هؤلاء الجرجاني والزمخشري وغيرهم .

وقد ثبت أن القرآن الكريم المعجزة الكبرى التي أوتيها سيدنا محمد ﷺ وهو الحجة الدامغة على المكذبين والجاحدين إلى يوم القيامة ، وأن

---

(١) الفخر الرازى نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص٧ ط القاهرة ١٣١٧هـ .

(٢) الفخر الرازي : نهاية العقول جـ٢ ص١٢٧ مخطوط دار الكتب المصرية رقم (٧٤٨) توحيد .

إعجازه ذاتي تحدى به الثقلين ومازال التحدي قائما ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

عموم بعثة النبي محمد ﷺ وختمها للرسالات السماوية :

لقد اختص الله سيدنا محمد ﷺ بخصائص دون سائر الأنبياء منها تفضيله على جميع الأنبياء ، وبأنه مرسل إلى جميع الأنام . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١) .

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٢).

وما يدل على عموم رسالته ﷺ قوله عليه الصلاة والسلام : ((**فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون**)) (٣) .

وجمهور المحققين على أنه مرسل إلى الإنس والجن بالإجماع واختلفت في إرساله إلى الملائكة على قولين :

أحدهما : أنه لم يرسل إلى الملائكة . قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين ((ونجزم بأن محمداً ﷺ رسول إلى الإنس والجن كافة)) ، وقال القاضي أبو يعلي : وأنه ﷺ خاتم الأنبياء وأفضلهم .

---

(١) سورة سبأ الآية : ٢٨ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٥٨ .

(٣) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ وقال حديث حسن صحيح جـ١ ص٢٩٣ .

الثاني : أنه مرسل إلى الملائكة وإليه ذهب السيوطي في الخصائص والسبكي قبله . وقالوا أنه ﷺ مرسل إلى جميع الأنبياء والأمم السابقة وأن قوله ((**بعثت للناس كافة**)) من لدن آدم إلى قيام الساعة .

يقول البيجوري: ((والتحقيق أنه مرسل لجميع الأنبياء والأمم السابقة لكن باعتبار عالم الأرواح فإن روحه كلها وأرسلها الله لهم فبلغت الجميع والأنبياء نوابه في عالم الأجسام)) (١) .

ويؤيد هذا الرأي قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ (٢) .

وزاد بعض المحققين في أنه مرسل إلى الحيوانات واستدل بشهادة الضب .

أما عن إرساله للملائكة فإننا نؤيد ما ذهب إليه البيجوري بأنه مرسل إليهم إرسال تشريف .

أما عن عموم رسالته فإنه لايشك في ذلك مسلم ومن نفي عموم رسالته فقد كفر؛ قال عليه الصلاة والسلام : ((**والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن إلا دخل النار**)) (٣) .

---

(١) شرح البيجوري على الجوهرة ص٣٨ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ٨١ .
(٣) مسند الإمام أحمد بلفظ من سمع من أمتي أو يهودي أو نصراني ولم يؤمن لم يدخل الجنة . رواه سعيد بن جبير جـ٤ ص٣٩٦ ط. دار الفكر .

وفيما أخرجه الشيخان من حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ أنــــه قال : ((**أن لي أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي يمحو الله بـــي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليــس بعده نبي**)) .

فقد ثبت أنه ﷺ خاتم النبيين والمرسلين فلا نبوة ولا رسالة بعده وقــد ترك تراثا هائلا يحمل الهداية للبشرية ونذيراً لمن عصى واستكبر وهـــو القرآن الكريم آخر الكتب السماوية . قال تعالى : **﴿ وَأُوحِيَ إِلَـــيَّ هَـذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾** (١) .

أما شبهة من يقول بأن عيسى عليه السلام قد رفع وسينزل إلى الدنيا بعـــد محمد فلا تكون شريعته خاتمة الشرائع ولا خاتمة الرسالات

فالجواب عن ذلك : بأن عيسى سينزل حاكماً بشريعة محمد ﷺ وداعيــاً إليها ومتبعاً لنبيها محمد ﷺ هو الذى أخبر بذلك ولا يخفي على كل عـــاقل أنه يخبر بذلك وهو كما يدعون ناسخ لشريعته وقد أخبر من قبل أنه لا نبي بعده وشريعته خاتمة الشرائع . كما أن عيسى جاء تبعا لشريعة موسى وقد قال النبي ﷺ في حق موسى : ((**كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى**)) .

وفي أخبار النبي ﷺ عن نزول عيسى حاكما بشريعة الإسلام ما رواه سعيد بن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((**يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا . يقتل الدجال ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ويفيض المال وتكون السجدة لله رب العالمين**)) (٢) .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٩ .

(٢) صحيح البخارى عن أبي هريرة – باب كسر الصليب وقتل الخنزير – جـــ٢ ص٣٤٢ ط . الشعب .

وعموما رسالته ﷺ قد اختص بها من دون سائر الأنبياء ، قبله كانوا يرسلون إلى قبيله أو شعب معين وفي زمن محدود من غير أن تقم رسالتهم أحد غير المرسل اليهم . لا من الإنس ولا من الجن . ولا يقال أن سليمان عليه السلام قد سخر له الجن .

والجواب : أن تسخير الجن لسليمان كان تسخير ملك وسلطنة لا تسخير نبوة ولهذا لما خر سليمان أى سقط من فوق عصاه التى كان يتوكأ عليها ندموا على ما فعلوا مجبرين وفي نفس الوقت كان سليمان قد فارق الحياة قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾ (١) .

ولا يقال أن تعميم البعثة ليس خاصا بالنبي ﷺ بل مثله نوح عليه السلام فقد كان مبعوثا لجميع من في الأرض بعد الطوفان .

والجواب : أن تعميم بعثة نوح ليس من أصل البعثة بل أنها أمر اتفاقي إذ لم يسلم من الهلاك إلا من كان معه في السفينة فالعموم صار ثانيا . أما عموم رسالة سيدنا محمد ﷺ فقد كان من أصل البعثة وكما أن بعثة نوح لم تكن عامة قبل الطوفان . فيكون بعض المفرقين لم يرسل إليهم وإنما جاء عن طريقة النقمة قال تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** ﴾ (٢) ويمكن أن يقال أن التعميم كان خاصا برميه فقط على رأى من تمسك بتعميم بعثته .

ثم إن نوح لم يرسل إلى الجن ، وأما رسالة سيدنا محمد ﷺ فهو إلى الثقلين الإنس والجن . قال تعالى : ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ**

---

(١) سورة سبأ الآية ١٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٢٥ .

الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ (١)

والحاصل أن نبينا ﷺ مبعوث إلى الثقلين بالإجماع ورسالته مطبقة لجميع الأكوان وقد أرسل النبي إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام وعندما أرسل إلى كسرى كتابه مزق الكتاب ثم بعث بحفنة من تراب، فقال النبي ﷺ لقد بعث إلينا بتراب ملكه وسنملك أرضه وقد كان وتحقق وعد نبيه وفتحت هذه البلاد وأصبحت تحت سيطرة المسلمين من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقول النبي ﷺ : ((**زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيملك ملك أمتي ما زوى لي منها**)) (٢) .

فقد تحقق ما أخبر به النبي ﷺ وانتشر دينه ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

المنكرون لبعثته ﷺ :

مع وضوح الدلائل الصادقة الدالة على نبوته ﷺ وأن أهل الكتاب يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم ، ولكننا نجد فيهم من ينكر نبوته ﷺ عناداً وجحوداً ، ومن هؤلاء اليهود والنصارى .

أما اليهود : فينكرون عدم وجود رسالة بعد موسى، ولذا فهم ينكرون بعثة محمد ﷺ وبعثة عيسى عليه السلام .

وأما النصارى : فينكرون وجود بعثة نبي بعد عيسى عناداً وحسداً من عند أنفسهم وكلا الفريقين على خطأ وضلال يعرفونه في أنفسهم قبل

---

(١) سورة الجن الآية ١ .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده عن ثوبان رضي الله عنه جـ٥ ص٢٧٨ ط. دار الفكر .

غيرهم . قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وهانحن سنورد شبههم ونرد عليها :

١- اليهود وهم طائفتان :

الطائفة الأولى : تنكر بعثة الأنبياء الذين أتوا بعد موسى على الإطلاق ولهم في ذلك شبه ثلاث :

أولها : وهي خاصة بسيدنا محمد ﷺ قالوا فيها : أن بعثة محمد ﷺ تقتضي نسخ شريعة من قبله والنسخ محال لما يلزم عليه من الجهل والبداء أو الترجيح بلا مرجح وعلى كل يكون النسخ محال . أما حالة الجهل فإن أحكام الله لا تخلو عن المصلحة ، فإن كان الله لا يعلم المصلحة في الحكم المنسوخ فذلك الجهل . وإن كان يعلمها فرأي رعايتها أولا ثم أهملها بتغير الأحكام فذلك البداء أي الندم عما كان يفعل . وإن كان لا يعلم ثم علم المصلحة في الحكم الثاني فذلك البداء (٢) .

الجواب عن ذلك :

قبل الإجابة عن الشبهة نعرف النسخ بأنه خطاب الله المتعلق بحكم شرعي مستمر حتى يرد ناسخ له . ونقول بعد ذلك إن النسخ بهذه الكيفية ليس محالا لأن خطاب الله لابد وأن يتعلق بسلامة الفعل عن الفساد ، وعلى ذلك فإن الشرائع مصلحة للعباد . وقد ثبت عقلا أن الشرائع تختلف من قوم إلى قوم ومن زمن إلى زمن وعلى هذا يرد الناسخ فالله يعلم

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٤٦ .

(٢) المواقف جـ٦ ص٢٦١ .

المصلحة في الحكم الأول الملائم لقوم وأقت في علمه الأزلي الحكم لأجل هذه المصلحة ، حتى جاء قوم آخرون لا تلائمهم المصلحة بل تناسبهم غيرها وهو يعلم ذلك أزلا فليس هناك جهل ولا بداء ولا بذاء .

ثانياً : أن النسخ قد ورد في شريعة موسى أليس هي ناسخة لشريعة آدم وشريعة إبراهيم قبلها ، فقد كان في شريعة آدم يجوز زواج الأخ بأخته مع أنها محرمة في شريعة موسى .

ثم إن الله قد أحل لآدم كل ما دب على وجه الأرض وقد حرم على اليهود بعض الأشياء . قال تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنْ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (١) .

الشبهة الثانية : وهي تنكر بعثة أي نبي بعد موسى وقالوا فيها أن موسى إما أن يصرح بدوام دينه أو بعدم دوامه أو يسكت ، ولا جائز أن يصرح بعدم دوام دينه لأن ذلك من الأمور العظيمة والتي تتوفر الدواعي لنقلها ولاسيما من الخصوم .

ولا جائز أن يسكت ، لأنه يقتضي أن يثبت مرة واحدة لأن المطلق يتحقق بالمرة الواحدة وأنه معلوم الانتفاء لثبوته إلى أوان النسخ باتفاق .
وإذا بطل هذان الأمران بقى الأمر الأول وهو أن موسى صرح بدوام دينه.

الجواب عن هذه الشبهة :

ونحن نختار أن موسى قد صرح بدوام دينه إلى وقت ظهور الناسخ على يد نبي يأتي بعده ولم ينقل ذلك لقلة دواعي النقل حيث قتل وشرد من

(١) سورة الأنعام الآية : ١٤٦ .

اليهود الكثير كما أن التوراة التي نزلت على موسى لا وجود لها فقد حرقها بختنصر ، وليس من مصلحتهم إظهار ما في التوراة الأصلية ، وقد ذكر أهل العلم وجود ثلاث نسخ للتوراة يخالف بعضها البعض .

الشبهة الثالثة : ويسمى هذا الدليل بدليل الافتراء قالوا فيها أن موسى صرح بعدم نسخ شريعته حيث قال : ((عليكم بالسبت مادامت السموات والأرض))[١]، وقوله شريعتي لن تنسخ[٢] .

الجواب عن هذه الشبة :

يمنع أن يكون موسى صرح بذلك وأخبر به وأن ذلك من اختلاقات ابن الراوندي اليهودي حتى ظنه اليهود أنه خبر صحيحاً ، ولو كان خبراً صحيحاً لاحتج به اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وأغناهم ذلك عن محاربته . ولم يدخل أحد منهم في الإسلام ، كما أن التوراة قد بدلت وحرفت ونسبة ما فيها إلى موسى باطل باعترافاتهم وبتناقضها . أما وقد صرح الرسول ﷺ على ملأ وسمعه اليهود المعاصرين ولم يعارضوا لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي[٣] ولم يحتج أحد منهم عليه .

<u>الطائفة الثانية</u> : وهي طائفة العيسوية من اليهود :

وهي تعترف بنبوة محمد ﷺ ولكن للعرب فقط واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ** ﴾[٤] ومحمد عربي فأرسل إلى مثله من العرب .

---

(١) المواقف ، الإيجي جـ١ ص٢٦٢ .

(٢) الأصول الخمسة ص٥٧٦ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٤٦ .

(٤) سورة إبراهيم الآية : ٤ .

الجواب عن ذلك : بأن محمداً أرسل بلسان قومه الذين بعث فيهم وأمته أوسع من قومه ولذلك لم يقل القرآن الكريم بلسان أمته ، بل قال بلسان قومه وهم أخص من أمته . ثم يقال لهم قد اعترفتم بأنه نبي والنبي لا يكذب ، وقد صرح بأنه مرسل إلى الناس كافة . قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ ..** ﴾ [١] وقوله عليه الصلاة والسلام : ((**إنما بعثت إلى الأحمر والأسود**)) [٢] .

٢- النصارى المنكرين لبعثته ﷺ :

فمبنى إنكارهم على الطعن في القرآن الكريم في كونه من عند الله إذ قالوا فيه أنه من تأليف محمد ومن ابتكاره وبذلك لا يكون نبياً مرسلاً ومازالت النصارى تحاول تشويه هذه الحقيقة الكبرى بأن القرآن الكريم معجزة الرسول الخالدة وأنه من عند الله وليس لمحمد فيه أي دخل ﴿ **قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ [٣] .

ويمكن أن يقال إن أكابر أساقفهم دعوا إلى المباهلة ولكنهم خافوا على أنفسهم وامتنعوا عن مباهلة الرسول ﷺ ، قال تعالى: ﴿ **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ [٤] .

---

(١) سورة سبأ الآية : ٢٨ .

(٢) رواه مسلم بشرح النووي في كتاب المساجد وموضع الصلاة عن جابر بن عبد الله جـ٢ ص١٥٢ ط. الشعب .

(٣) سورة يونس الآية : ١٦ .

(٤) سورة آل عمران الآية : ٦١ .

فقال بعضهم لبعض : إنكم تدركون أنه نبي ولو بأهلكم لـــترك بكـــم العذاب .

ثانياً : أن النبي ﷺ كانت تنزل به الحوادث الجسام ولا يســـتطيع أن يقول في ذلك رأياً حتى يأتيه الوحي من السماء أليست حادثة الإفك كـــانت كافية بأن تحرك فيه حميته ليدافع عن عربته وعرضه لو كان القرآن مـــن عنده .

ثالثاً : أنه هو نفسه نسبه إلى الله تعالى والإنسان يسرق مـــا لغـــيره وينسبه إلى نفسه . فكيف بمن هو مصدر فخره إذا كان من عند نفسه ينسبه إلى غيره .

رابعاً : أنه جاء في القرآن : ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْـضَ الأَقَـاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِـنْ أَحَـدٍ عَنْـهُ حَاجِزِينَ** ﴾ (١) .

وهذا توعد ووعيد فكيف يتوعد الإنسان نفسه إذا كان القرآن من عنـد محمد ﷺ .

ولكنهم قوم قد أعماهم حقدهم وعصبتهم فيأتوا يكيدون للإسلام وأهلـه ليردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر.

* * * *

---

(١) سورة الحاقة الآيات : ٤٤ - ٤٧ .

مقدمات

من مباحث السمعيات

السمعيات : هي أحد أقسام ثلاثة أساسية تختص ببحثها كتب العقائد في الإسلام والقسمان الآخران هما الإلهيات والنبوات .

والسمعيات : جمع سمعية ، نسبة إلى السمع بمعنى مسموعة من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول .

والمقصود بالسمع هنا الشرع المتلقي بالوحي، ومن ثم فالسمعيات هي الأمور المستفادة من الشرع أو التي لا تعلم إلا من جهة الشرع ، فالشرع هو الذي أخبر بها ولا سبيل للعقل إلى الاستقلال بمعرفتها وإن كانت تدخل في دائرة الإمكان العقلي ، أي أنها ثابتة سمعاً واجبة شرعاً حكم العقل بإمكانها ، ويشير إلى هذا الإمام الغزالي: ((وأما المعلوم بمجرد السمع فتخصيص أحد الجائزين بالوقوع فإن ذلك من مواقف العقول [1]، وإنما يعرف من الله تعالى بوحي وإلهام [2]، والعقائد السمعية جميعها أمور مغيبة لا تدخل في نطاق العالم الطبيعي المشاهد ، بل تدخل في العوالم الغيبية وهي لذلك لا تنال بالمعرفة الحسية ونصيب العقل فيها أنه يجوزها .

والشرع هو الذي يقررها ويقضي فيها ، فالأصل فيها الشرع والعقل مجوز .

والسمعيات كما قرر القرآن وسنة النبي ﷺ متعددة منها ((سؤال القبر)) عذاب ونعيم القبر، ضغطة القبر، البرزخ ، الصور، البعث ، الحشر –

---

(١) أي : مما تتوقف فيه العقول فلا تحكم بإيجاب أو استحالة بل تحصره في دائرة الإمكان .

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد . أبو حامد الغزالي ص ١٠٧ .

الحساب – السؤال – الشفاعة – الميزان – الصراط – الحوض – الجنة والنار – الملائكة – الجن والشياطين ، قراءة الكتب ، شهادة الأعضاء – العرش – الكرسي – اللوح – القلم .

وكل ذلك من الأمور الممكنة في ذاتها وكان خبر الصادق المصدوق ﷺ مفيداً للعلم بوجوبها وصحتها فلا دخل للعقل في الوصول إلى الإيمان بها .

أما تسميتها بالغيبيات فلأنها أمور غائبة عنها ولا أثر لها في حياتنا ، يدلنا عليها دلالة قطعية ومن حيث أن الوقوف مع أمور السمعيات بالتفصيل المناسب لا يتسع له المقام هنا ، فقد رأينا الاقتصار على بعضها وما يستلزمه من ابحاث ممهدة فجاء البحث مركزاً على النقاط التالية :

إمكان الآخرة :

يعد الإيمان باليوم الآخر في الإسلام جزءاً لا يتجزأ من الإيمان بالدين الإسلامي ذلك أن عقيدة الإيمان باليوم الآخر تشكل ركناً أساسياً من أركان الإيمان بالإسلام ككل وتكون أصلا من الأصول التي تستند إليها العقيدة الإسلامية ، فمن أهم الحقائق التي يدعونا الدين إلى الإيمان بها فكرة الآخرة والمراد أن هناك عالم آخر غير عالمنا الحاضر وسوف نعيش في ذلك العالم خالدين (بعد أن ينتهي عالمنا هذا) وأن عالمنا هذا هو مكان الاختبار والامتحان وجد فيه الإنسان لأجل معلوم فليست هذه الحياة التي نحياها نهاية المطاف ولا غاية الرحلة البشرية ، بل هناك حياة أخرى وراء الحياة الدنيا يعيد الله فيها البشرية كلها إلى الحياة مرة أخرى لا يتخلف منهم أحد ولا يشرد على الله شارد ﴿ **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**

إلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عدًا. وكُلُّهُمْ آتيه يوْمَ الْقِيَامةِ فَرْدًا ﴾ (١) .

فالدنيا إلى زوال ولا يدوم إلا وجه الله .

وكثيراً ما كان الخليفة عمر بن الخطاب يتمثل بهذه الأبيات :

لا شئ مما ترى تبقـى بشاشتـه
يبقى الإلـه ويفنى المـال والولـد
لم تغن عن هرمـز يومـاً خزائنه
والخلـد قد حاولت ـاد فما خلـدوا
ولا سليمـان إذ تجري الرياح لـه
والإنـس والجـن فيما بينهمـا ترد
أين الملـوك التي كانـت لعزتهـا
من كـل صـوب إليها وافـد يفـد
حـوض هنـاك مـورود بلا كذب
لابـد مـن ورده يومـاً كمـا وردوا

هذه الحقائق لا تختلف عليها الأديان والنصوص في هذا الشأن كثـيرة ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ (٢) .

أما الماديون فهم لا يؤمنون بالآخرة ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة مريم الآيات : ٩٣ – ٩٥ .
(٢) سورة الضحى الآية : ٤ .
(٣) سورة الجاثية الآية : ٢٤ .

هؤلاء وقفوا عند الحياة الدنيا لا يشعرون بحياة أخرى لما لاذوا بالمال واعتصموا بالحس وقالوا بأزلية وأبدية الكون ، وأساس معتقدهم مبني على الظن والتخمين .

ولتقديم أساس لما دعت إليه الأديان خاصاً بالآخرة في مواجهة المنكرين إياها في القديم والحديث نقف مع قضية الآخرة مؤكدين على إمكانها ، فإذا نجحنا في ذلك انفسح المجال أما العقل للإقرار بأمور الآخرة وأحوالها كما جاءت بها النصوص وشهد بها الكتاب والسنة .

ولمعالجة هذه القضية نرى أنه يلزم الكلام عن الموت كأول درجة من درجات الحياة الآخرة وذلك بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين حيث نوضح ذلك الغموض المحيط بالموت ومدى القلق الإنساني من ذلك المجهول الذي يقال له (الموت) ونبين مدى إطمئنان الإنسان المسلم إلى مصيره بعد الموت .

وسأعرض لتصور ما بعد الموت في الأديان والفلسفات السابقة على الإسلام لمعرفة الفارق بين التصورين الإسلامي وغير الإسلامي بصدد ذلك العالم الآخر وتتبع ذلك كله بتصوير القرآن لملامح تلك الحياة الأخرى وما يحيط بذلك الموقف من جزئيات إبتداء من الموت الذي لن يفلت منه كائن حي إلى البعث والحشر ، ثم العرض والحساب فالجنة أو النار ، وستكون الآيات القرآنية التي تعالج كل موقف من هذه المواقف هي شاهدنا الأول وهي اليقين الأوحد الذي سيكون بناء عليه التصور الإسلامي لذلك اليوم الآخر .

